مروى جوهر

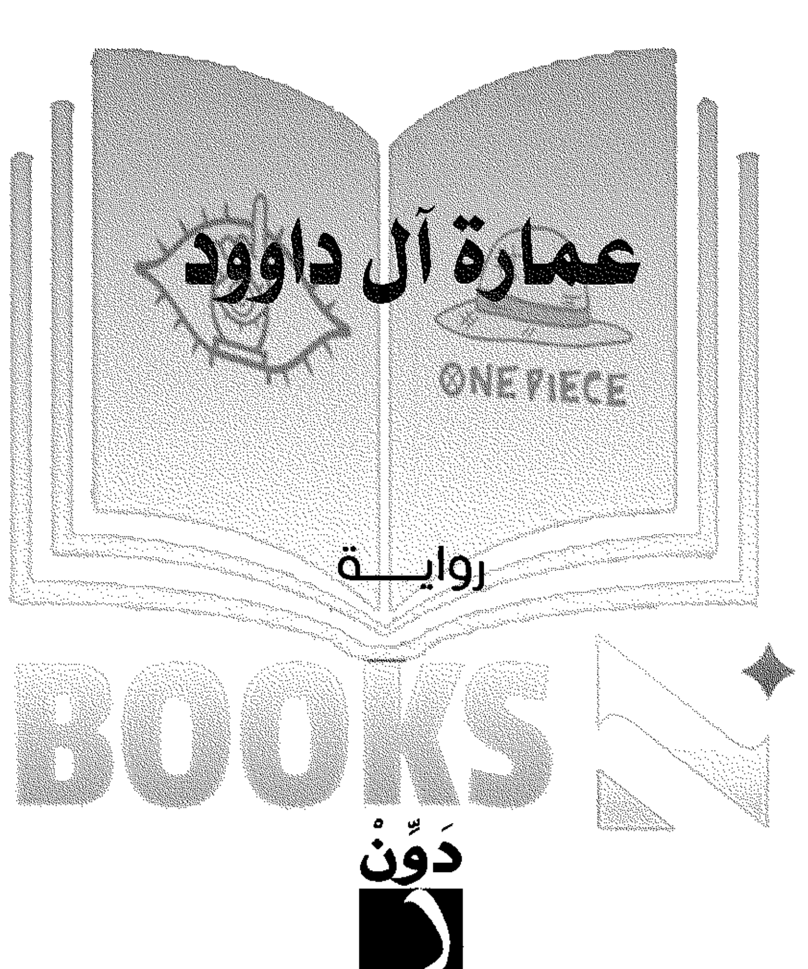
عمارة آل داوود

رواية

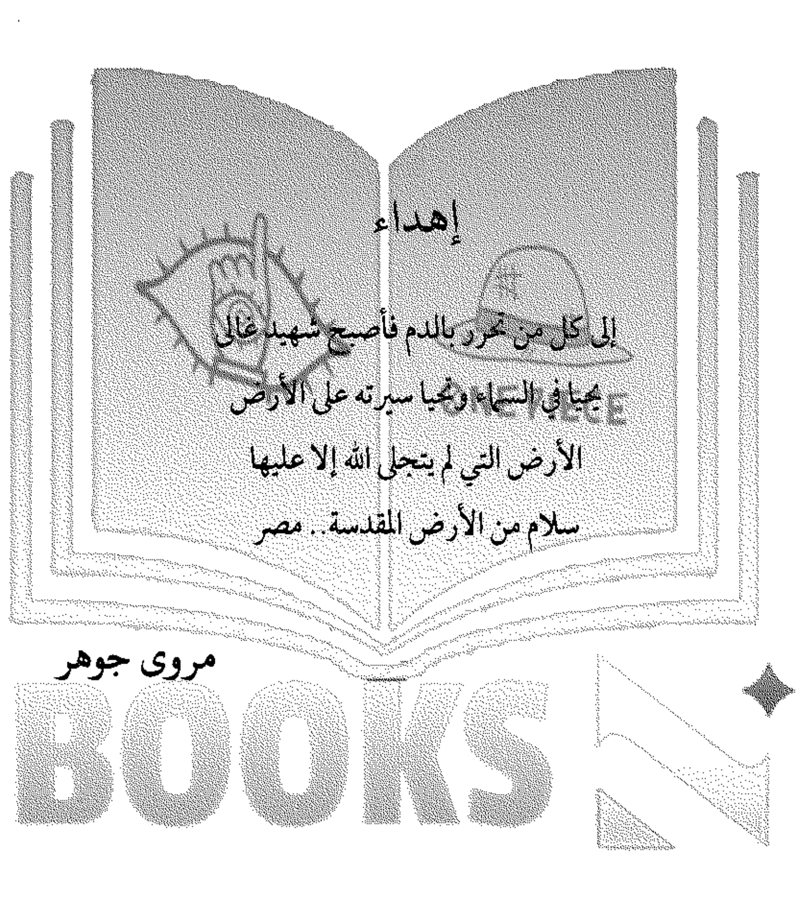
مستوحاة من أحداث حقيقية

دار دَوِّن

مروى جوهر



دَوِّنْ
د
للنشر والتوزيع



إهداء

إلى كل من تحرر بالدم فأصبح شهيد غالى

يحيا في السماء وتحيا سيرته على الأرض

الأرض التي لم يتجلى الله إلا عليها

سلام من الأرض المقدسة.. مصر

مروى جوهر

(١)

- ١٩٥٦ -

في الساعة الثامنة والنصف مساءً، السادس والعشرون من يوليو ١٩٥٦، احتشد الآلاف في ميدان المنشية بالإسكندرية لسماع خطاب الرئيس «جمال عبد الناصر»، في احتفال الذكرى الرابعة لقيام الثورة، في كل ربوع مصر التفَّ رواد المقاهي حول الراديو، وكذلك الأُسر في بيوتهم، كما التفَّ جميع أفراد أسرتي حوله أيضًا والصمت يطبق على المكان في وجلٍ ورهبة...

اقترب جدي من مُحوِّل الراديو في ترقُّب:

- الآن يستمع العالم كله إلى الخطاب.. ترى ماذا كان يقصد عندما قال للأمريكان «موتوا بغيظكم»؟

«قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية».

أصوات تصفيق وهتاف الجماهير وهتاف أبي وجدي وإخوتي، لم تتوقف حتى قاطعهم الرئيس:

باسم الأمة..

رئيس الجمهورية..

مادة ١: تُؤمَّم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة

مساهمة مصرية، وينتقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات، وتحل جميع الهيئات واللجان القائمة حاليًا على إداراتها، ويُعوَّض المساهمون وحملة حصص التأسيس عما يملكونه من أسهم وحصص بقيمتها، مقدَّرة بحسب سعر الإقفال السابق على تاريخ العمل بهذا القانون في بورصة الأوراق المالية بباريس، ويتم دفع هذا التعويض بعد إتمام استلام الدولة لجميع أموال وممتلكات الشركة المؤممة.

لثلاث ساعات ظلَّ «ناصر» يلقي ما يلقي من مفاجآت والكثير من كلمة «ديليسيبس»، وأصوات التهليل والتكبير تزداد من جميع العمائر المُجاورة، بينما تملأ الزغاريد شارع «عبادي» من الشُرفات، وكذلك صياح رواد المقاهي لم ينقطع حتى مطلع الفجر وعمَّتْ الفرحَة أرجاء المنزل، ولم أفهم سبب انسياب دموع أمي من فرط سعادتها!

***

٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ - بعد ثلاثة أشهر

وقفتُ أهو وحيدةً أمام شقتنا عند الدرج الخشبي فور عودتي من المدرسة، أُهذب ضفائر عروس من القُماش الملون، عروس تشبهني صنعتها لي خالتي ليلة عيد ميلادي السابع الذي قضيته البارحة، ثم أتأكد من عدم انسدال ضفائر شعري السوداء الطويلة خوفًا من غضب أمي، أنتظر صديقتيَّ بالمدرسة وجيراني بالمنزل على مهلٍ كما نفعل كل يوم؛ فادية التي تقطن بالطابق الرابع والأخير، وتهاني التي تقطن بالطابق الثاني.

أما أبي - السيد «أحمد الدنون»- كان ما زال يُباشر عمله في «مقهى الدنون» التي يمتلكها بشارع «المنيا وكِسرى»، بينما أخواتي البنات الأربع يقمن بمساعدة أمي بعد عودتهن من المدرسة، في إعداد الطعام وترتيب البيت قبل عودة أبي، لم يحن بعد وقت عودة إخوتي الصبيان الخمسة من المدرسة، لا بُدَّ أنهم يمرون الآن على أبي في قهوته ثم على جدي لأبي في المسجد، وفي طريق عودتهم للمنزل يأتون بالحلوى من محل «جاك و ميتشو» اليوناني صديق أبي.

نحن عائلة كبيرة من اثني عشر فردًا، لسنا من طبقة أغنياء بورسعيد لكننا ميسورو الحال، فأبي يضع العائلة أولًا قبل أي شيء، يهتم كثيرًا بتلبية احتياجاتنا، ويهتم بأن ينعكس يُسر حالنا

على مظهرنا، وهو نسخة ثانية من جدي.

كان أبي طويل القامة، له هيئة شامية مُميزة، نراه كلَّما أقبل علينا بجلبابه المهندم الذي يرتدي فوقه دومًا معطفًا أسودَ قاتم اللون.. ولا ينسى طربوشه أبدًا.. نفر من أمامه عندما يكون مزاجه عكرًا.. نهاب الجلوس معه لمدة طويلة خشية أن نُخطئ فنُعاقب، كان لجدي حضورٌ قويٌّ ومهيب أيضًا، يُبجله أبي وينحني لتقبيل يده كُلما رآه فنفعل مثله على الفور، لكن جدي كان الأكثر طيبة وحنانًا، أما أمي فقد غلبت الطيبة على قسماتها رغم حزمها الدائم.. لماحة وقوية، حنون تتفانى في خدمة عائلتها، وزوجة مُطيعة تُنفذ تعليمات أبي اليومية بالحرف دون مُناقشة.

كان «بدر» هو أكبر أشقائي وأرجحهم عقلًا ورزانة وأكثرنا جمالًا، يليه «صابر» وهو الأحن والأذكى بين أفراد العائلة، ودائمًا ما يعتبر نفسه الأكبر سنًا والمسؤول عنا بعد أبي، أما توأمه «نَصر» فقد نُصِب المراقب الأول على تصرفات البنات بعد أبي، ثم يأتي بعده «مرتضى» وهو شخص عملي يريد أن يصبح تاجرًا كبيرًا، تليه «عايدة» في الترتيب وهي تمتلك دهاء ومكرًا وطيبة أيضًا، ثم «محاسن» وهي شخصية انطوائية ومُتقدة الذكاء، ثم «يسري» الذي يمتلك حِسًا فكاهيًا وجاذبية تجعل كل من يراه يستلطفه، ثم «عصام» الأنيق حاد الهوس المثقف الطموح، ثم «هناء» الذكية الطيبة، ثم أنا.. حياة.

دائمًا أجد السعادة والطمأنينة في رائحة خبز أمي الصباحي،

وسمكاتها المقلية ظهرًا، والتي تأتيني بقوة عبر باب شقتنا المفتوح أثناء لعبي مع صديقتيَّ.

كذلك كانت أبوابِ جيراننا في الطوابق الأربعة للمبنى الذي نقطنه، لا تُغلَق إلا عند النوم، تختلط الكثير من الروائح والمشاعر طيلة اليوم، وتنطبع داخلي كلُّ رائحة بشعور مختلف وذكرى عميقة، كان كل طابق يحتوي على شقة واحدة فقط.. العمارة ضخمة الحجم وعدد الشقق فيها قليل، يلتف «بلكون» كل طابق حولَ نفسه، وكأنه بلكون لعدة شقق وليست شقة واحدة، أما واجهة المبنى فتمتلئ بالمشربيات الخشبية متقنة الصُنع المزينة بعددٍ ليس بقَليل من أصاري الزرع، كُنت أسمع أبي يُردِّد دومًا «هذا المعمار الفريد لن تجده إلا في منطقة القنال».

ذلك اليوم كنت ألعب وحدي منتظرة «فادية» و«تهاني»، لكن بدلًا من رؤيتهما رأيت والد فادية «العم إبراهيم» يصعد مُسرعًا، يطرق كل باب يمر عليه.. طَرقات سريعة في كل طابق ويصرخ مُردِّدًا:

– لا فائدة يا جماعة.. سيقصفون «شارع عبادي» خلال فترة وجيزة.. لا فائدة.. اتركوا ما تفعلون بسرعة.. اهربوا.. لا بُدَّ أن نرحل الآن.. الآن وإلا سنموت جميعًا.

خرجت أمي وإخوتي من الشقة مذعورين وسط أصوات صاخبة غير مُنتظمة تأتينا من داخل العمارة وخارجها.. نظرت أمي إلى الطابق الرابع والأخير والذي يسكنه «العم إبراهيم» وسألته خائفة:

- هل تيقنت من هذا يا سيد إبراهيم؟

حينها رأيت «العم إبراهيم» وزوجته وجميع أبنائه يهرولون في ملابس البيت، والذعر على وجه فادية وقد شرعت في البكاء، خلع طربوشه وصرخ في عجلة وهم يهبطون:

- لا وقت لهذا يا «ست وداد»، الإنجليز سيدمرون الشارع بأكمله، أسرعي أرجوكِ. لا فائدة من هذا كله..

كانت أخواتي الأربع يقفن خلف أمي يبتغين الحماية، بينما بات الذُّعر واضحًا على وجه أمي وهي تُتابع هبوطه وتسأله:

- إلى أين يا إبراهيم؟

صاح «العم إبراهيم» بصوت عالٍ وقد صار في الطابق الثاني:

- إلى شارع «الحميدي» فهو آمن الآن.

نظرت إلى الأسفل عبر استدارة الدرج الخشبي فرأيت جميع الجيران يهرولون إلى الأسفل ومعهم تهاني تُمسك بيد أبيها وتنظر إليَّ في هلع، التفتت أمي خلفها واحتضنت أخواتي وقالت في صوت مرتعش:

- اتركن كل شيء الآن.. هيًّا أسرعن إلى الأسفل.

باتت أصوات محركات الطائرات الحربية قوية وقريبة من مسامعنا، نظرت إلى قدمي وشرعت أن أدخل الشقة فجذبتني أمي من ملابسي فأوضحت لها قائلة:

- سأرتدي حذائي..

نظرت أمي إلى الصوت القادم من فوقها في ذعر وصرخت:

- الآن.. اهبطن الآن يا بنات..

هبطنا الدرج جميعًا في عُجالة حافيات الأقدام لا نملك إلا ملابس البيت التي نرتديها، كنت أهبط وعيني مُعلَّقة بالأعلى على مكان مولدي ومولد أحلامي الصغيرة، لم أكن أدري أنني أودعه، لم أكن أتخيل أنها المرة الأخيرة، وكانت أمي ممسكة بعصا خشبية كانت تُقلِّب بها السمك المقلي، بينما أمسكتني أختي بدر عن يمينها وأمسكت محاسن عن يسارها، وأمسكت أنا بدميتي جيدًا، في حين تولَّت أمي أمر عايدة وهناء لتقودنا في اتجاه شارع الحميدي حيث تسكن عمتي «هانم».

المنظر مهيب، أهل «عبادي» كلهم يهرولون مذعورين في مشهد لم أستطع محوه من رأسي، الجميع يهرب من القصف المرتقب يتحركون ذهابًا وإيابًا في كل الاتجاهات، أصوات الانفجارات وصرخات بعيدة تُحدِث صدى صوت يُلقي الخوف في القلوب، طائرات قريبة ضخمة تلهو بأرواحنا، صوتها ينذر بكارثة، وكانت أمي تتلفت إلينا كل دقيقة خشية أن تفقدنا، وبعد دقائق قليلة بدأ القصف.. وبدأت الأدخنة السوداء تكسو سماء بورسعيد التي كانت آمنة منذ دقائق، أصوات القنابل جعلتنا نموت ألف مرة، نسد آذاننا بأيدينا، ونستفيق لنُدرك أننا ما زلنا في عداد الأحياء مجازًا، تلاحقنا الأصوات كأنها تريد إنهاء حياتنا وإتمام ما لم يفعله القصف.. وأقبض على دُميتي بقوة فهي كل ما تبقى من عالمي الآن، ثم بدأنا في الصراخ مما جعل أمي تفشل في إخفاء ذعرها فالتفتت إلينا وهي تصرخ:

- لا تخفن.. ابقين بجانبي فحسب.

نظرت ورائي بعد أن سمعت صرخات مدوية فرأيت النيران تحاصر أسرة مثلنا، الأم تحتضن أولادها وتحاول الابتعاد بهم من وسط دائرة من النيران مستغيثة، جذبني بدر للأمام بشدة فرأيت شيخًا كبيرًا مُلقى على الأرض وقد تمزقت عباءته من أثر حريق، فهرول ثلاثة من الرجال يحملونه من يديه وقدميه بعيدًا عن القصف، إضافة إلى أطفال كثيرين يصرخون ويهرولون تائهين عن أهلهم وسط الزحام والفزع، وإذا بصوت مألوف مذعور يصلنا واضحًا وهو ينتحب ويستغيث في نفس الوقت:

- أغيثوني يا ناس.. النار أمسكت بابنتي.. يا رب رحمتك.

نظرت خلفي مرة أخرى فوجدت صديقتي فادية تصرخ في هلع وقد اشتعلت النار بجسدها، وأمها تحاول إطفاءها بينما العم إبراهيم يحمله رجلان ليضعاه على جانب الطريق! ضاقت أنفاسي ورُحت أشهق وأزفر في سرعة والعرق يغزو جسدي، وشعرت بغثيان ورجفة عنيفة تتملكني، والتف بعض المارة يحاولون إطفاء النار التي أمسكت بجسد فادية، ولم أستطع أن أعرف هل مات العم إبراهيم أم أصيب.

أصبحنا نسير وسط الكثير من الحطام، والجرحى على الأرض ينزفون، نسير بحذرٍ تارةً ثم نُسرع لنختبئ في مدخل إحدى البنايات تارة أخرى، ظللت أبكي رغمًا عني وأخشى على أمي وأخواتي وأفكر في جدي وأبي وإخوتي فأكاد أموت خوفًا وكمدًا عليهم.

* * *

بتنا أخيرًا على أعتاب بيت العمة «هانم» في شارع الحميدي، بينما كان الناس يحتمون من القصف بالوقوف في مداخل البنايات لحين انتهائه، وعندما دخلنا مبنى العمارة التي لم يختلف شكلها عن عمارتنا كثيرًا.. وجدنا عمتي تقف على أعتاب شقتها بالطابق الثاني حيث كانت على عِلم مُسبق كالعم إبراهيم بما سيجري في المدينة، فتوقعت قدومنا بين الحين والآخر.

دخلنا بملابسنا المتسخة في عجالة نعجز عن التقاط أنفاسنا من فرط الذعر، بكت أمي وقالت:

– قلبي يكاد ينخلع من الخوف على زوجي وأولادي.. وماذا فعل عمي يا ترى؟ أين هم الآن وهل يعلمون بما يحدث أم أنهم سيعودون إلى البيت في عبادي؟

أخذت العمة تحتضننا وتهدِّئ من روعنا بينما كنا جميعًا نبكي خائفين، وعادت أصوات مُحركات الطائرات فوق العمائر من جديد، مع أصوات صرخات تنبعث من أماكن مُتفرقة بالخارج لا نستطيع تمييز مصدرها، فهرولنا إلى البلكون لنرى طائرات حربية في السماء والناس ما زالت تهرول في الشارع لتحتمي بعائلاتها، نتساءل هل سيقصفون شارع الحميدي أيضًا؟ أدخلتنا عمتي وأغلقت البلكون فجلسنا، ثم جلست هي بجانب أمي تهدئ من روعها قائلة:

– سوف يأتون جميعًا إن شاء الله.. أهالي بورسعيد كلها علمت أن الإنجليز أولاد الحرام سيقصفون «عبادي»، إذ أشاع الناس أن عناصر المقاومة تُخبِّئ الأسلحة هناك، كما يُقال إنهم اختطفوا جنديًا

إنجليزيًّا وخبأوه هناك أيضًا.

لم تهدأ أمي ولم تتوقف عن البكاء، ووقفت تنظر إلينا فجأة في ذهول كأنها خارج الأحداث وقالت:

- أيقصفون شارعًا سكنيًّا كبير بأكمله؟ عقلي لا يُصدق هذا.. لا بُدَّ أنه كابوس.. ما الذي فعلته بنفسي وبأولادي يا هانم! سوف أعود إلى البيت فقد تركت السمك على النار.. أخشى أن تحترق الشقة.

توجهت الأنظار إليها وقد أدرك الجميع أنها قد أصيبت بشيء من الهذيان جراء الموقف، بكيت خوفًا ثم سمعنا طرقًا قويًا مُتتابعًا على الباب فقالت عمتي:

- افتحي الباب يا حياة.

كان الطارق خالي «السيد»، نظر إلينا وزفر زفرة طويلة ومسح ما بقي من دموعه تحت نظارته السميكة ثم استند إلى الباب وقال وهو ينظر إلى عمتي:

- سعيدة يا ست «هانم».

- سعيدة مبارك.. تفضل يا سيد، وأغلق الباب وراءك.

دخل وجلس على أقرب مقعد وقد تهدجت أنفاسه، وأرهقه السُعال إثر الربو الذي أنهك رئتيه وقال في نبرة قلقة:

- توقعت وجودكم هنا، الحمد لله.

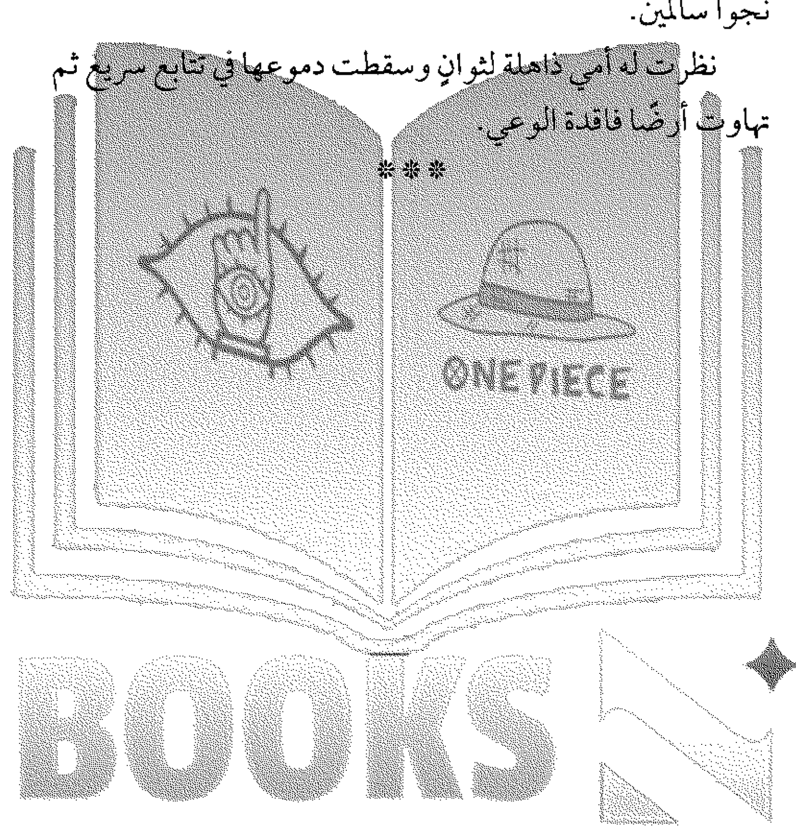
هرعت أمي إليه وكأنها وجدت كنزًا وقالت:

- الحمد لله أنك قد أتيت.. خُذني إلى البيت يا سيد، أخاف أن يحترق وقد تركت مِقلاة السمك على النيران و...

قاطعها خالي قائلًا ودموعه تتساقط في استسلام وأسى على وجنتيه:

- لقد قُصف شارع «عبادي» بالكامل يا وداد... لم يبقَ هناك إلا الركام والغُبار والأدخنة.. والجثث أيضًا... لنأمل أن يعود من نجوا سالمين.

نظرت له أمي ذاهلة لثوانٍ وسقطت دموعها في تتابع سريع ثم تهاوت أرضًا فاقدة الوعي.



***

٢٩ ديسمبر ١٩٥٦ - بعد مرور شهرين

في منامي كانت فادية لا تكف عن الصراخ كلما غفوت، الجثث في الشوارع تنهض وتبحث عن قاتليها، التائهون عن ذويهم يحملون السلاح سعيًا لقتل من قام بتدمير البلد، وأنا أهوي من فوق قمة عالية لأجد نفسي في عربة نقل مليئة بالجثث المشوهة! في طريقهم لدفن جماعي لصعوبة التعرف عليهم.

لم تفارقني الكوابيس لكننا حظينا بفرصة أخرى للحياة رغم كل شيء، وكان شعورًا يغمرنا باطمئنان مؤقت أن أنعم الله علينا بلمّ شمل العائلة من جديد، فقد نجا الجميع من القصف، ومكثنا عند العمة إلى أن يتدبر أبي لنا منزلًا جديدًا.

انطلق صوت المطربة «شادية» عبر الراديو يشدو.

«أمانة عليك أمانة يا مسافر بورسعيد.. أمانة عليك أمانة لتبوسلي كل إيد حاربت في بورسعيد»،

بينما يجلس أبي مهمومًا يتحدث إلى زوج عمتي لحين انتهاء النساء من إعداد الغداء، ويُنصت إخوتي الصبيان له في أدب ولا يعلقون إلا بإذن من أبي، بدا على جدي وجوم وحزن شديدان.

التف رجال العائلة حول «طبلية» كبيرة من الخشب لتناول

الغداء، بينما أصبحت أصناف الطعام محدودة للغاية، بعد أن كنا ننعم بكل ما لذ وطاب ونتذمر من تكراره، أما الآن فوجبة الأرز والعدس هي نصيبنا اليومي لنُدرة الطعام في الأسواق.

بدأ أبي وزوج عمتي يتحدثان فقال أبي مُنزعجًا:

- نفد صبري وأشعر بضيق وعجز.. إلى متى سنعيش هذه الأجواء؟ أصبحت المدينة أكوامًا من الركام والغبار، فالمعارك العنيفة بين قوات العدوان والمقاومة الشعبية قد خلفت جثثًا لا حصر لها تملأ الشوارع، والأهالي يبحثون عن ذويهم المفقودين في لوعة، حتى إن بعض الجثث تعفنت في الشوارع، أين إكرام الميت؟ أصوات الثكالى تصُك الآذان، سيارات ودبابات العدو تجوب الشوارع ليلًا ونهارًا، لا كهرباء ولا ماء ولا طعام.. أُغلقت محال ودكاكين البلد بالكامل إلا المستشفيات لإسعاف المصابين، لا نستطيع أن نسير في شوارع بلدنا بعد الخامسة مساءً؟! ما هذا الذل الذي وقع علينا؟

ردَّ زوج عمتي:

- أولاد الأبالسة نالوا تأمين ملاحتهم البحرية والجوية عبر خليج العقبة من وإلى ميناء إيلات، واستولوا على محطة المياه فقطعوها عن الأهالي كي يستسلموا! الأسوأ قادم يا حاج.

سمعت عمتي تهمس «فأل الله ولا فألك».. بينما قال أخي صابر لأبي قائلًا كمن ينقل الأخبار:

- رأيت البارحة بعض المارة يقتحمون محل بقالة في حي «الإفرنج» ويسرقون الأجبان والخبز، الناس جائعة ومعذورة، أود لو أحمل السلاح لأقتل المُحتلين جميعًا وأنتصر لبلدي..

علا صوت أبي فزعًا:

- ومن الذي أذنَ لك بالذهاب إلى الإفرنج؟ إياك أن تفعلها ثانيةً؟ لا أريد «نبيل منصور» آخر في بيتي؟ هل تريد أن تُفجعني في موتك؟ الأمور صارت مُعقدة بعد أن خطف رجال المقاومة «مور هاوس» وتركوه يموت جوعًا.. نحن نُتعذب علنًا في شوارع بلدنا.

ضحك زوج عمتي قائلًا:

- قال قريب ملكة إنجلترا قال..

لاح على وجه صابر الخوف ونظرت أمي إليه وقالت مُطأطئة الرأس:

- بعد الشر.. أردته فقط أن يبتاع لنا العدس في أمان الصباح.

قطع جدي صمته وقال في حزم:

- أنسيتِ ما حدث هذا الشهر؟ أنسيتِ توالي الغارات وانطلاق الرصاص العشوائي في الشوارع لحصد الأرواح بلا ذنب، الكلاب هدموا المنازل وقتلوا النساء والأطفال بلا رحمة! كان لا بُدَّ للمقاومة أن تثأر.. «مور هاوس» كان ضابطًا إنجليزيًا مُتعجرفًا سفاحًا يستحق القتل، ومع ذلك لم تقصد المقاومة قتله.. كانوا

يريدون استبداله بضباط مصريين أسرى لديهم، لكنهم لم يستطيعوا الوصول إليه بعد أن شدد الإنجليز الحصار وحظر التجوال علينا.. لا أمان مع الإنجليز ولا شرف لهم، أبوكم سيُحضر الطعام أو زوج عمتكم، الخروج من عتبة البيت يكون بحذر حتى تنكشف الغمة.

أومأنا جميعًا بالإيجاب دون كلمة زائدة.. أنهى زوج عمتي طبقه وأسند ظهره إلى الأريكة الخشبية من خلفه وهو يقول مُتنهدًا:

- الله يرحم الشهيد «نبيل منصور»، كان نعم الولد، ألهب غيظ الإنجليز في معسكرهم وأحاطهم بألاعيبه، فتارة يحرق مؤنهم وتارة يسرق بنادقهم، أذاقهم المُر لكن الأبالسه فطنوا إليه وأردوه قتيلًا.

قالت عمتي في فخر:

- يكفي أهله فخرًا أن بفضل استشهاده، انتفض أهالي بورسعيد وتجمهروا في مظاهرة كبيرة احتجاجًا على قتله.

علقت أمي في أسى:

- كان الله في عون أهله وربط على قلوبهم، نحن نعيش لنُحمل على أعناق أولادنا وليس العكس يا هانم.

بدا أبي يفكر جيدًا قبل أن ينظر إلى عمتي وزوجها وهو يداعب شاربه ويقول:

- دعكم من هذا الحديث فالشهداء لا يكترثون له في نعيمهم،

هل علمتم أن الحكومة ستعطي تعويضات لكل من قُصفَ بيته؟

- نعم سمعت.

قالها زوج العمة في عدم اكتراث فتنحنح أبي كأنه سيلقي خطابًا سياسيًا كخُطب «ناصر»..

- أريد أن أشكركم على كل ما فعلتموه من أجلنا لشهرين كاملين، لكنَّ بقاءنا معكم لن يفيدنا في الفترة القادمة، لقد خصصت الدولة المدارس كسكن مؤقت لكل المتضررين حتى يقوموا بحصر أعدادهم ويمنحوهم شققًا سكنية بديلة في أسرع وقت، سنغادر وسنأخذ فصلًا من فصول المدرسة للعائلة بأكملها للمعيشة، سيكون الأمر مختلفًا بلا شك، لكننا سنعتاده حتى ننتقل إلى منزل جديد في القريب العاجل، سيكون كل شيء على ما يُرام بالمشيئة.

ذهبت العمة إلى جدي واحتضنته قائلة:

- إذا أردت هذا فإنه حقك في التعويض، لكن أبي لن يعيش في مدرسة ومنزلي مفتوح.. ستمكث معي يا أبي هنا حتى يتمكن أخي من تدبير أمر المنزل.

حينها نظرت أمي إليه في قلق لعلمها أنه لا يستريح في صحبة زوج العمة وقالت:

- هيًّا يا بنات.. أكملن غداءكن بسرعة وأسرعن لتخزين

المياه، فنحن لا نعرف متى ستتوفر مرة أخرى.

أجاب الجد في نبرة هادئة دون أن ينظر لأحد، وأصابعه تلتف حول مسبحته وكأنه قرأ عقل أمي:

- الآن نتعلم معاني الأشياء وقيمتها، ونرى بَعضَنَا البعض من وراء حواجز مفروضة، لعلَّنا نقدر وجودنا سويًّا في الحياة، ونتأمل كل تلك النعم التي لم نلتفت إليها يومًا.. فنعيد ترتيب المشهد من جديد، سوف نتعرف إلى أنفسنا.. لا تقلقوا..

لتكن مشيئة الله.

***

أوائل ١٩٥٧

برد الشتاء القارس لا يرحم العائلات التي ترتجف من البرد في فصول المدارس لما يلاقونه على أرضية فصول مدرسة «الوصفية» من صقيع لا يهدأ.

كانت المعونة الأمريكية ترسل للمتضررين ملابس شتوية، ويشكرهم أبي في أسى، بينما نرتدي ما نراه مناسبًا لأحجامنا، فنحن لا نملك رفاهية القياس هنا. وكانت تصيح أمي بوجهي كلما امتعضت من ملابسي:

- «لن يُلحَظ كم كان جلبابك واسعًا أم ضيقًا.. ما يهم هو أنه يمنحك الدفء».

في الليل يُغلق أبي ترباسًا وضعه بنفسه على باب الفصل من الداخل، أتلحف الغطاء الرقيق جيدًا دون جدوى، فالبرد ينهش في عظامي دون رحمة، أنادي على أمي همسًا، لكنهم جميعًا يغطون في نوم عميق يصلون إليه كل عدة أيام مرة واحدة، تركتهم كي يستريحوا من عناء الإحساس بمعيشة اللاجئين في بلادهم، وعناء التظاهر بأن كل شيء على ما يرام كما يُردِّد أبي في كآبة كل فترة.

كانت ليلتنا الأولى في المدرسة شديدة القسوة.. بكينا كثيرًا سرًّا وفي صوت مسموع، حمد أبي الله أنه لم يجادل العمة في طلبها، وأن جدي لم يخضع لهذه التجربة.

كان طابور المراحيض لا ينتهي، تقول عايدة إنها لا تحتمل كثرة وقوفها في طابور المرحاض، لكن برد الشتاء لا يسمعها، وأنا أيضًا لا أستطيع أن أتحمم في هذا الطابور، سأذهب إلى إحدى الخالات لأنني كلما ذهبت لعمتي ورآني جدي شعر بانكسار وأسى شديدين.. وأنا لا أتحمل انكساره.

كانت أمي تدعو الله ليلًا ونهارًا في جَلَد أن يهوِّن علينا ما نُلاقيه، لكنها لم تستطع كبت دموعها عندما بدأ الأقارب يتبرعون لنا بملابسهم وأغطيتهم وأدوات مطبخهم، فقد أعطتنا عمتي «هانم» «وابور جاز» وبعض الأكواب، وجاءت الخالات بكل ما يلزم لنأكل ونشرب ونعيش! لكن أي حياة تلك؟

قدمت أمي الشكر لمندوب المعونة الأمريكية الشهرية، وتسلمت منه كرتونة كبيرة بها سمنٌ، لبن بودرة، جبن «سيستر»، خبز وحلاوة، وأشياء كثيرة نتناولها على مدار الشهر، ثم ننتظر حصتنا الأسبوعية من «البطاطس واللحم بالصلصة»، اثنتا عشرة قطعة من اللحم، لكل فرد قطعة، بينما تدمع عين أمي كل دقيقة من الانكسار والمذلة.

الشهور تتوالى.. أبي يتردد على المسؤولين في المحافظة، تتوالى الشهور ونحن نقترب من فقدان الأمل، وأبي يتحمل ما لا تتحمله الجبال، لكن أحدًا منا لم يكن يتحمل بكاء جدي.

علا صوت أبي على باب الفصل في إحدى الليالي بعدما انقضت شهور البرد:

– يا وداد.. جهزي الأولاد، سينقلوننا إلى مدرسة أخرى صباح الغد.

نظر إلى بعضنا البعض في استسلام، سينقلوننا إلى مدرسة «جمال يوسف»، وهي مدرسة أصغر وأضيق، هل يريدوننا أن نتشرد حتى نحظى بمكان آدمي يليق بنا؟

كانت الأيام تمر بقسوة.. الأسابيع والشهور تلحق بهم، ونزداد إحباطًا ويأسًا دون أن نشعر، ورود تذبل قبل أن تتفتح.. لعن الله العدوان الثلاثي.. لعنَ الله غدرهم جميعًا.

ذات ليلة كُنا نستعد للنوم بعد صلاة العشاء كما تعودنا دومًا، بعث الله بنسمات هواء مُنعشة تخفف عنا رطوبة الجو، بينما أطفأت أمي لمبة الجاز للتوفير، مكتفية بما يُرسله عامود نور قريب من ضوء خافت يعيننا على رؤية طريقنا إلى المرحاض في منتصف الليل.

غفوت في نوم عميق هانئ لأول مرة منذ أشهر، لكني استيقظت فزعة على صراخ «محاسن»، قُمنا تباعًا نتخبط في بعضنا

البعض من فرط الفزع، فصراخها لم ينقطع، حتى وصل أخي صابر للمبة الجاز وأشعلها، والتففنا حولها نهدئ من روعها في ذهول، ومن ثم مسح أبي عينيه وسألها:

- ماذا حدث؟

- لقد رأيته يُشعل لمبة الجاز..

- مَن؟

- تهيأ لي أنني أحلم وتجاهلته فأطفأها، لكنه عاد وأشعلها مرة ثانية، قُمت وجلست مكاني وكنتم جميعًا نائمين فوجدتها منطفئة، اعتقدت أنه كابوس، فرجعت إلى نومي.

شهقت أمي:

- لص؟!

قال أبي في حزم:

- صمتًا يا وداد.. ماذا حدث؟

- رأيته يقف بجانب اللمبة ويُشعلها، ارتجفت وخِفت أن أقوم من مكاني أو أوقظكم، لكنه أمسك بها وهي مُشتعلة واقترب منكم جميعًا وأخذ يراقبكم عن قُرب ويبتسم ابتسامة مُخيفة وهو ينظر إلى وجوهكم في شر، ولما اقترب مني أغلقت عيني، فكاد أن يبتعد لكن دموعي فضحت أمري، فاقترب من وجهي مرة أخرى.. وعندما فتحت عيني رأيت وجهًا مقززًا مُخيفًا لرجل لم أرَ

مثله من قبل فصرخت.

سألها أبي في غيظ:

- وأين ذهب؟

- اختفى! ورأيت اللمبة في مكانها مشتعلة!

ذهب أبي يتفقد الترباس فوجده سليمًا، فتح الباب وأخذ يتمشى في طرقة المدرسة، لكن جميع العائلات كانوا نائمين بالفصول، إذ اقترب ميعاد الفجر لكن لم يحن وقت الأذان بعد كي يستيقظ أحد! فعاد أبي يسأل محاسن:

- أين ذهب؟

- اختفى يا أبي.. اختفى فجأة.. لا أدري أين ولا كيف؟!

احتضنتها أمي في حنوٍّ وخوفٍ، وأخذت تربت على جسدها وتقبِّل رأسها وهي تتمتم بأدعية وآيات القرآن الكريم، لم ننطق بأيِّ كلمة.. اشتعل غضب أبي وأشعل سيجارة، راح ينفث دخانها في غضب ويصيح في استهزاء:

- ما هذا الهراء، أين اختفى؟ هذا كابوس بلا شك.

بكت محاسن أكثر:

- أقسم لك يا أبي إنه اختفى.. لعلي رأيته يطير لأعلى عند استيقاظكم.. هكذا خيِّل لي.

توجهت أعيننا جميعًا إلى السقف وقد بدأ ينقشع ظلام الليل

ليستقبل خطوط الفجر الأولى، وعلى هذا الضوء وضوء لمبة الجاز رأينا بقعة سوداء هائلة لم نكن نراها بالأمس!

ارتسم الذهول والتعجب على وجوهنا، ونظرت أمي لأبي نظرة ذات معنى، وهنا علا أذان الفجر مدويًا ليفصل بين ظلمة الليل واستعداد النهار للقدوم.. ارتدى أبي معطفه وخرج دون كلام، بينما ظللنا مُستيقظين ما بقي من الليل وعقولنا تشتعل كلمبة الجاز.

عاد أبي عند الظهيرة واجمًا، وكانت أمي تجلس خلف «وابور الجاز» تُعد لنا العدس المُعتاد، ثم أغلق باب الفصل وقال لها في جدية:

- لقد قمت ببيع المقهى.

ضربت أمي بكفها على صدرها شاهقة:

- ماذا.. ومن أين نأكل؟

- الله سيطُعمنا كما يفعل الآن، كان العرض سخيًا من «جاك وميتشو».. لم أقبله قبل العدوان، لكن في وقتنا هذا وبعدما صبرنا وتنقلنا بين المدارس وفصولها وحرها وبردها، يعز عليَّ أن أرى ابنتي تبكي خائفة في منتصف الليل، كفانا مهانة، ولسوف أتدبر الأمر، لم أتهاون طوال الفترة الماضية في البحث عن شقة، لكن الأسعار باهظة في المناطق الآمنة أو التي نظن في كونها آمنة، لكنني بفضل الله وجدت مكانًا...

ثم صمت قليلًا وكأنه يستجمع ما يريد ثم تابع:

- وجدت حلمًا قديمًا، ما كان لي أن أبتاعه إلا ببيع المقهى وكذلك ميراثي في بيتنا القديم بحي العرب لهانم، هاجر الأهالي وتشتتوا في القاهرة ودمياط والمنصورة وطنطا وغيرها.. لكني لن أترك بورسعيد ولو كُنت جثة هامدة.. لا تقلقوا سوف نعيش حياة كريمة كسابق عهدنا بالمشيئة.

قامت أمي فربتت على كتفه في حنان:

- لا تحمل الهم.. سوف يعوضك الله من حيث لا تحتسب..

- يحلها الله من عنده.

***

أواخر ١٩٥٧

وفى أبي بوعده كما يفعل دائمًا، وفي إحدى الصباحات المُشرقة وقفتُ أمام المدرسة أُودّع أيامًا بائسة، وجاء صوت أمي مُنبهًا:

- يا حياة.. في أي شيء تتأملين؟ سيقتلنا أبوك إن لم نُسرع.. اصعدي..

انتبهت فصعدت الحنطور على الفور، لكنَّ عيني ظلت مُثبتة على المدرسة، أمقتها وأمقت الإنجليز، أمقت كل ما فهمته وما لا أفهمه، وأدعو الله أن يتغير كل هذا في بيتنا الجديد.

تحرك الحنطور في شوارع بورسعيد الرحبة، وانحنى في بعض شوارعها الضيقة في انسيابية عجيبة، راودتني كثير من الأحلام على صوت خطوات الحصان، ورأيت مدينتي الجميلة وقد بدّلها قصف العدوان، إن هذا العالم قبيح لا يستحق كل هذه الأحلام، هل صحيح أنني لم أتجاوز الثامنة من عمري بعد! لأنني بتُّ أشعر أنني في السادسة عشر، لقد كبرت عمرًا على عمري، ولم أعد تلك الصغيرة التي تلهو بدُميتها عند الدَّرج الخشبي، وقد علمت بموت «فادية» رغم كل محاولات أمي بالتشويش كُلما سألت عنها.

وقف الحنطور الأمامي عند «حارة اليهود»، بين حي العرب وحي الإفرنج، فتوقفنا وراءه، وهبطنا في تتابُع وبدأنا نخطو

خطواتنا الأولى لعالم جديد، أتذكَّر كلمات أبي في فصل المدرسة الآن حينما عاتبته أمي في اختيار المكان:

- تسميتها بحارة اليهود لا ينفي أنها أرضنا يا وداد.. هل تقع حارة اليهود هذه في الكيان الإسرائيلي أم في بورسعيد؟

كانت المرة الأولى التي أرى فيها حارة اليهود، كانت فادية تزور فيها إحدى زميلاتنا اليهوديات في المدرسة، لكن أمي كانت ترفض بشدة، ومع ذلك تردِّد أن الدين لله!

- أريد أن أذهب مع فادية إلى «إستر» يا أمي.

- لا.

- أرجوكِ.

- قُلت لا.. كم مرة ينبغي أن أقول لا.

- ألأنها يهودية؟

- حياة.. ألا ترين أنني أعدُّ لكم الطعام، سأقولها للمرة الأخيرة. ليس لأنهم يهود بل لأنهم صهاينة خونة.

الآن تتردد كلمة «صهاينة» في أذني ولا أعلم معناها، وهل تعلم أمي معناها أم ترددها وراء أبي فحسب؟

لم تكن الحارة ضيقة جدًّا كباقي الحارات، نظيفة ولها طابع خاص، وكانت المفاجأة الكبرى حينما وجدت جدي يقف فرحًا أمام عمارة كبيرة حديثة العهد نسبيًّا من ثلاث طوابق، عليها يافطة كبيرة باسم «عمارة آل داوود» وفوق اليافطة نجمة كبيرة مطموسة داخل الحائط لكنها واضحة في الوقت نفسه، دون أن أشعر عادت

الطفلة بداخلي فَرِحةً برؤية جدي، دمعت عيناي وهرعت إلى أحضانه في اشتياق وغرقت داخله. فزارني شعور رائع بالأمان كدت أن أنساه.

* * *

مدخل العمارة واسع وأنيق، حيث الورود الملونة والمرآة الكبيرة على جانبيه، بينما يزين الأرض بلاط من مربعات ومستطيلات مُتداخلة مُلونة ومُزركشة، وبعد صعودنا بضع درجات وجدنا شقة وحيدة على الجانب الأيمن، صعدنا جميعًا إلى الطابق الثاني وراء أبي، كان بكل طابق شقتان، أبواب الشقق طويلة، خشبية، بنية اللون، مُقسمة إلى درفتين، بهما شُراعات زجاجية طويلة، فتح أبي الباب وابتسم ابتسامة واسعة وأشار لنا بالدخول.

انتشر إخوتي متقافزين في فرح يفتحون أبواب الغرف ويتجولون بها، كانت الشقة واسعة. أكثر اتساعًا من شقة عبادي، كان هناك ممر صغير هو المدخل للشقة كبيرة. وفي آخره ساعة ضخمة طويلة عتيقة لها باب طويل زجاجي، وإلى اليمين مطبخ كبير وصالة الاستقبال، بينما يكسو الجدران لون أخضر من ورق حائط رُسمت عليه ورود ذهبية خفيفة، وكانت هناك صورة كبيرة للرئيس جمال عبد الناصر على أحد الجدران.

كانت بالشقة ست غرف كبيرة.. بكل منها فراشان ودولاب، إضافة إلى حمَّام قريب من آخر غرفة في الطرقة، وبلكونة طويلة تحاوط الشقة كلها كاملةحيث تلتف كاللبلاب حول صالة

الاستقبال مرورًا ببعض الغرف والمطبخ، وكان السقف عاليا، تمامًا كشقتنا القديمة، ربما كان أكثر ارتفاعًا.. بها أثاث مُستعمل لكنه بحالة جيدة تمامًا، غالٍ وله ذوق رفيع.

كان الفضول والدهشة تُطلان من عيون الجميع، أردت أن أستكشف المكان كإخوتي، تجولت ببطءٍ كأنني مسحورة، أحدق في الممر المؤدي للغرف، وأنظر بشغف إلى الأثاث المريح، لا أصدق أن كل هذا لنا بعد أيام صعاب، وفي مدخل الطرقة انقلب كل شيء من حولي في لحظة.

اختفت عائلتي فجأة من أمام عيني.. ولم يتبقَّ سوى دائرة بيضاء أمامي! نظرت حولي فوجدت خواء كاملًا، دق قلبي بعنف وأخذت أنادي عليهم جميعًا فلم يسمعني أحد.. بطريقة لا أفهمها اختفوا تمامًا!

نظرت للأسفل فرأيتني أقف فوق حافة هشة على ارتفاع شاهق.. أكاد أن أهوي للأسفل! كان الحل الوحيد أن أدخل الدائرة لأحتمي من السقوط، دخلت الدائرة فنقلتني لعالم آخر في ثوانٍ، بعيدًا عن كلِّ ما أعرفه، صرخت بأسماء أهلي لكنهم لم يكونوا هنا! لم يسمعني أحدٌ؟ ارتعبت، ثم رأيت لقطات خاطفة لبنَّائين يعملون في جد وتعب، حُلي تتلألأ، رجل يجلس باكيًا على الأرض محسورًا، اقتربت منه بخوف لأسأله عن مكان عائلتي التي اختفت، فور أن اقتربت منه فاجأني وجه شيطاني ظهر من اللا شيء فحال بيني وبينه، صرخت وهرولت بعيدًا.. لكن إلى أين وأين أنا؟ إلى الخواء.. إلى الضباب! لا أدري مِن أمري شيئًا!

فجأة أمسكَتْ يدٌ بذراعي تهزني بقوة فصرخت، وانقلب كل شيء من حولي وارتد لأصله فوجدت عايدة تُمسك بذراعي وتقول:

- هل فقدتِ حاسة السمع؟ نادي عليكِ كلنا وأنتِ وكأنك في عالم آخر.. ما بكِ؟!!

نظرت حولي فوجدتني ما زلت في طُرقة البيت لم أدخل أيًّا من الغرف! والجميع يجلسون في نفس أماكنهم وقد توقفوا عن الحكي وثبتوا أنظارهم عليّ! نظرت لعايدة واحتضنتها فنظرت إليّ مُتعجبةً، وتوجهت معها حيث يجلس الجميع دون أن أسرد ما رأيته رغم خوفي، رأيت جدي يدخل من باب الشقة وكأنه يعرف مكان مجلسه، وما إن استراح في جلسته على الأريكة حتى هرعت إليه أحتضنه وأطمئن لقُربه.

- هل لي أن أشاركك غرفتك يا جدي؟

ربت على كتفي في حنان وقبّل رأسي وأومأ مُوافقًا، وقالت عايدة مُستفسرة:

- هل سنعود للمدرسة يا أبي؟

- بالتأكيد.. أسعى لذلك في القريب.

غلب اندهاش أمي كل شيء وهي تتأمل الحائط، فقالت غير عابئة بالحديث عن المدرسة:

- هذا أكبر مما كنا نحلم به بكثير... لكنَّ شيئًا غريب أن يعلق اليهود صورة لعبد الناصر في بيوتهم!

ضحك جدي وقال:

- بالطبع لا.. لقد علقتها يا وداد قبل أن تحضروا.

أشار أبي لنا لنسمعه ووقف ليخطب فينا.. لكن هذه المرة بدا صوته قويًّا متماسكًا ومُختلفًا وكأنه يحقق حُلمًا:

- أرى الفرحة في عيونكم جميعًا والحمد لله، ابتعت هذه الشقة كما ترون، بأثاثها، من السيدة «جابي»؛ أرملة رجل أعمال يهودي وورثته، قبل رحيلها من مصر مثل بقية اليهود، لكنها ليست آخر المفاجآت.

ابتسم جدي وربت على كتفي مطمئنًا، واتسعت عيون أمي وإخوتي استعدادًا لتلقي الأخبار، فأكمل أبي مُبتسمًا:

- لقد يسر لنا الله بفضله صفقة لم أكن لأعوضها، كان عليَّ أن أستغلها مهما كان الثمن، لقد تبرع جدكم بكل ما يملك وأكملت عليه ببيع المقهى وبيع ما بقي من ميراثي كما قُلت لكِ...

وصمت مستجمعًا كلامه ثم تابع في بهجة:

- لأبتاع هذه العمارة.. عليكم أن تعرفوا أنني لا أمتلك شيئًا الآن غير «عمارة آل داوود».

فُغِرَ فوه أمي وهمهمت:

- تقصد أننا مُلَّاك العمارة بالكامل الآن؟ أنا لا أصدق!

- مَن كان يُصدق أننا سوف نمتلك «عمارة آل داوود» يومًا ما!

- لم أصدق حديث الخواجة ميتشو في بادئ الأمر، كان يعلم أنني أبحث عن شقة فجاءني في المقهى ذات ليلة ينصح بشرائها

فضحكت ساخرًا، فجدد عرضه لشراء المقهى وبضعف ثمنها.

- ولماذا يضاعف رجل مثل ميتشو عرضه؟

- كُنت أعلم أنه يريد المقهى منذ زمنٍ، طلبَ شراءه فأبَيتُ، فزاد السعر ضعفين وأكثر، فوافقت على الفور، السيدة جابي بعد مقتل زوجها وسرقته، أكلها الخوف على ابنها بعد أن تفاقمت الأحداث ضد اليهود، نحن الآن المُلاك الجدد لثلاثة طوابق وسبع شقق، ثلاث شقق خالية وثلاثة ما زال قاطنوهم بها، ونحن.

- ولماذا لم يشتريها هو؟

- ميتشو يمتلك من العمائر ثلاث، وأنا قصدته في شقة خالية لكنهم مشغولون بالفعل، وهو يريد توسعة أعماله وتطويرها، يبحث دومًا عن مكان واسع المساحة ومنطقة تستوعب أحلامه وهذا ما توفَّر في مقهاي السابق «مقهي الذنون»، كان واضحًا أنه لم يجد مثيلًا له في بورسعيد.

قال أخي صابر:

- سنؤجر الشقق الخالية إذًا؟

- بالتأكيد فنحن نريد مصدرًا للدخل بأي حالٍ.. والشقق هنا واسعة جدًّا كما ترون.. لكننا سنؤجر للمصريين فقط، لقد عادت العمارة بأرضها لنا بعد أن استولى عليها اليهود في السابق.. لكنها عادت لأصلها الآن.

قال يسري في فرحة:

- لا يهم اشتروها أم استولوا عليها.. المهم أنني أحببت هذا

البيت أكثر من عبادي.. سوف أعيش وأموت هنا.

قال أبي حانقًا في حزم:

- لا. هناك فارق.. وفارق كبير جدًّا.. يجب أن تتعلم الفرق بين الحقيقة والزيف، لم تكن العمارة ملكًا لليهود في الأساس، استولوا عليها ثم وضعوا أسماءهم ونَجمتهم عليها وأشاعوا أنهم من بنوها. هكذا يزيفون الحقائق.. وما يحدث أننا ننسى كما ننسى كل شيء.. لتنقلب الحقائق مع الزمن.

لم تهتم أمي كثيرًا بتاريخ العمارة وقالت:

- إذًا فليس للأولاد نصيب من الشقق يا سيد أحمد؟

- كيف وهذه العمارة إرثهم من بعدي؟

- لكنك قلت إننا سنؤجر بعضها للغرباء.. وأنت تعلم أن الصهاينة يقطنون البعض الآخر؟

ابتسم أبي ابتسامة واثقة قائلًا:

- المصريون ليسوا بغرباء يا وداد، وأما اليهود فلن يصمدوا كثيرًا.. سيرحلون جميعًا.

***

لازلنا في أواخر ١٩٥٧

منذ الليلة الأولى في «عمارة آل داوود» لم أنسَ حادثة الدائرة البيضاء وما رأيته فيها، الصور المُتقطِّعة الغريبة، أو هذا الوجه الشيطاني الذي ساءه اقترابي من الرجل الباكي على الأرض، ولم أنم هانئة، مع ذلك لم أجرؤ على البوح بما حدث أبدًا، على كل حالٍ لن يحدث شيء آخر من هذا، تقول أمي إن عليَّ بذل الكثير من الجهد لكي أبقى على مستوى جيد من الوعي، وأن هذا هو السبيل الوحيد لتفادي تلك النوبات التي تصيبني من حين لآخر، أن أرى أناسًا لا وجود لهم بيننا ولا يراهم غيري، وأن أرى أشياء رُبما حدثت بالفعل في الماضي!

مرَّ الليل سريعًا وأفاقني نور الصباح الذي أطمئن إليه، نحن حتمًا قبل شروق الشمس، محاسن ما زالت تخاف الليل ولا تنام إلا في حضن أمي، ولم يكن جدي على فراشه، من المؤكد أنه في البلكون، فهو يصلي الفجر ويتلو الكثير من الأذكار حتى تحين صلاة الضحى. ذهبت إلى الحمَّام لأغتسل لكنني شعرت بعدم ارتياح ولم أعلم لماذا! كان الهدوء يسيطر على البيت أكثر مما ينبغي، فلم أسمع صوت أمي كعادتها في هذا التوقيت وهي تعد عجين الخبز، لكنني أخيرًا سمعت صوت أبي بالخارج فاطمأننت

وخرجت مُسرعة أنادي:

- أبي.. هل ما زال جدي في البلكون؟

وبدلًا من سماع رده سمعت جلبة بالخارج وأصواتًا كثيرة، خرجت لأرى ماذا يحدث، فرأيت ثلاثة أطفال جالسين في صالة الاستقبال يستفيقون من نومهم، وسمعت أصواتًا تأتي من المطبخ، دخلت إلى غرفة أمي لأسألها مَن هؤلاء فلم أجدها.. بل وجدت الرجل الذي رأيته في حادثة الدائرة وهو جالسٌ يبكي على الأرض! تراجعت إلى الوراء وأمسكت فمي قبل أن أصرخ، هرعت إلى الغرف واحدة تلو الأخرى فلم أجد أحدًا من عائلتي مرة ثانية! أين ذهبوا؟ ثم رأيت الرجل يخرج من الغرفة متجهًا إلى حيث يتواجد الأطفال ولا يراني، بقيت أراقبهم، دقائق ورأيت امرأة تخرج من المطبخ تحمل أطباقًا وتضعها أمام الأطفال! هل باعَ أبي البيت؟ هل غادروا ولم يلتفتوا أنني ما زلت نائمة؟ ما الذي يحدث؟

عزمت أن أخرج لهذه العائلة وأسألهم، فهم سيرونني الآن أو لاحقًا، استجمعت قواي وخرجت فسمعت السيدة تقول:

- الفطور جاهز.. صحيح أنني لا أعلم عنه شيئًا لكنني لا أرتاح إليه أبدًا، كلما ذكرت اسمه انقبض قلبي.

وقف الرجل وكأنه على وشك الانفجار يقول:

- لكنني لا أملك حلًّا آخر بعد أن تراكمت الديون علينا، ما الداعي للقلق؟ إنه عَقدٌ صوري، أنت تُدينين الرجل بمشاعرك لا بعقلك في حين يريد هو المُساعدة.. أنا لا أفهمك!

ثم نظر إلى أصغر الأطفال مُرتعبًا وقد توقف عن قضم طعامه وأشار نحوي.. فنظر الجميع إليَّ واقتربت منهم مُضطربة.. لم أدرِ ماذا أفعل أو أقول.. تلعثمت قائلة في رهبة:

- أنا حقًّا آسفة.. أنا حياة أحمد الدنون، وأقيم هنا مع عائلتي، لكنني لا أدري ماذا حدث لعائلتي؟ لم يقل أحدٌ إنهم باعوا البيت؟ هل لك أن تصلني بأبي؟

نظر الرجل والسيدة إلى بعضهما في تعجب، ثم بدأ الرجل يقترب مني وكلما اقترب تبدل لونه إلى رمادي باهت، وبدأت تتبدل ملامح أسرته ولونهم إلى شيء مُخيف، وبدأت خطواتي تتراجع إلى الخلف والرجل يقترب وأنا أرتعب أكثر، إلى أن هرعت إلى غرفتي وأغلقت الباب من الداخل بالمفتاح، وكاد قلبي أن يتوقف بعد أن شُل عقلي تمامًا، وأصبحت مُلتصقة بالباب لأستمع لما يفعله الرجل؟ وفجأة عم النور الغرفة ورأيت جدي واقفًا ورائي ينظر إليَّ مُتعجبًا فصرخت بملء صوتي. اقترب واحتضنني قائلًا:

- سلام قولًا من رب رحيم.. سلام قولًا من رب رحيم.. ماذا بكِ يا حياة.. مالك يا حبيبتي؟ لماذا تقفين وراء الباب هكذا؟

تسمرت مكاني وبدأت أبكي، مَن هؤلاء الناس بالخارج؟ وهل هذا جدي حقيقة أم ستتبدل ملامحه أيضًا؟ نظرت إليه من جديد فوجدته كما أعرفه فقال:

- لا أدري ماذا تُخفينه عني، فلنتحدث في الصباح ولتكملي نومك الآن.

حينها اندهشت وصحت:

- نحن في الصباح بالفعل.

- لا يا حبيبتي.. لم يؤذِّن الفجر بعد يا صغيرتي!

ذهبت إلى الستائر لأفتحها فرأيت الظلام! وبقيت أبكي ليلتها في أحضان جدي ولم أتحدث أبدًا.

جاء الصباح بعد أن نعمت بنوم دافئ عميق في أحضان جدي، كعادتنا يستيقظ الجميع في الصباح الباكر، نستيقظ دومًا لنجد أمي تُعد العجين في المطبخ.

وأخيرًا رائحة خبز أمي تملأ البيت في الصباح كما اعتدنا في منزل عبادي، تحب أمي أن تخبز بنفسها، وتُعلمنا أن كل قطعة خبز تحتاج حبًا وصبرًا واهتمامًا حتى تنضج وتصير حياة بداخلنا، وتقول أمي أيضًا إن الخبز في النهاية فن، لأنه يمتلئ بتفاصيل الحياة من البداية وحتى النهاية، الحياة مليئة بالنور لكننا لا نراه في أوقاتنا العصيبة.

صوت القرآن الكريم يصدح في البيت كله، وكأن أمي تعمدت أن يكون صوت الراديو عاليًا، جدي أول من يذهب للحمَّام يليه أبي ثم إخوتي، بينما تساعد الفتيات في إعداد الفطور، ولا تهتم أمي لشؤون دراستنا قدر اهتمامها بتعليمنا أدق تفاصيل شؤون البيت، كنت قد بدأت أرتب الغرف وحدي فلم أَعُد صغيرة كما تردد أمي، وأثناء تنقلي بين الغرف سمعت أبي يقول لجدي:

- كُنت قلقًا بالأمس ولم أذق للنوم طعمًا، جلست قليلًا في

صالة الاستقبال فرأيتها تعرِّفني بنفسها وتتحدث إلى كأنني غريب، وأن أهلها باعوا المنزل! ولما اقتربت منها فزعَتْ وصرخت وتبخرت من أمامي إلى غرفتكما! لا أعلم ما بها يا أبي!

- ليست المرة الأولى يا بني.. يجب أن نفعل شيئًا في هذا الأمر.. هيَّا الآن لقد أعدوا الفطور.

بعد تناولنا الفطور أعدت أمي القهوة لجدي، الذي سُرعان ما اختلى في البلكون بالجريدة يتصفحها باهتمام، أوكلتني أمي بالمُهمة.

- حياة.. حذارِ أن تسكبي قهوة جدك.

- حاضر.

وقفت أحمل القهوة في يدي التي بدأت ترتعش، كان العنوان في أول صفحة بالجريدة:

«استمرار المعركة من بورسعيد»

ثم لمحت كلمة «الصهاينة» في عنوان آخر، خلع جدي نظارته وابتسم ثم أخذ القهوة مني، وضعها على منضدة خشبية أمامه ونظر لي مليًا فقال:

- أشعر وكأنك صرتِ شابة ناضجة رغم مرور سنة واحدة على العدوان.

ابتسمتُ فأكمل:

- اجلسي يا ابنتي.. هل تُودين قول شيء؟ أشعر بكِ.

- أود طرح الكثير من الأسئلة يا جدي.

أغلق الصحيفة وأطبقها ثم ارتشف من قهوته القليل:

- كُلي آذان صاغية.. اسألي ما شئتِ؟

- أريد أن أعرف الكثير.. لماذا رفضَتْ أمي الذهاب لحارة اليهود من قبل والآن نقطن فيها؟ لماذا يقول أبي إن اليهود سيرحلون؟ ولماذا تسميهم أمي صهاينة؟ وماذا فعلنا يا جدي لكي تُدمَّر بلدنا وبيوتنا وتموت الناس في الشوارع؟ لماذا هاجر الناس ولماذا بدأوا في الرجوع الآن؟ وماذا عن المستقبل يا جدي؟ لا أستطيع نسيان كل ما رأيته.. ولا أستطيع نسيان صديقتي فادية.. ولا أستطيع كل ليلة إلا أن أسأل نفسي كلمة واحدة فقط: لماذا كل هذا؟

امتلأت عين جدي بالحزن وقال:

- لعن الله الحرب التي أفقدت الأطفال براءتهم، هذا ليس بسؤال يا حبيبتي.. إنها قصة طويلة سنوات وسنوات.. لكنني سأرويها لكِ.. سأرويها على مهل قدر استطاعتي.. ومنذ بدايتها وحتى الآن.

***

أرض جاسان -(وادي الطُليمات) - مصر

١٦٠٠ قبل الميلاد

في ليلة بدت كغيرها من الليالي لم يتوقع أحدٌ أحداثها التي غيرت مجرى التاريخ، وقف أبناء يعقوب وأحفاده متوجسين، ينظر بعضهم إلى بعض ذاهلين، كانت لحظات لم تراود عقولهم من قبل حتى حدثت، تبكي أرواحهم بصوت مسموع مما سوف يحدث بعد وقتٍ قصُر أو طال، وقت آتٍ لا جدال فيه، وقت يقف وراءه مصير مجهول ونبوءة مُؤكدة الحدوث.

كانوا يتذكرون أيامهم في أجمل بقاع مصر (جاسان)، بعد أن استدعاهم نبي الله «يوسف» ليعيشوا معه وقد غلبه شوقه إليهم، فأحسنَ إليهم وأسكنهم أجمل المساكن، وأعزَّهم بين المصريين أصحاب الأرض وبين الهكسوس المُحتلين منذ أربعمائة عام، فجعلهم يشتغلون بالتجارة ويتعلمون صناعة الذهب وحِرف كثيرة أخرى.. ربحوا وازدهرت أنشطتهم، وقد كانوا يسكنون بلاد كنعان من قبل في فقر.

رأوا كل ذلك سريعًا أمام أعينهم، فغلبت علامات الفزع على وجوههم، رُبما أدركوا أن أيام مصر في عهد يوسف أيامٌ لن تعود.

كان يوسف يرقد على سريره فى إعياء، ينظر إليهم محاولاً رسم إبتسامة على وجهه الجميل، لكنه يعود فيؤثر الجدية ويقول فى صوت واهن:

- «أنتم بقية أهل الله على أرضه وصفوته من صالح المؤمنين»..

سكتت التأوهات وأصوات البكاء تباعاً وصغت القلوب إلى يوسف فتابع..

- «لقد أرسل الله تعالى يعقوب أباكم ومن قبله إسحاق وإبراهيم دعاة لعبادته وحده وإتباع سبيل الحق والخير فكان جدكم إبراهيم خليل الله وأبا الأنبياء..»

تأكدت وساوس أنفسهم الآن بأن هذا لقاء يوسف الأخير وآخر ما يحدثهم به، نبضت القلوب في وجل وسالت الدموع لا تتوقف، تحاول العقول أن تعي وتحفظ وصية نبي الله..

- «وها أنتم تعيشون في أرض مصر مُكرمين وأنا مازلت معكم وبينكم، وإني مُشرف على لقاء ربي والإلتحاق بآبائي.. فإذا توفاني الله وهذا حادث لا محالة، فستتعرضون للمهانة والظلم والعذاب فما عليكم إلا الصبر والتمسك بدينكم..»

علت أصوات الدموع وحسرة القلوب من حوله فما كان منه إلا أن أكمل مُقاطعاً..

- «وبعد زمن ليس ببعيد سيأتي نبي منكم يخلصكم من جبروت فراعنة مصر، وينصر الله به الحق ويقيم الدين، وإعلموا أن الله مع الصابرين».

ثم أسلم النبي روحه الطاهرة لله راضياً مرضياً فعلت أصوات تنتحب لحُرقة الفراق، بينما علت أصوات أخرى تبكي مصيرها البائس المحتوم.

* * *

«يوكابد بنت لاوي»

مصر - ١٢٠٠ قبل الميلاد

وقفت يوكابد وابنتها الكبرى مريم، بجوار نهر النيل، تتأمل سريانه الذي لطالما ائتمنته على أسرارها، تمر بأحداث جثام هي وزوجها «عمران بن قايت بن لاوي بن يعقوب»، يسترجع عقلها ذكريات رواها الأجداد ليست أقل ألمًا مما تعاصره الآن، لكن معاصرتها للأحداث جعلتها كائنات مُجسمة لا تنام ولا تهدأ أمامها، وكيف لها أن تهدأ وقد عايشت أجيال بني إسرائيل الذلة والمهانة من بعد عزة وكرامة وجاه في عهد يوسف النبي؟

فبعد أن حاد بنو إسرائيل عن نهج النبي يوسف جيلًا بعد جيل ونسوا وصيته، استغلوا المصريين واستكبروا عليهم وتحالفوا مع الهكسوس ضدهم، تفاقمت الأمور وعاش المصريون في ذُل تحت إمرة الهكسوس ولم يلقوا من بني إسرائيل ما توقعوه من إعزاز لرد الجميل، حينها أقسم «أحمس» أن يعيش المصريون في عزة أو يموتوا بكرامة، حارب الهكسوس وانتصر عليهم، وطردهم حتى هربوا جميعًا خارج البلاد، ثم أراد الانتقام من بني إسرائيل لخيانتهم فصادر أموالهم ومنازلهم، وحرم أولادهم من التعليم، ولم يكتفِ بهذا فاستعبدهم ومنعهم من السفر خارج مصر، وتوالت

الأجيال بعده وكما تتوارث أسر الأقدمين الحُكم توارثوا استعباد بني إسرائيل.

كانت يوكابد ترى كلَّ ذلك كلما نظرت إلى النهر، تحتقر فرعون الذي أبت الرحمة دخول قلبه عندما فسَّر كبير الكهنة حلمه مُحذِّرًا «سيولد طفل من بني إسرائيل يزول مُلكك على يديه»، مشاهد الرُضع المذبوحين وآبائهم المُلتاعين لا تفارق عينيها، سالت دموعها وهي تتذكر وجه عمران البائس وهو يقف عاجزًا يشهد ذبح وليدها البكر وباقي المواليد فقط لأنهم ذكور، تتذكر يأس عمران حين قال:

- يكفينا ما حدثَ لا أريد أن ننجب مرة أخرى.

لكن روحها المقاتلة أبت فردَّت عليه يأسه بإصرار:

- بل سننجب مرة أخرى.

وتذكرت الله في نفسها فجففت دموعها وشكرته أن رزقَها بهارون في سنة العفو من قبل ثلاث سنوات.

حدقت في مياه النهر الجارية فرأت دموع عمران وهو يودع رضيعهما ذا الثلاثة أشهر منذ قليل، وتساءل عقلها في صمتٍ: «أما كان لفرعون أن يفيق قبل أن يأتيه غضب الله؟ أم أن موت جميع أبنائه من نفرتاري وآسيا لا يوقظ عظة في نفسه؟

أخيرًا تسحب يوكابد عينيها التي توغلت في أعماق النهر الجاري، ثم نظرت إلى رضيعها الأسمر البهي الذي احتضنته بين يديها، والذي لا تعرف له اسمًا بعد ويراودها وحي الله لها بأن

ولدها سيكون شأنه عظيمًا يومًا ما..

«أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ»[1]

رفعت يوكابد نظرها إلى السماء ودعت باكية:

- «يا رب إني سأفعل ما أوحيت إليَّ به وإيماني بك هو ما يجعلني أفعل ما يعتبره الناس جنونًا.. يا رب لقد آمنت بك.. أنت ربُّ إبراهيم وربُّ يعقوب وإسحاق وإسماعيل، أسألك أن تعيد إلى ابني سالمًا وأن تثبت قلبي.. ثبت قلبي يا مَن جعلت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم اجعل الماء أمنًا وأمانًا على ابني».

ثم ألقت الصندوق في النهر الجاري (والذي صنعه لها «حزقيال» المؤمن بالله سرًّا مِن مَلَأ فرعون)، وألقت وراءه قلبها المُنفطر يُراقبه مُهرولًا حتى أُصيبت إثر انزلاقها على إحدى الصخور، فأمرت مريم بمتابعته حتى لا تفقده فتعلم مصيره ففعلت.

ظلت الأخت الحنون تهرول وراء أخيها الرضيع، فلم يغرق ولم تأكله تماسيح النهر ولم يُصبه مكروه، بل ظلَّ يسبح في سُرعة وكأنه يعلم وجهته حتى صاحت أخيرًا هلعة بعد أن توقف:

- يا للهول.. لقد ذهب إلى قصر فرعون!

***

---

(١) سورة طه، الآية ٣٩

١٩٥٩

«هاتوا الفوانيس يا ولاد.. هاتوا الفوانيس.. هانزف عريس يا ولاد.. هانزف عريس»

هكذا علا صوت المطرب «محمد فوزي» عبر الراديو في الصباح، وكانت أمي ومعها بدر تُحضران قائمة طعام طويلة لإفطار أول يوم رمضان غدًا، وكُنت قد أشرفت أنا وبعض إخوتي وتهاني صديقتي على الانتهاء من زينة رمضان بعد عودتي من المدرسة، أخذ صابر ومرتضى وعصام ويسري الورقَ المُلوّن المتلاصق في خيط سميك لتزيين الحارة، فاستأذنت تهاني للمغادرة كي لا تتأخر، وكانت تقيم أسرة تهاني في «المنطقة الخامسة» كتعويض من الحكومة لمتضرري العدوان.

في هذه الأيام بدأتُ أستعيد طفولتي التي حرمني منها العدوان، لكنَّ أمي كان لها رأي آخر..

- يا حياة.. اتركي الزينة وأخفضي صوت الراديو وافتحي الباب، ثم نظفي البلكون واقطفي الملوخية، وبعدها اذهبي للخواجة ميتشو أحضري الكُنافة والقطايف، ولا تنسي أن تمري على عم عبده الطرابيشي لتحضري من عنده طربوش جدك.

- كل هذا أفعله أنا؟.. أريد أن ألعب.

- ماذا تقولين؟

- حاضر.

- لقد صرتِ في التاسعة من عمرك، عندما تزوجتُ كنت في الرابعة عشر.. جيل فاسد.

فتحت شُراعة الباب الزجاجية فوجدت جلال جارنا ففتحت الباب.. جلال الشاذلي، ابن ضابط المخابرات الذي أسكنه أبي في الشقة المجاورة لنا منذ أشهر، كان يكبرني بثلاثة أعوام، أحبَّه جدي كثيرًا وسرد له ما سرده لي من حكايات «بني إسرائيل» لنكملها سويًّا، نذهب لنفس المدرسة ونلعب كثيرًا ويعلمني ركوب العجلة أحيانًا في مدخل الحارة.. فورَ أن رآني قال:

- كل عام وأنتِ بخير.. أعطي لأمكِ كيس التمر هذا.. قولي لها من عند الست أنيسة.. والدتي.

أخذته منه وقلت في صوت خافت:

- هل تذهب معي للخواجة ميتشو ثم عم عبده الطرابيشي في شارع الجيزة؟

حك رأسه ولمعت عيناه وقال:

- سأقول لأمي لنأخذ العجلة.

- اتفقنا.. لكن دعني أريك طائرتي الورقية الجديدة على السطح أولًا ثم نذهب.

- هل تعلمتِ اتجاه الرياح وكيف تجعلينها تطير كما علمتك؟

- سوف ترى.

صعدنا سويًّا في حماس وفتحت باب السطح ودخلت قبله،

رأيت رجلًا متوسط القامة، أبيض، شعره أسود أملس، يقف عند الزاوية ويُمسك بزجاجة صغيرة بها سائل أحمر، ظلَّ الرجل يرش السائل في جميع زوايا السطح، ثم أخرج من جيبه ورقة صغيرة يقرأ منها أثناء رشه السائل، ومن ثم جفف جبينه بمنديل، التفت إلى جلال وقلت بصوت خفيض:

- ماذا يفعل هذا الرجل الغريب على سطحنا؟

قال جلال متعجبا:

- أين هو الرجل الغريب؟

- الرجل عند الزاوية اليسرى.. ماذا يفعل هنا؟ هل أذهب لأقول لأمي؟

تلفت جلال ينظر حوله وقال مُندهشًا:

- إذا كنت تقصدين السطح فأنا لا أرى أحدًا غيرنا!

- كيف لا تراه وبيننا أمتار بسيطة؟ ليس وقت مزاح.

- أنا لا أمزح.. أنا حقًّا لا أرى أحدًا غيرك هنا!

كان الرجل يتلفت حوله في توتر ولم يبدُ أنه يرانا، اقتربت منه أكثر فلم يلتفت إليَّ أو يبالي بوجودي، كان يتمتم بصوت عالٍ:

«لا أريد أن أتأذى*يا إله خلاصي بالنهار والليل صرخت أمامك*فلتأتِ قدامك صلاتي*أمِل أذنك إلى صراخي*لأنه قد شبعت من المصائب نفسي*وحياتي إلى الهاوية دنت»

وقفت بجانبه وكان يبدو مُرتعبًا يتعرق، ثم هرع ناحية باب السطح مُغادرًا وجلال ينظر إليَّ في بلاهة وقال:

- أين طائرتك الورقية؟ لا نريد أن نتأخر.

لم أبالِ بجلال وهرولت وراء الرجل ونظرت إلى الدرج فلم أرَه! حدقت جيدًا لم يكن هناك! كيف هبط كل الدرج في ثوانٍ؟ دخلت إلى السطح لأرى الرجل في الحارة فلم أجده أيضًا.. نظرت إلى جلال الذي بدأ يتأفف وسألته:

- كيف لم ترَ الرجل؟ لقد مر بجانبك الآن!

- والله لم أرَ لا رجلًا ولا امرأة.. ما بك يا حياة؟.. هيًا لنذهب الآن واحكي لي عن الرجل الخفي هذا لاحقًا.

هبطنا الدرج سويًا، لكن عند مدخل العمارة رأيت الرجل الذي كان مع زوجته وأولاده في بيتنا يحملون حقائب سفر، تسمرت في مكاني للحظات وقد سبقني جلال، كانت السيدة تبكي وتمسك بأطفالها وتقول:

- حذرتك منه ألف مرة لكنك لم تسمعني ورهنت كل ما نمتلكه!

لم يجبها الرجل ومشى منكس رأسه فخرجت وراءه مع الأطفال واختفوا!

لم أتحدث عن أي شيء لجلال لأنه يهزأ بي ولا يصدقني، فقط ذهبنا إلى حيث أمرتني أمي.

قضينا كل الطلبات، ثم لهونا بعدها قليلًا بعجلته في الحارة، لكنني لم أنسَ ما رأيته أبدًا، أتذكر كل شيء منذ دخولي الدائرة البيضاء وحتى رحيل هذه الأسرة الغامضة، بعد أن هدأ الجميع

في المساء، علمت أن جدي لم يفته شراء الفوانيس لنا ولجلال أيضًا، كان فانوسي النحاسي وبداخله الشمعة أميزهم، جمعنا جدي أنا وجلال وقد تبقى على ميعاد السحور ساعات قليلة فأراد أن يستغلها قبل أن يذهب جلال مع والده للمسجد لصلاة الفجر..

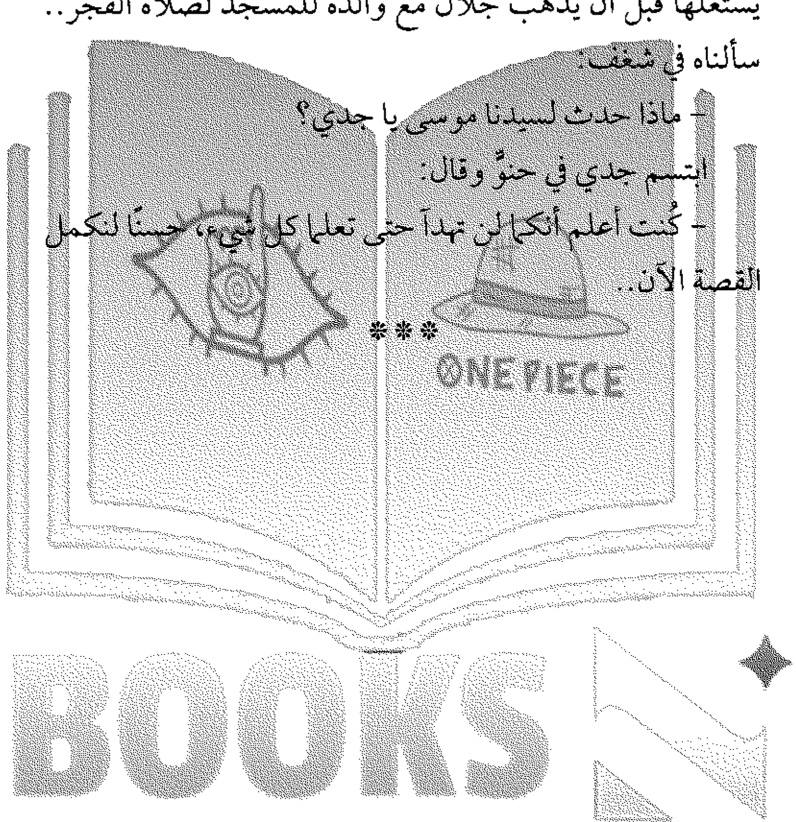
سألناه في شغف:

- ماذا حدث لسيدنا موسى يا جدي؟

ابتسم جدي في حنوٍّ وقال:

- كُنت أعلم أنكما لن تهدآ حتى تعلما كل شيء، حسنًا لنكمل القصة الآن..

***



العودة إلى مصر

لم يُولد الفجر بعد في صحراء قاحلة شديدة العتمة قاسية البرودة، تصادق فيها الظلام والسكون بغموضهما الأبدي، أخذ موسى يقاوم برد الشتاء ويطمئن زوجته وأبناءه من حين لآخر في رحلتهم من أرض مدين إلى مصر، في حين تتجسد ذكرياته في الظلام أمامه رغمًا عنه، فقد غلبه شوقه إلى أمه وأبيه وإخوته مريم وهارون، شوقه إلى مصر التي ولدَ وترعرع فيها، لكن ذكرياته غلبت شوقه فتذكر خوفه الدائم من فرعون ومن قسوة قلبه، يتذكر قتله الأبرياء بنظرة واحدة يفهمها حاشيتُه، يتذكر أيضًا كيف كانت «آسيا» زوجة فرعون رحيمة به حدَّ الأمومة منذ أن تبنته، وكيف صارحه الكاهن الأكبر بالحقيقة يوم غارت نفسه من ابن فرعون، والذي كان يُعد ليكون ملكًا من بعد أبيه، في حين كان هو الابن الأكبر لفرعون كما اعتقد في طفولته. فقد التقطته آسيا من الماء وأقنعت فرعون بتربيته في قصره، بعد أن أحبَّته وتعلقت به من النظرة الأولى، ثم يتذكر دفء أمِّه يوكابد وأبيه عمران فلا يشعر ببرد الصحراء، وكيف رده الله مرة ثانية إليها حين رفض كل المرضعات، إلى أن أخبرت مريم أخته الملكة آسيا بمرضعة له فوافقت على إحضارها.

كانت هذه المرضعة هي «يوكابد» أمه فرضع منها وحدها، ما أرحم الرحمن وما ألطفه، تذكَّر موسى كيف ترعرع في قصر فرعون

الطاغية ومع ذلك لم يسجد لصنم قط، كيف عاد إلى أهله وكيف لقنه عمران دين الحق من مخطوطاته التي توراثها عن آبائه.

نظر إلى ابنه النائم على الدابة في سلام بينما يُمسك هو بلجامها، ثم تذكَّر عذاب بني إسرائيل على أيدي جنود فرعون، استغاثتهم الدائمة به والتي لطالما قام بتلبيتها في حنو وشفقة، إلى أن أتى اليوم المشؤوم.. يوم احتفال المصريين بالإله «مين» والشوارع شِبه خالية، تذكَّر وجه الرجل الذي استغاث به من بني إسرائيل والمصري يضربه بقسوة، فما كان منه إلا أن وكز المصري وكزة وقع على أثرها جثة هامدة في الحال!

تأثر موسى بما تذكر، لكن الذكريات في رأسه تجري كمجرى النهر الذي حمله إلى قصر فرعون، إن الأحداث تقع بمقدار، لا شيء يحدث عبثًا في هذا الكون، يأخذه مجرى ذكرياته قبل عشر سنوات إلى هذا الرجل مرة أخرى والحدث نفسه يتكرر مع مصري آخر ويستغيث به، لكنه يرجع إلى نفسه ويرفض معاونته هذه المرة فربما كان هو من يشاكس المصريين، فيصيح الرجل وسط الملأ غير عابئ بما يقول «يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ * إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ»[1]

ثم سمع صوت «حزقيال» المؤمن يتردد في أذنه ولا يغادر رأسه..

- اهرب يا موسى.. إن الملأ يتآمرون عليك ليقتلوك.. لقد علم فرعون كل شيء وبعث في إحضارك.. اهرب.. إني لك من الناصحين.

---

(١) سورة القصص، الآية ١٩

ويتذكر خروجه من مصر خائفًا يترقب أن يصل إليه جنود فرعون فيقتلونه، فردَّد موسى بصوت مسموع في الصحراء ما قاله لحزقيال حينها:

- «رب نجني من القوم الظالمين»

نظر إلى امرأته وابتسم رغم ذكريات مرارة رحيله من مصر دونَ زادٍ، يأكل من أوراق الشجر، ويشرب مما يجده من آبار في أيامٍ كثيرة، تتورم أرجله وتتأذى في طريق وعر، حتى وصل لأرض مدين والتقى بامرأته، كان اللقاء مُقدَّرًا رغم ذلك الشقاء، كيف ساعدها هي وشقيقتها عند البئر، وكيف حثت أباها «شعيب» على استئجاره، فمكث في أرض مَدين عشر سنين، تزوج فيها بـ «صافوراء» وأنجب منها ولدين وساعد أباها في أمور الرعي والزراعة وغيرها.

ظلت ذكرياته تذهب وتعود حتى اشتدَّ البرد عليهم فأوقفها فتوقف موسى وقد أدرك صحراء سيناء، أنزل زوجته وأولاده من على الدواب ليرتاحوا قليلًا، لكن البرد اشتد أكثر فأراد أن يشعل نارًا يلتمس الدفء بها، لكن قوة الرياح حالت دون ذلك.

نظر حوله وقد استوحش البرد فأوقف الدواب ونظر بعيدًا وكأنه اكتشف شيئًا.

* * *

الوادي المقدس طوي - سيناء

فجأة نظر موسى إلى ضوء نارٍ عظيمة بجانب جبل الطور، فرح وقال لأهله:

- «امكثوا إني آنست نارًا لعلّي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى».

تركهم موسى وذهب باتجاه النار، حدقت «صافوراء» في اتجاهه ولم تر شيئًا مما يرى.

وصل موسى إلى مكان النار فوجدها تخرج من شجرة أوراقها خضراء.. كانت الشجرة في جبل غربي عن يمينه وتعجب من الأمر بعد أن سكنت الرياح عن وادي طوي بسيناء.

كان نورها عظيمًا، وطاف به هاجس أهي نار أم نور؟ وقبل أن يُفكر اهتز الوادي وارتجت الأرض من تحت قدميه وسمع موسى الصوت العظيم من كل اتجاه..

«يا موسى»

ارتعب موسى ونظر في كل اتجاه

فقال عز وجل:

«إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ

الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَي كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَي (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَي (١٦)» (١)

زاد خوف موسى وانتفض جسده خشية بعد أن علم أن الله هو من يتكلم معه فخلع نعليه، فقال الله تعالى:

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا موسى (١٧)

قال وهو يُحب أن تطول مدة الحديث مع الله..

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآَرِبُ أخرى (١٨)

قال:

قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩)

فألقاها فإذا هي حية تسعى (٢٠)

فخاف موسى وأوشك أن يستدير مدبرًا لكن ناداه الله:

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١)

مد موسى يده إلى الحية فتحولت إلى عصا مرة أخرى وقال الله:

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آَيَةً أخرى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آَيَاتِنَا الْكُبْرَي (٢٣)

وضع موسى يده كما أمره الله فخرجت بيضاء من غير سوء ثم وضعها على قلبه فاطمئن وسكن، فكان أمر الله عز وجل لموسى:

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَي

فقال موسى:

---

(١) سورة طه.

- رب إني قتلت نفسًا من آل فرعون وأخاف أن يقتلوني. وأخي هارون هو أفصح مني لسانًا فأرسله معي.

فاستجاب الله له وقال له:

«سنشد عضدك بأخيك ونجعل لك سلطانًا فلا يصلون إليكما بآياتنا. أنتما ومن اتبعكما الغالبون.»[1]

ودعا موسى الله مرة أخرى فقال:

«ربِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)»[2]

- قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا موسى (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى.

وبعد أن تقبل الله دعاءه أوحى إلى هارون وقتها فعلم هارون الأمر كله قبل رجوع موسى إلى «منف»، «ثم أخبره الله بقصته منذ ولادته إلى أن قال:

«وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي»[3]

رجع موسى بعد لقائه المبارك مع ربه.. رجع إلى أهله شارد الذهن يستولي عليه الموقف ورهبته وقد ثبتت نبوته التي تنبأت بها يوكابد منذ أن نفَّذت وحي ربها.. رجع وقد حمل بالأمانة.. وعليه أن يؤديها.

* * *

---

(١) سورة القصص، الآية ٣٥

(٢) سورة طه.

(٣) سورة طه : ٤١.

الخروج من مصر

جلس فرعون على مقعده الذهبي في غرفته الفخمة حائرًا، يفكر في طلب عبيد بني إسرائيل بأن يأذن لهم بالخروج ليحتفلوا بعيد من أعيادهم، تتدفق الأفكار في رأسه فلا يأمن لهم ليتحركوا شبرًا واحدًا فقط، فكيف له أن يأمنهم حتى حدود البحر الأحمر؟ إنه يتذكر خيانتهم لأبيه الفرعون الأكبر واتفاقهم مع بقية أهلهم لزعزعة الأمن في مصر وبالتالي زعزعة الحكم، وبذلك يتحللون من دفع الضرائب لمصر مقابل الحماية، وحينها لا يستطيع الفرعون الأكبر حماية حدود مصر، فيهربون منها إلى ذويهم بفلسطين، لكنَّ أباه كان يعلم بالمكيدة فحارب قبائل فلسطين ونكل بهم أشد تنكيلًا، ليكونوا عِبرة لذويهم في مصر.

هب فرعون واقفًا في حنقٍ عندما تذكَّر للمرة الثانية تحالفهم مع الحيثيين ضد الفرعون الأكبر، لولا أن الفرعون فطِن للمكيدة الثانية وأرسل بمعاهدة سلام للحيثيين ليقطع حبائل الشر التي تلقيها بنو إسرائيل حول أمن مصر.

حينها دخلت زوجته الجميلة «آسيا» غرفته فلم يشعر بوجودها من الإفراط في التفكير، كانت «آسيا بنت مُزاحم» من بني إسرائيل إلا أن فرعون أحبَّها حبًّا كبيرًا، فطنت لكونه مُنشغلًا وكانت تعلم بأمر طلب

العبيد مُسبقًا، تنحنحت آسيا وانحنت أمامه وقالت في رجاء:

- مولاي.. فلتجعلهم يذهبوا لعيدهم.

انتبه فرعون لها وكان يعلم انحيازها إليهم، فجلس وهو يداعب ذقنه شاردًا يجيبها وكأنه يحدِّث نفسه:

- أنا أتعجب.. هل للعبيد من عيد؟

نظرت لها آسيا وقالت مبتسمة:

- اتركهم.. فهم لم يرتاحوا منذ زمنٍ ولم يحتفلوا قَط بأي عيد من أعيادهم.

تغير وجه فرعون وعبس ثم قام من مقعده يكاد لا يحتمل ما تقول، توجَّه إلى شرفة القصر ومرة ثانية يتحدَّث وكأنه يُحدِّث نفسه:

- إن هؤلاء العبيد يُضايقونني في جميع أمورهم.

قامت آسيا من مكانها وذهبت وراءه تنصحه:

- إذًا اتركهم يرتاحوا قليلًا ولتستريح قليلًا أنت كذلك.

ظَلَّ فرعون يفكر دون أن يجيبها هذه المرة فاستغلت آسيا الفرصة لتُكمل ما بدأته.

- إن أعمال البناء تباطأت هذه الأيام.. اتركهم يحتفلون حتى إذا ما عادوا وجدتهم بجانبك وقت البناء.

زفر فرعون في ضيق وهو يغادر الشرفة ويخرج من باب الغرفة الخشبي الكبير:

- إن هؤلاء العبيد مقززون.

قضى فرعون ليلته يفكر في أمر عبيد بني إسرائيل، يتأرجح عقله بين الرفض والإيجاب بعدما يتذكر نصيحة آسيا له.

في صباح اليوم التالي بعث فرعون في رؤية العبيد، اصطفوا على جانبي مدخل قاعة الملك ينتظرونه في خوف وإجلال وحذر، حتى إذا دخل خروا له ساجدين واحدًا تلو الآخر، حتى وصل إلى كرسي العرش فجلس في عظمة وفخر وأشار إليهم في استعلاء:

- لقد آذنت لكم لتخرجوا وتحتفلوا بعيدكم.

هلل العبيد في فرح وغبطة لم يشهدوها أبدًا داخل البلاط الملكي ولا خارجه:

- شكرًا لك يا إلهنا... شكرًا لك.

***

١٩٦٠

جلست مع إخوتي البنات وأمي حول إناء نحاسي كبير يملؤه العجين، نأخذ منه قطعًا صغيرة وتعلِّمنا أمي كيف يتشكل الكعك في أيدينا، وكيف نقوم بنقشه ورصه في صيجان كبيرة، وهي تغني مع معشوقتها السيدة «أم كلثوم» عبر الراديو.

– «يا ليلة العيد آنستينا وجددتِ الأمل فينا يا ليلة العيد».

ثم تنظر إليَّ:

– أدخِلي الملبن بداخل العجين جيدًا يا حياة.

– حاضر.

تنهدت أمي:

– الحمد لله أنهم سمحوا لصابر بزيارة ليلة العيد.. فالجهادية هذه الأيام صعبة للغاية.

قالت هناء:

– هل صحيحٌ أن الملك فاروق في أيامه كافأ الست أم كلثوم على هذه الأغنية يا أمي؟

– صحيحٌ.. أنعَمَ عليها بوسام الكمال وأسماها «صاحبة العصمة» في سنة ٤٤، لكن الست قامت بغنائها في سنة ٤٠.. يا ربي لا أصدق أن عشرين عامًا قد مضت!

ذهب صابر ومرتضى يخبزان ما صنعناه، بينما عصام ويسري

ينتظران ما نعده الآن، وقف يسري أمامنا مُتأففًا.

- متى سنذهب إلى الفرن؟ ستضيع الليلة وأصحابي ينتظرونني لنلعب الكرة؟

- ستذهب حين ننتهي يا يسري ولن تلعب الكرة الليلة.. العائلة أولًا.. هل سمعتني؟

تمتم يسري بكثير من الكلمات غير المسموعة، نظرت أمي له في توعُّد فذهب بعيدًا، اعتادت أمي على صُنع كميات كبيرة لتعطي طبقًا لكل شقة من الجيران، ثم يعطوننا هم بدورهم ما صنعوه، وهكذا لا تنقطع الأطباق الدائرة في الأيام العادية وجميع مواسم السنة.

وفجأة سمعنا صوت ارتطام الباب، وجاء صوت أبي فرحًا:

- يا وداد.. وداد.

نظرت أمي للاشيء تحدِّث نفسها ثم أجابت في عفوية:

- خير اللهم اجعله خيرًا.. نعم يا سي أحمد.

قامت أمي فغسلت يديها لتخرج لأبي، لكنه كان أسرع فجاء إلينا كأنه يحمل بُشرى عظيمة فالتفَّ حوله يسري وعصام.

- ألم أقل لكِ إنهم لن يصبروا أو يصمدوا؟

- مَن؟

- مَن غيرهم؟

ثم لوح بمفتاح في يديه بفرحة قائلًا:

- أول عائلة مُغادرة من الثلاث عائلات.. عائلة شاؤل.. سيرحلون بعد الغد إلى إسبانيا.

صاح يسري:

- هذه شقتي.. سأتزوج فيها.

نهرته أمي:

- قُلت ألف مرة لا تقاطع أباك.

ثم التفتت أمي إلى أبي وقالت في تحدٍّ:

- أراهن على أنهم ذاهبون إلى إسرائيل.

صاح أبي بغضب شديد:

- قلت لكِ ألف مرة لا يوجد شيء اسمه إسرائيل يا وداد.. بل الكيان الصهيوني.. ثم إن وِجهتهم لا تهمني، أما الآن فاحملي مفتاح الشقة أمانة لديك.. ولا بُدَّ لنا أن نتواجد أثناء رحيلهم لنتأكد من سلامة الشقة.

أخذت أمي منه المفتاح وأخرجت جرابًا صغيرًا من صدرها فدسته فيه، نظرت إليه للحظات فملأ وجهها النور فعادت إلينا بعد أن ذهب أبي.. فجاء صوت جدي:

- يا حياة.. اجلبي بعض الكعك الذي أرسلته والدة تهاني صديقتك لأتذوقه.

رمقتني أمي في ضجر وضاقت عيناها لعلمها أنه لا يُريد شيئًا.. تركت العجين لهم وغسلت يدي في ثوانٍ.

- حالًا يا جدي.

دخلت الغرفة فوجدته يضحك وينظر إلى الباب وكأنه يطمئن أننا وحدنا، فقُلت بصوت خافت:

- أمي ستقتلني.
- أعلم هذا.. وأعلم أنكِ لا تُحبين عمل المطبخ.
- أصحيح يا جدي سأتزوج بعمر الرابعة عشرة مثل أمي؟ إذًا تبقى لي أربع سنوات فقط؟

- إنها تُخيفك فقط لتصبحي ست بيت شاطرة وأنا أعلم أنكِ ستكونين.. لا داعي لكل هذا العناء المُبكر.

رنَّ جرس الباب فأشار جدي:

- إنه جلال.. استدعِيهُ.. مر شهر تقريبًا لم نجلس فيه سويًّا.. ربما أكمل لكما الحكاية الليلة.

دخل جلال يقبّل رأس جدي كعادته، قال لي ذات مرة أنه يشعر أن جدي هو أيضًا جد له لأنه يفتقد أجداده الذين رحلوا في سن مبكرة له، جلسنا بجانبه فقلت:

- أتعلم يا جدي أنَّ عائلتيْ موردخاي وواكيم بعثوا لنا بأطباق الكعك، وأمي سوف تبادلها الشيء نفسه، لكنها فرحت برحيل عائلة شاؤل الآن! أحتار في فهم أمي كُلما راقبت أفعالها.

- لا داعي للحيرة يا صغيرتي، أمك تعمل بوصية الرسول وتُحسِن للجار، وهم في حقيقة الأمر يعاملونها بالحسنى فترد الحسنى، وسوف تعلمين بعد انتهاء قصتنا الفَرق بين اليهودي والصهيوني جيدًا.

تعالت أصوت ضحكات أمي وإخوتي مع صوت «ثومة» فأغلقت باب الغرفة بهدوء.

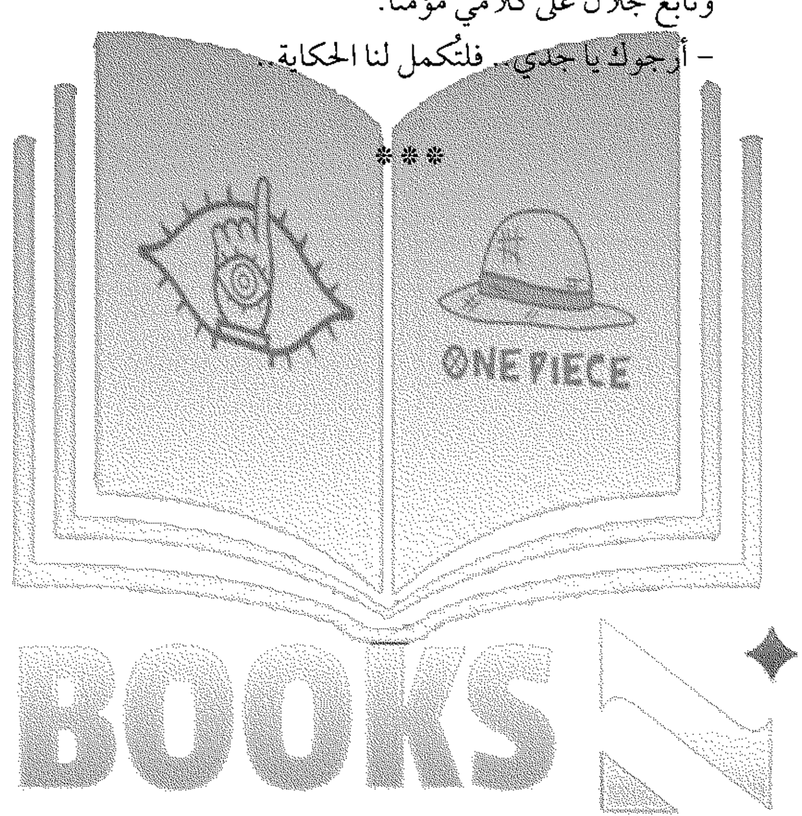
نظر إلينا جدي وكنا مترقبين لحديثه في شغف شديد.. ظلَّ صامتًا ولم ينطف ففهمنا أنه يداعبنا لعلمه بترقبنا الشديد.. قلت له:

- هيًّا يا جدي أرجوك. أريد أن أعلم ما حدث بعد ذلك.

وتابع جلال على كلامي مؤمنًا:

- أرجوك يا جدي.. فلتُكمل لنا الحكاية..

***



خليج السويس/ العقبة - البحر الأحمر
«الخروج الثاني لنبي الله موسى من مصر»

تأهب بنو إسرائيل للخروج من مصر، بعد أن سرقوا واستعاروا ذهب المصريين قبل الخروج، والذي انتظروه لعقود طويلة، خروج على يد موسى يرجون فيه الرحمة من عذاب فرعون.. حتى وإن لم يؤمنوا برب موسى قَط، وإن لم يتعظوا من آيات العذاب التي أنزلها الله على فرعون وقومه من أجلهم وأجل هذه الليلة.

خرجوا يتشككون في نبوة موسى، بل يتشككون في وجود الرب وكل معجزاته، آيات الفيضان والجراد والقُمل والضفادع والدم التي شهدتها أنفسهم، فقد أشاع فرعون أن موسى ساحر، وكذلك صدقت قلوب العبيد إلا القليل منهم، وأخيرًا ضرب الفقر مصر بعد دعاء موسى عليهم حتى وصل إلى القصر الملكي.

وفي ليلة الخروج التفَّ قِلَّة من المؤمنين حول موسى وهارون، خائفين على نبي الله لا يملكون من أمرهم شيئًا.

- كيف ستخرج بنا من مصر يا موسى ولم يُؤمن بك إلا القليل منا؟ إننا نخاف عليك من العبيد.. إنهم ماكرون لا يعبؤون لشيء إلا أنفسهم.

طمأنهم موسى أن الله قد أمره بالخروج وأنه لا يعصي لله أمرًا.

وفي وقت قصير تجمعوا يحملون أمتعتهم في الظلام، ظهر

موسى وهارون يتقدمان الجميع، خارجين من رعمسيس شاقين طريقًا قد أرشد الله كليمه موسى إليه.

جلس فرعون مع حاشيته يتشاور في أمر مُلاحقة العبيد بعد أن علمَ بحقيقة الأمر، وقد استشاط غيظًا، نصحه البعض بتركهم لكنه أصر على إذلالهم وإرجاعهم بالقوة، حشد قائد الجيوش «هامان» الجنود من كافة أنحاء مصر، وتقدمهم في ملاحقة موسى والعبيد، بعد أن رسم خطته جيدًا.

قاد النبيان الطريق في ثبات، بينما ظلَّ بنو إسرائيل يتذمرون ويتشككون كعادتهم، وحين رأوا البحر أمامهم ولمح نفر منهم جنود فرعون وراءهم ولم يجدوا مفرًّا فقالوا:

– «إنا لمدركون»[1].

وفي هذه اللحظة استشعروا مشقة السفر والهروب من فرعون وندموا على ما فعلوا، وارتعبوا من عقاب فرعون لهم وبدأوا في الصراخ فزعًا ولوم موسى على هلاكهم المُتوقَّع.

قال موسى في اطمئنان وثبات:

– «كلا إن معي ربي سيهدين»[2].

بدأ فرعون وجنوده وراءهم بالاقتراب، فاقترب «يوشع بن نون» وسأل موسى في أدب:

– يا كليم الله.. أين أُمرت؟

نظر موسى تحت قدميه وقال:

– ها هنا.

---

(١) سورة الشعراء، الآية ٦١

(٢) سورة الشعراء، الآية ٦٢

كبح يوشع لجام فرسه ودخل به إلى الماء فغرست حوافره في مكان شديد العُمق فرجع إلى موسى يتأكد:

- يا كليم الله.. أين أُمرت؟

أكد موسى:

- ها هنا.

نظر يوشع إلى الماء وعاود الكرة فأرسب الفرس في الماء أكثر، فذهب العبيد يصنعون مثله فلم يقدروا، وهنا أوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر ففعل، وانفلق البحر إلى جبلين من المياه ارتفاعها عظيم، بينهما ممر في مشهد عظيم.

وقف العبيد مشدوهين لا تصدق أعينهم ما رأوه، عبرَ موسى وهارون البحر والعبيد متحجرون في أماكنهم حتى صاح أحدهم:

- هيَّا.. ماذا تنتظرون.. هيَّا تقدموا.

بدأوا في العبور متأملين راهبين المياه الواقفة على الجانبين في شموخ، بدوا كأنهم داخل حلم ونسوا الخوف من فرعون بعد أن كادت قلوبهم تنخلع من صدورهم.

وصل فرعون وجنوده إلى البحر فوقفوا عنده ينظرون في تعجب إلى انقسام البحر وقد انقلب إلى جبلين شامخين من المياه ليعبره بنو إسرائيل، حتى إن البعض أنكر ما يرى وقالوا إن هذا سحر موسى يخدعهم به، عندئذ وقف السامري ينظر إلى مكان ولا يستطيع أن يُزيح نظره عنه، ثم اختفى وقتًا قصيرًا وعاد إلى مسيرة العبور.

تراجعت خطوات خيل وجنود فرعون إلى الوراء في رهبة، لكنه حثَّهم في حماس وعناد إلى الركض وراء موسى والعبيد، وكان أول العابرين في عربته الملكية، ففعلوا تنفيذا لأوامر إلههم.

جاوز موسى وكثير من بني إسرائيل البحرَ في أمان، ووقفوا على الشاطئ الآخر ينظرون في رعب إلى فرعون وجنوده، واستحوذ عليهم الفزع وأخذوا يحثون موسى أن يفعل شيئًا لينقذهم، صاح أحدهم:

– اضرب بعصاك البحر مرة أخرى.

لكن موسى رفض وأكد أن الله يأمره بأن يترك البحر على حاله ساكنًا.

وعندما عبر البحر آخر شخص من بني إسرائيل انتصف فرعون وجنوده طريقهم في البحر، فإذا بجبال المياه الواقفة في شموخ تغضب وتنهار عليهم من كل اتجاه وتلتحم ببعضها، تنفيذًا لأمر ربها، تبتلع الملك الفرعون وجنوده الذي ظنَّ نفسه إلهًا، وعندما أدركه الغرق قال «آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[1] لكنه غرق وجنوده أجمعين، ولم يقبل الله توبته بعد أن وصلت روحه للحُلقوم.

راقب عبيد بني إسرائيل في ذهولٍ ووجومٍ صراخَ الجنود وصهيل الخيل وسط الماء، حتى طافت الجثث المذعورة على سطح المياه، وأنبأهم موسى أن فرعون وهامان وكل جنودهما قد هلكوا جميعًا، فقالوا ما هلك فرعون! فأمر الله البحر بلفظ جسد فرعون على الشاطئ.

فلما وجدوا جثة فرعون سليمة وعليه درعه المعروف به تحققوا بأنفسهم لعلَّهم يهتدون ويؤمنون.

* * *

(١) سورة يونس، الآية ٩٠

نُصبت الخيام في الصحراء وانهمك موسى في الصلاة لله حمدًا وشكرًا على النجاة والنصر، وأقام بنو إسرائيل احتفالهم بهلاك فرعون وجنوده.

ثم أكملوا مسيرتهم وتوغَّل موسى بهم في الصحراء، حتى وصلوا لجنوب غرب سيناء فمروا على قرية «سرابيط الخادم»، متباطئين الخُطى تملأ أعينهم الغبطة من رؤية أهلها ساجدين لأصنام عِدة، يقدمون قرابينهم لها في خشوع، التفتوا إلى موسى وقالوا في حماس:

- يا موسى.. اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة.. نريد إلهًا نراه.

غضب موسى وهاله ما سمع بعد كل ما رأوا من معجزات وقال في أسى وتعنيف:

- إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ.(١)

فلما رأوا غضب موسى أكملوا المسيرة وفي نفوسهم رجس عظيم.

***

سار شاؤول وعزرا وسط القبائل في مسيرة الصحراء يحملان أمتعتهما، يبدو عليهما آثار التعب يتقدمهم جميعًا نبيًا الله موسى وهارون، حتى جاوزت المسيرة القرية وبلغت صحراء سيناء عند جبل الطور، وحينها نظر شاؤول إلى عزرا في شك وقال:

- هل تصدق حقًا أن موسى نبي الله؟ أم أن كل ما رأيناه سحرٌ مُبين؟

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٣٨

- أنا لا أصدقه إلا أن يجعل لنا وطنًا مثل بقية شعوب الأرض.. وقتها فقط أؤمن به.

توقف موسى وأمرهم بنصب الخيام مرة أخرى، وبعد أن فعلوا نظر إلى أخيه هارون وأوصاه في جدية:

- أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين.

وبدأ موسى رحلة الصعود على جبل الطور، بدأها بالصوم عن الطعام والأنام والكلام والخلوة، ليُغلق باب الدنيا ويأنس في صُحبة الرب، والتزم هارون بوصية أخيه الصغير، وظلَّ يعلِّم بني إسرائيل ويرشدهم، فمال إليه بعض منهم.

وبعد مرور أيام، وفي إحدى الخيم لم يهدأ عقل عزرا من كثرة التفكير، لا يستطيع النوم في ليلة كئيبة على قلبه، تنبهت زوجته فسألته في حنوٍّ بعد أن اطمئنت أن أولادها نائمون:

- ألم تنم بعد يا عزرا؟

- وكيف أرتاح وقد ألقى بنا موسى في الصحراء عبثًا.

نظرت خلفها مرة أخرى لتطمئن على أولادها وقالت في ثبات..

- إن نبي الله موسى يعلم ما يفعل، وهو لا يفعل إلا ما يأمره الله به، لقد نجانا الله من عذاب فرعون ألا تتذكر الأمس القريب؟ والله إني أخاف أن يسمعك أولادنا فيملأهم الشك منذ صغرهم.. كيف تعلم أولادنا تعاليم موسى وأنت لا تؤمن بها ؟

- لقد سئمت ما يقوله موسى، ولا أبالي بإيمان أولادنا الآن، وإني لأشتاق لعذاب فرعون الذي أعلمه، فهو أهون عليَّ من انتظار

ما لا أعلمه في هذه الصحراء القاحلة.

ثم خرج عزرا من الخيمة يتأفف وظلت زوجته تدعو له حتى حلت نسائم الفجر، فخرجت مع قبائل بني إسرائيل إلى بئر قريبة يملؤون أوعيتهم من الماء، واصطفت مع النساء فرأت امرأة تلتفت وتتساءل مع باقي النسوة.

- ألم تلاحظن اهتمام هارون الزائد بنا؟

قالت إحداهن:

- نعم نلاحظه.. إنه ليّن القول وهين الطبع على عكس موسى الذي يأخذ كل شيء بجدية ويغضب عندما نُعصي أوامر ربه.

رفعت الأولى حاجبيها وحكت ذقنها وارتسمت ملامح الشك على وجهها وسألتهن:

- ألم تلاحظن اختفاء موسى؟ لقد طال غيابه! إني على يقين أنه قد هرب ولن يعود.. وقريبًا يلحق به هارون.

همهمت بعض النسوة:

- نعم أين هو كل هذه المُدة؟

رددت النسوة الحديث حتى تحدثت به كل القبائل، وبينما يمضي هارون بين الخيام يتفقد أحوال بني إسرائيل استوقفه أحدهم مُتسائلًا:

- أصحيح يا هارون ما يُشاع من أمر هروب موسى ولحاقك به قريبًا؟ أتتركاننا هنا في الصحراء ضائعين؟

فينفي هارون بهدوء مؤكدًا مُلاقاة موسى لله على جبل الطور

فيسألونه في إنكار:

- أما كان لربه أن يلاقيه في مكانه دون أن يصعد على الجبل؟

ويصيح أحدهم:

- ومتى ينزل موسى من الجبل؟

فيقابلهم هدوء هارون وصبره مرة أخرى ويشرح لهم أنه لا يعلم موعد مجيئه، فينظر العبيد إلى بعضهم البعض مُنكرين حديثه. ليقول أحدهم غاضبًا:

- إذا كان الأمر هكذا فأنت لا تصلح يا هارون لخلافة موسى.. أنت مثلنا ونحن نملك أمرنا.

فيتركهم هارون في سلام ويمضي في طريقه.

وفي إحدى ليالِي انتظار موسى، كان يجلس «بنيامين» و »شالوم» في خيمة أحدهم.. يتحدثان سويًا وقال بنيامين:

- أرأيت ما يتحمل هارون من العبيد؟ إنه مسكينٌ بما يلاقيه منهم بعد ما رأوا آيات الله بأعينهم، فلولا حِلمه معهم لهلكوا.

- إنهم يظنون أن موسى قد هرب، ويتشككون في كل شيء ولا يفقهون ما يقولون.

- لقد أمره موسى بأن يستخلفه لكنه لا يرتاح ليلًا أو نهارًا، فهذا سرقَ ذاك وتلك ضاع ابنها في الصحراء ومشاكل لا تنتهي أبدًا.

- أصدقك القول.. هؤلاء العبيد لا يخافون إلا من موسى وإن كانوا يحبون هارون، لكنه طيب القلب وهم لا يستحقون

طيبته هذه.. فلندعوا الله السلامة حتى يعود إلينا موسى.. ولنصبر كما يصبر هارون على جهالة قومه.

* * *

صام موسى ثلاثين ليلة ثم زاد موسى عشرة أيام صومًا.. ولما صعد موسى الجبل طلب من الله أن ينظر إليه وقال:

- ربي أرني أنظر إليك[1].

قال الله له:

«لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني».

ولما تجلى الله للجبل صار دكًّا وخرّ موسى صعقًا.. فلما أفاق موسى قال:

- سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين.

وأُنزلت الألواح وتلقاها بكل ما جاء فيها من تعاليم التوراة والوصايا العشر. وقال الله:

«يَا موسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ على النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ»[2]

* * *

(١) سورة الأعراف، الآية ١٤٣

(٢) سورة الأعراف، الآية ١٤٤

١٩٦١

صوت همهمات خافت، كالتسابيح التي كانت تنبعث من شقق الجيران مساء كل جمعة وصباح كل سبت، الصوت يتضح شيئًا فشيئًا.

«إلهي إلهي لماذا تركتني بعيدًا عن خلاصي عن كلام زفيري*

تتبعت الصوت في الطُّرقة فسمعت بوضوح:

*إلهي في النهار أدعو فلا تستجيب في الليل أدعو فلا هدوء لي*وأنت القدوس الجالس بين تسابيح إسرائيل*عليك اتكل آباؤنا*.

عند غرفة أبي وأمي انبعث الصوت بقوة وانبعثت معه أبخرة كأنها ضباب، ورأيت سيدة حامل تصرخ صرخات مُتقطعة، ترتدي قميصًا أبيضَ وترقد على فراش أمي، يستر نصفها الأسفل ملاءة! تبكي وتنظر إلى سيدة عملاقة ذات ملامح حادة أمامها، تزفر نفسًا عميقًا وتُمسك بمقص عليه دماء وتقول:

- ولادة عسيرة.

ناولتها سيدة أخرى إناءً يتصاعد منه البخار، فقد كانت الأبخرة تتصاعد بكثافة لدرجة لم أعد أرى إلا أطيافًا، لكنني رأيت الرجل الذي رأيته من قبل على سطح العمارة يجلس على الكرسي

المقابل لهم مُمسكًا بكتاب يقرأ منه بصوتٍ عالٍ:

*اتكلوا فنجيتهم * إليك صرخوا فنجوا * عليك اتكلوا فلم يخزوا*أما أنا فدودة لا إنسان*عار عند البشر ومُحتقر الشعب*كل الذين يرونني يستهزئون بي * يفغرون الشفاه وينغضون الرأس قائلين اتكل على الرب فلينجه*لينقذه لأنه سر به*

ثم وضحت على الحائط نجمة داوود سوداء كأنها تشتعل!

«*لأنك أنت جذبتني من البطن*جعلتني مطمئنًا على ثُدي أمي*عليك أُلقيت من الرحم*من بطن أمي أنت إلهي*لا تتباعد عني لأن الضيق قريب*لأنه لا مُعين».

صوت صرخة مدوية ثم بكاء طفل رضيع أعقبها زغرودة! وصوت مسنة الأنوثة يقول:

- ولدٌ جميل.. ليباركه الرب.

حمل الرجل الرضيع وتأمله فابتسم وقال:

- لقد منَّ الرب على جدك في هذه الأرض المقدسة، كنت أتمنى لو يحضر اليوم ليراك.

حينها بدأت الأبخرة تنقشع، لم أتمالك دهشتي لرؤية ولادة لأول مرة في حياتي.. خطوت داخل الغرفة كأن أحدًا يدفعني فلم ينتبهوا، وفجأة التفت إليَّ الرجل واختفت ابتسامته وتوجس مني خيفة، وأعطى المولود إلى السيدة العملاقة، وتوجه إليَّ وبِتُّ مُرتعبةً، أردت أن أهرب لكنَّ قدميَّ قد تسمرتا في الأرض، الرجل يقترب وأنا أحاول أن أزيح قدميَّ عن الأرض، أرفعهما إلى أعلى فلا

ترتفعان، كيف ثُبتت قدماي في مكاني وقد كُنت أسير منذ ثوانٍ؟!

الرجل يقترب مني وأنا أرتعب أكثر ولا أملك غير دموعي التي تنسال دون توقف، باتت المسافة بيننا قريبة جدًّا فأخذ يُحدق بي وينظر خارج الغرفة، الرضيع يصرخ وأنا أبكي.. مسح بكفه على رأسي وقال:

- ما الذي أتى بكِ إلى هنا الآن؟ ولِمَ البكاء؟

- خائفة.

- مِن مَن؟

وشعرت بقدميَّ تنفكان بشكل ما، مسح الرجل دموعي وكأنه أبي ثم قال:

- هل لي أن أعرف لماذا الخوف؟

لم أستطع أن أصف شعوري لكنني أشرت له عليه.. ثم أشرت بإصبعي على عائلته لكنهم قد اختفوا! فصرخت.. نظر الرجل وراءه فلم يجدهم جميعًا.. ليس هناك امرأة تلد ولا رضيع ولا سيدتان.. هرع إلى الفراش في ثوانٍ وأخذ يتلفت حوله صعقًا، ثم نظر إليَّ وقد تبدلت ملامحه وصاح في صوت ملأني بالرعب:

- أين ذهبوا؟

- لا أدري؟

- أين ذهبوا؟ لم يخرجوا من الغرفة! لقد كانوا هنا منذ لحظات.

- لا أعلم.

أمسك الرجل المقص المُغطى بالدماء وبدأ يقترب من جديد،

فهرولت خارج الغرفة أبكي وأصرخ وأنادي:

- أمي.. أمي.. أنقذيني.. سيقتلني ذلك الرجل.

وفجأة أمسك بي أحدهم فأغمضت عيني وصرخت بلا انقطاع، وسمعت صوت جدي يقول:

- الله أكبر.. الله أكبر.. ماذا بكِ يا حياة؟ ماذا حدثَ لها يا وداد؟

فتحت عيني فوجدت جدي يضمني قلقًا وأمي وأبي خلفي، أمي تبكي وأبي ينظر إليَّ في دهشة وشفقة، قال جدي:

- حسنًا.. دعوها لي، لا تكلفي حياة اليوم بأي عمل يا وداد.. تعالي يا حبيبتي مع جدك.

وبعد أن هدأت ألحَّ جدي ليعرف ماذا حدث، لكنني أصررت ألا أتحدث في هذا الموضوع أبدًا، لا أريد أن يتهموني بالجنون.. بعد أن طال صمتي قال جدي:

- لن أصر لأعلم ماذا حدث.. لكني سأنتظر أن تحكي كل شيء لاحقًا.

أومأت له بالإيجاب فقال راسمًا بسمة قلقة:

- اذهبي وأحضري جلال سنمضي اليوم كله سويًا، سأحكي لكما اليوم حكاية ما حدث مع السامري.. وبقية ما حدث لبني إسرائيل.

قمت واحتضنته وشعرت بأمان يغمرني لا أريد له أن ينتهي.. ثم جريت إلى جلال لأحضره.

* * *

السامري

كان السامري يسير في إحدى الليالي بين الخيام، فسمع امرأتين من بني إسرائيل تتحدثان في ضجر، فوقف مُنصتًا لحديثهما الذي أثار فضوله ولقي فيه القبول.

- كُنت أظن أن امتلاكي للذهب سيجعل مني سيدة حُرَّة لا عبدة كما كُنت في مصر، فسرقت مولاتي وأخفيت ما سرقته بعدما تيقنت من أمر الخروج من مصر.

أردفت صاحبتها:

- أنا لم أسرق ما معي من ذهب لكنني استعرته من مولاتي وأوهمتها أنني سوف أردُّه بعد الاحتفال بالعيد، هذا حقي على سنوات خدمتي لها، لكن ماذا يفيدنا الذهب الآن وقد أصبحنا عبيدًا لموسى وربه؟ إنني على استعداد أن أضحي بكل ما أملك لأرى إلهي وأقدِّم له القرابين كما يفعل الناس.

- نعم نعم.. وأنا أيضًا.

حك السامري ذقنه ولمعت عيناه وابتسم في خبثٍ وظلَّ يفكر ليلته وحيدًا، حتى جاء الصباح فوقف وسط خيام العبيد يصيح فيهم:

- يا عبيد بني إسرائيل...

التف حوله من سمعه خطب فيهم.

- لو أنكم تحبون رؤية إلهكم وإله موسى فائتوني بما تملكون من ذهب.

نظر إليه بعض العبيد في شك وسألوه:

- وكيف ذلك؟

- أصهره أولًا فأصنع منه الإله.. فإذا لم أوفِ بوعدي فافعلوا ما شئتم.

ألقى العبيد بذهبهم المسروق في رضا ولهفة وترقب، ثم انصرفوا يملؤهم الشك والأمل.

أحضر السامري الحطب وأشعل النار، ثم أحضر إناءً كبيرًا وألقى بالذهب فبدأ يصهره، ثم تأكد أنه وحده في الظلام فأحضر شيئًا بكفه من جُعبته وألقاه مع الذهب، وظلَّ بجانب الإناء مُتأملًا فيه وبدأ يستعد لصنع جسد عجل ذهبي، ثم جعل له ثُقبًا في دُبره وآخر في فمه، إنه الإله الذي يتمناه بنو إسرائيل والذي يشبه الآلهة التي يعبدها المصريون.

فرغ موسى من تلقي الألواح واستعد لنزول الجبل فأخبره الله بفتنة السامري لقومه، وبدأ موسى هبوط الجبل يحمل الألواح غاضبًا من شِرك قومه، لكنه يُفكر في قضاء الله في الفتنة ليعلم مَن آمن ومَن كفر.

* * *

وقف السامري في شمس الصحراء الشديدة يبتسم مُنتصرًا، وبجانبه شيء ضخم عليه قطعة كبيرة من القماش ثم صاح:

- يا قوم.. الآن أستطيع أن أوفي بعهدي أمامكم.. هيَّا.. هيَّا..

بدأ تجمع العبيد من كل صوب ناحية صياحه، فابتسم السامري ورفع الغطاء عن عجلٍ ذهبيٍّ ضخمٍ له خُوار أذهل العبيد فظلوا يحدقون فيه فرحين.

قال بنيامين:

- ما هذا الشيء العجيب؟

قال السامري:

- تدعي الإيمان ولا تعرف ما هذا؟

فقال الرجل:

- ما لهذا العجل علاقة بالإيمان يا سامري!

أشار السامري بسبابته لبنيامين في استعلاء:

- إنه إلهك وإله موسى وإله بني إسرائيل... الآن ترونه أمام أعينكم.. ألم تطلبوا من موسى أن تروا الإله من قبل؟

قال شالوم:

- اتقِّ الله يا سامري.. هل تُريد أن نعبد وثنًا مثل المصريين؟ إن هذا الشيء صعنته أنت بيديك من ذهب العبيد.. ثم تدعوه إلهًا!

صاح السامري في ثقة:

- إنه ليس بوثن.. لقد ظهر لكم بعد أن رضي عنكم يا بني إسرائيل.. إنني صادق.

ردَّ بنيامين في حسرة:

- يا لك من محتال يا سامري.. سوف نرى الحقيقة عند عودة موسى.

دبَّ السامري قدمه في الأرض وأجاب بإصرار:

- عندما يأتي موسى سيُسر برؤية الإله.. سوف ترون جميعكم.

قال عزرا:

- إذا كان هذا رب موسى فكيف يصعد الجبل ليلاقيه؟

قال السامري:

- لقد اختلط الأمر على موسى.. الرب هنا أمامكم أعينكم وسوف يعبده موسى معكم.

في هذه اللحظة هبت رياح الصحراء قوية ودخلت في ثقب دُبر العجل وخرجت من ثقب في فمه، فانطلق خُوارٌ عالٍ جعل العبيد تُذهل أمام ما يسمعون، صاح السامري مؤكدًا:

- ها هو ربكم يؤكد ما أقول.. اسجدوا لربكم ولا تعصوا يا عبيد بني إسرائيل.

فسجد للعجل كل من كان حاضرًا فرحين.. وظلوا له عاكفين، فذهب بنيامين وعزرا مُسرعين إلى خيمة هارون ينادونه عن بُعد:

- يا هارون.. يا هارون.. اخرج لترى ماذا فعل السامري

بالعبيد.. لقد أضلهم بعد أن هداهم الله.. فسجدوا للصنم وركعوا له.. لقد فتنهم بالعجل.. فلتنقذهم من ضلالهم.

خرج هارون مُسرعًا بعد سماعه ما قالا وعلى وجهه صدمة وحزن، وذهب معهما إلى السامري فوجده يعتلي صخرة ويأمر العبيد بتقديم القرابين والسجود للإله، وما إن رآه آتيًا حتى أشار إليه وصاح:

- لقد جاء هارون لكي يسجد معكم للإله.

صُدم هارون من هول ما رأى وسمع وصاح في العبيد:

- أيها العبيد، إنه عمل شيطاني صنعه السامري لكي يُضلكم، إنه ليس بإله.. أتريدون أن تشركوا بالله بعد أن هداكم؟

علا صوت السامري:

- أنت تعلم تمام العلم يا هارون أن هذا إلهك وإلهنا جميعًا.. فلماذا لا تسجد له؟

قال بنيامين في ضجر:

- لقد منَّ الله علينا بالكثير.. أبعد كل هذا تريد أن تُضلّ العبيد؟

أجابه السامري:

- هذا الكلام حرام عليك وسوف ترى غضب الإله.

وقف شالوم أمام العجل ونظر إليه فقال:

- إن كان هو الإله حقًا.. فليخبرنا كيف خلق الكون؟ كيف

يُدبر الأمر؟

ثم التفت إلى القبائل المجتمعة فقال:

- يا بني إسرائيل.. أنصتوا جيدًا.. إن هذا ليس بإلهكم فلا تضلوا سواء السبيل.

بدأ العبيد يتفكرون في كلامه فأسرع السامري.

- لا تنصتوا إليه.. هارون وهذان الرجلان يريدون أن يضلوكم حتى تكونوا تحت إمرتهم، تجنبوا غضب الإله يا بني إسرائيل.. ها هو يخور مرة أخرى.. أنصتوا.

صاح أحد القوم وهو يسجد:

- قلبي يحدثني أن هذا هو إلهي، الآن نراه ويحدِّثنا أمام أعيننا.. كُنت أريد أن أراه.

رفع يده السامري وخطب فيهم بينما ينظر لهارون:

- اسجدوا مع هذا العبد الصالح، أما أنت يا هارون فاذهب بعيدًا أو اسجد للإله قبل أن تقتلك.

فردَّد العبيد تهديده لهارون فتركهم ومن معه في أسى، وعكفوا منذ هذا اليوم على عبادة الصنم والتضرع له في كل أمورهم.

* * *

في كل صباح يقف هارون على الصخرة يخطب في عبيد بني إسرائيل:

- يا قوم.. استغفروا الله.. إن ربكم الرحمن فاتبعونِ وأطيعوا أمري.

ظلَّ هارون يدعو العبيد ليلًا ونهارًا أن يتوبوا إلى الله ويستغفروه، ويردد أن هذا الإله المزعوم ما هو إلا صنم صنعه السامري من ذهبهم، ويذكِّرهم بآيات الله لكنهم لا يتوبون ولا يتذكرون فظلوا على كفرهم واستضعفوه وكادوا يقتلونه، إلا قليل منهم كانوا على الإيمان ثابتين.

ولا يزال موسى يسير هابطًا من الجبل، والهم والحزن يشغله، يريد أن يعلم أمر الفتنة وما حلَّ بهم.

جلست امرأة عزرا في خيمتها بينما خرج زوجها ليُشعل الحطب قاضبًا جبينه، يُفكر كيف يقُنع امرأته بالإيمان بالعجل، دخل وأراد أن يحدِّثها في لطفٍ بعد أن تشاجر معها مرات عديدة.

- ألم تعيدي النظر في عبادة الإله مرة أخرى؟

ضحكت باستهزاء وقالت:

- إله؟.. أي إله.. تقصد الصنم؟

- إن الصنم لا يخور.

- وهل يخور الإله؟ ويا تُرى ماذا يقول بخواره؟ أنتم على ضلال مُبين وسيلقى السامري مصيرًا أسود بعودة موسى.

- لكن موسى تركنا وهرب.

- سيعود موسى وستلقون عقابًا قاسيًا.

- يقول السامري إن موسى لو عاد سيسجد معنا للإله.

- يا لشقائكم.. لقد أضلَّكم السامري لأن قلوبكم اعتادت الشِّرك بالله ولا تتعظ عقولكم، لقد أفسد فرعون نفوسكم.

- إني ذاهب إلى ربي.. سأتركك على ضلالك كما تشائين.

- فلتُبلغ العجل أنني أنتظر مُعجزاته.

ظلَّ القوم يسجدون ويبتهلون إلى العجل في تضرع، والسامري على الصخرة يحثهم على تقديم القرابين والعجل يخور بجانبه.

- أيها المؤمنون.. أقبلوا على إلهكم يفيض عليكم ببركته.

وبينما يتحدث إليهم والاحتفالات بالإله تملأ المكان.. وجد موسى بعصاه في يمينه، والألواح في يساره يقف أمامه فبُهت وصاح خائفًا:

- لقد عاد موسى!

فردَّد العبيد واحدًا تلو الآخر:

- لقد عاد موسى.. لقد عاد موسى..

***

عودة موسى من الجبل

وجد موسى العبيد ساجدين متضرعين للعجل فغضب غضبًا شديدًا، أما العبيد فتنحوا جانبًا خائفين، وتوارى السامري عن أعين القوم واندسَّ وسطهم خائفًا، فصرخ موسى في غضب:

– بئس ما خلفتموني من بعدي.

جاء هارون حزينًا ينظر إلى موسى في أسف، فألقى موسى بالألواح من يديه وذهب إلى هارون وأخذ بشعر رأسه ولحيته وجذبه في غضب شديد، وهارون خائف يرتعش فوقع على ركبتيه.. بينما موسى شرارة الغضب تشتعل في قلبه.

– يا هارون.. ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني؟ أعصيت أمري؟

قال هارون في وهن يستعطف أخاه:

– يا بن أمي.. لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي.

وسأل موسى لماذا لم يدمر هذا الصنم؟ لقد اشترك معهم هكذا في الخطأ.

أجابه هارون:

– إني خشيت أن تقول فرَّقت بين قوم بني إسرائيل.. يا بن أمي.. إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تُشمت بي

الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين.

جاء بنيامين إلى هارون يؤازره:

- نعم يا موسى.. لقد فعل هارون كل شيء ليعيدهم إلى عبادة الله، لكنهم كادوا يقتلونه لولا فضل الله عليه.. أنت تعلم أنهم لا يخافون هارون.

وأكد شالوم مُسرعًا:

- لقد دعاهم ليلًا ونهارًا ولم يتركهم في ضلالهم، لكنهم لم يسمعوا ولم يتفكروا يومًا فيما يقول، ولقد ضلوا بعد غيابك.

أدرك موسى ظُلمه لأخيه فترك رأسه ولحيته، فقام هارون ووقف بجانب أخيه، التفت موسى إلى العبيد في غضب شديد:

- يا قوم، ألم يعدكم ربكم وعدًا حسنًا، أطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي.

نظر العبيد إلى بعضهم في خوفٍ ورهبةٍ وخجل ولم يجيبوه، فتقدمت امرأة عزرا من موسى وقالت:

- إنه ذنب السامري يا موسى، لقد أضلهم بصنع هذا العجل بعد أن صهر الذهب، إنه سبب كل ما حدث.

غضب موسى أكثر وقال:

- إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا.

أفاق عبيد بني إسرائيل وبكوا ونظروا إلى الصخرة التي يقف عليها السامري فوجدوها خاوية، فتلفتوا حولهم وصاحوا في تتابع:

- أين السامري؟ اخرج يا سامري.. لقد أضللتنا.. إنها فتنة السامري يا موسى.

قالت امرأة عزرا:

- أخرج يا سامري لترى ما صنعت.. ولتجعل العجل ينطق الآن.

خرج السامري من بين العبيد خائفًا يرتعش، تقدَّم من موسى والدموع تملأ وجنتيه، ثم جثا على ركبتيه ونكس رأسه.. سأله موسى:

- ما خطبك يا سامري؟

رفع السامري عينين زائغتين:

- بصرت بما لم يبصروا به.. فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي.

وقال موسى:

- فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس، وأن لك موعدًا لن تخلفه.

- وانظر إلى إلهك الذي ظللت عليه عاكفًا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفًا.

ذهب موسى إلى العجل فحرقه أمام العبيد حتى إذا انصهر وأصبح رمادًا نثره في البحر، فتطاير أمام أعينهم والتفت للعبيد وقال:

- إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء عنده.

وقف موسى وسط العبيد يتفحص وجوههم الباكية الخائفة وقال حزم وغضب:

- يا قوم، إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل، فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم.

وبدأ كل من سجد للعجل بقتل آخر.. وعمدوا إلى الخناجر يطعنون بعضهم بعضًا، حتى قُتل عددٌ كبيرٌ منهم، فبكى العبيد وصرخوا يبكون.

- يا موسى.. استغفر لنا ربك.. نتوسل إليك.. ارحمنا.. لقد أضلَّنا السامري وندمنا على ما فعلنا.

فأوحى الله إلى نبيه أنه قد عفا عنهم بعد ندمهم.

دخلت امرأة عزرا خيمتها فوجدته يجلس حزينًا، فهللت في فرح:

- لقد عاد موسى.. لقد عاد نبي الله.

وقف عزرا وقد ضايقه ما سمع:

- ألا تكُفي قليلًا؟ أعلم جيدًا ورأيت كل ما حدثَ.

- ولم يدافع السامري عن نفسه ولم يدافع إلهك عن نفسه كذلك وموسى يحرقه وينثره في البحر.

- لقد أضلنا السامري.

- نصحتك مرارًا وتكرارًا..

- كل ما أردته هو أن أرى إلهي بعيني.. هل هذا كثير؟

- يل لكم من قوم ضالين. لا تصدقون إلا ما تراه أعينكم، أنزل الله عليكم آياته فرأيتموها ثم ضللتم وكفرتم من جديد.. إن الله ليس كمثله شيء.

تأفف عزرا من قولها وخرج من الخيمة في الظلام فظلت تدعو لهدايته.

وظل السامري ما تبقى له من العمر وحيدًا نادمًا منبوذًا، لا يلتفت إليه أحد ولا يُكلمه أحدٌ عقابًا له على ما فعل بعد أن استجاب الله دعوة موسى.

وحكم الله بعدها على بني إسرائيل بالتيه أربعين سنة، بعد أن عصوا أوامر نبي الله بدخول أرض فلسطين، ومحاربة أعداء الله. وكُتبَت عليهم الضيعة والشرود.

***

صيف ١٩٦٢

كان جدي يريد أن يضع وعيه وخبرته وحكمته في زجاجة ليسقيني منها، وكان يدرك أن هذا مستحيل، أرخى قبضته قليلًا فأنا لا أملك من العمر إلا اثنتي عشرة سنة فقط، لكنه دائمًا يذكر أن عمري قد زاد أعوامًا منذ العدوان مُقارنة بجميع إخوتي.

تحسنت أحوال العائلة، فقد تدبر أبي إيجار مقهى صغير لكنه كافٍ لمعيشة كريمة، وأمضى صابر خدمته العسكرية وعمل بهيئة القناة.. يسب الإنجليز ليلًا ونهارًا لأنهم لم يعطوا المصريين المناصب الوظيفية المرموقة في السابق، ثم يحمد الله أن القناة قد رُدت إلى أصحابها بفضل جرأة عبد الناصر وشجاعته، ثم يدعو الله أن تُردّ البلد كلها إلى أصحابها وتحيا الثورة.

أما نصر فقد هاجر إلى أستراليا ليأسه من تغيير الأوضاع السياسية في مصر، وتزوجت بدر وكانت هي وزوجها يهتمان لأمور حياتهما بعيدًا عن أخبار الحرب والبلد.

الآن تعلمت كيف أصنع القهوة لجدي في الصباح وأحملها دون أن ترتعش يدي فأسكبها، أسمع صوت «مبروكة» بالخارج:

- سعيد يا نبي.. العواف يا أهل البيت.

عندما تأتي مبروكة فإنها تدخل لأمي المطبخ كي تعاين ما جاءت به وتعطيها حقها، ثم تتحدثان حديثًا أسبوعيًّا مُقدسًا،

تعتمد عليها أمي في نقل الأخبار وتصدِّقها أكثر من النشرات الإخبارية بالراديو، ولا مانع من مُساعدتها في إعداد الطعام في المُناسبات وتبخير الشقة ورُقيتنا أيضًا.

أجابتها أمي مُرحِّبة:

- ادخلي يا مبروكة إلى المطبخ.

يجب أن أسرع لأفسح لها الطريق، تبتسم لي مبروكة بوجهها المليح الضاحك وقوامها الضخم وتقول:

- اللهم صلي على النبي... اسم الله عليها كبرت واحلوت.

فترد أمي:

- كلها كام سنة وتبقى عروسة.

لم أفهم رغبتها في التخلص مني أبدًا، لكني أتفهم مبروكة لأن ابنتها تزوجت في سن الخامسة عشرة، تركتني نظرات مبروكة لما رأت «الثلاجة» فقاطعت أمي:

- اللهم صلِّ على النبي.. مبروكة عليكم يا أم صابر.. يرزقكم خيرها ويكفيكم شرها.. الآن تحفظين اللبن والبيض والجبن القريش.

- يبارك فيكِ يا مبروكة.. ماذا لديك اليوم، هيَّا يا حياة اذهبي بالقهوة إلى جدك.

شعرت بأمي وهي تصرفني فتلكأت قليلًا خارج المطبخ، شعرت أن الأمر يخصني، فسمعت أمي تقول بنبرة قلقة:

- هل تذكرين ذلك اليوم الشؤم الذي أتت فيه حياة إلى غرفتي

وبكت وصرخت في وجه أبيها؟

- نعم أذكره.. قُلتِ إنها رأته كهيئة شخصٍ آخر.

- الأمور لم تتوقف بشكل نهائي.. وأنا أخاف على حياة يا مبروكة.

- تقصدين أنها ورثت عنكِ الحاسة إياها؟

- هو كذلك، تعلمين أن السيد أحمد قد تحمَّل الكثير معي، وبالطبع لأننا نحمل نفس لقب العائلة ما كان ليصدقني أبدًا، أما حياة.. فهي مسكينة.. أيامها مختلفة، لا أريد لها حياة تعيسة، من سيصدق أنها ترى أناسًا وأحداثًا من الماضي؟

- لكن كيف يا ست وداد؟ أنتِ ورثتها عن أمك وحياة ورثتها عنكِ، وطالما ورثتها فقد ورثتها، لن نستطيع أن نتدخل فنوقف الأمر عند حد معين.

- أخاف على ابنتي مما عانيتُه لسنوات طويلة، الأمر ليس سهلًا يا مبروكة.

- أعلم يا ست وداد..ربنا يعينك.. وله حكمة.

كان ما سمعت أشبه بدخولي تلك الدائرة البيضاء من جديد، ضباب كثيف ولا شيء آخر، تذكرت جدي وجلال اللذين ينتظرانني في البلكون فأسرعت إليهم شاردة، ما إن رآني جدي حتى قام سريعًا بإخفاء شيء ما، وأغلق صحيفته ثم قال:

- أين توقفنا المرة السابقة؟

نظرت له في لوم وأنا أنظر لمكان حلوى قد خبَّأها لتوه:

- لا أريد أن أُثقل عليك يا جدي.. فأحوال صحتك لا تعُجبني.
ارتسمت ملامح طفل على تجاعيد وجهه التي أعشقها وقال:
- ألم أقل إنكِ ما عُدت طفلة منذ العدوان.. لقد كافأت نفسي بقطعة حلوى صغيرة بعد ما أنهينا قصة بني إسرائيل حتى سنوات التيه.
- أنا فقط أخاف عليك.
- لا عليك.. اليوم أنا على استعداد للمواصلة.. جاهزان؟
- بالطبع.. لقد وقفنا عند باريس.. لنكمل يا جدي.

***

في باريس ١٧٩٩م وقف رجل أبيض اللون دقيق الملامح متوسط القامة عاقدًا ذراعيه وراء ظهره، يُطل من نافذة الغرفة على اللا شيء، يفكر وقد عقد ذراعيه وعقله منصبًا على شيء واحد فقط؛ احتلال العالم وتخليد اسمه بين العظماء، مُحاولًا مُعالجة فشله في اقتحام أسوار عكا، استحوذت عليه فكرة القضاء على بريطانيا وتوسعاتها الاستعمارية كحلٍّ أمثل.

استدار «نابليون بونابرت» وجلس يكتب رسالة إلى يهود العالم المشتتين في الأرض، وقد ظنَّ أنها ضد مصالح بريطانيا العظمى التي توسعت مستعمراتها حول العالم.. لكنها أبدًا لم تكن. كتب قائلًا:

«أيها الاسرائيليون.. انهضوا فهذه هي اللحظة المناسبة، إن فرنسا تقدِّم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل، سارعوا للمطالبة باستعادة مكانتكم بين شعوب العالم».

وجعل نابليون نداءه خبرًا رئيسيًّا في كل الصحف الفرنسية، ومع ذلك.. هُزم لاحقًا نابليون.. ولم يبقَ من ذكراه في عكا سوى مجسم يقف على تلة سُميت باسمه، لكن فكرة نابليون بإنشاء وجود يهودي بالمنطقة لم تَمُت.

* * *

سألت جدي عندما صمت ووجدته شرد قليلًا:

- إذًا كانت بداية فكرة وجود الإسرائيلين في ذلك الوقت؟

فردَّ جدي وهو ما زال شاردًا:

- يبدو كذلك.. لكن الأمر لم يكن قد بدأ بشكل حقيقي إلا بعدها بأربعين عامًا.

سأل جلال في نهم:

- وماذا حدث بعد أربعين عامًا؟

نظر جدي من البلكون وبدا وكأنه سيكمل شروده.. ثم تابع مكملًا:

- في عام ١٨٤٠ م أي بعد أربعين عامًا أعادت بريطانيا الفكرة لترد على توحيد «محمد علي» لمصر وسوريا، حيث أن البارون الثري «إدموند روتشيلد» أقنع وزير الخارجية البريطاني «بالمرستون» بتشجيع وتأييد هجرة اليهود إلى مستعمرات يهودية في الأرض المقدسة فلسطين، لتكون حاجزًا يمنع قيام وحدة عربية في المنطقة، على غرار ما فعله «محمد علي» في توحيد مصر وسوريا منذ شهور.

كتب «بالمرستون» إلى سفيره في إسطانبول:

«عليك أن تقنع السلطان وحاشيته بأن الحكومة الإنجليزية ترى أن الوقت أصبح مناسبًا لفتح فلسطين أمام هجرة اليهود».

لم يزد عدد اليهود في فلسطين آنذاكِ عن ثلاثة آلاف، استجابوا للمبادرة البريطانية، وكان على رأسهم «إدموند روتشيلد» فزار فلسطين أربع مرات للاطلاع على فرص الاستثمار فيها، وموَّل بأكثر من أربعة عشر مليون فرنك لإنشاء ثلاثين مستعمرة يهودية، من أهمها مستعمرة «ريشون ليتسيون».

بعدها في عام ١٨٨٥ ظهر لأول مرة مصطلح «الحركة الصهيونية» على يد الكاتب النمساوي «ناثان بينبوم»، وهدفها الأساسي الاستيطان في فلسطين، وكلمة «الصهيونية» مشتقة من كلمة «صهيون» وهي أحد تلال القدس.

ورفعت مستعمرة «ريشون ليتسيون» العَلَم الخاص بها والذي حمل لأول مرة في التاريخ «نجمة داوود»، بينما فلسطين لا تزال تحت الحكم العثماني.

كان جدي يستطرد في الحديث لاهثًا وقد شعرت أنه بدأ يتوتر قلقًا.. ربَّتُ على يديه وقلت له:

- براحتك يا جدي.. أشعر أنك تريد أن تحكي كل شيء في لحظة واحدة.

ابتسم جدي بحزن وقال:

- لا يا حبيبتي.. إنما هي الأمانة التي يجب أن تُنقَل منا إليكم.. حتى لا يضيع الحق.. ولكن...

ثم اعتدل وعاد من شروده وارتسم عليه التركيز الشديد وقال:

- دعونا من الشرود والمقاطعات.. لنكمل.

- لنكمل يا جدي...

- من المهم جدًّا يا أحبائي أن تعرفا أن الطائفة اليهودية في فلسطين قبل ذلك كانت تحت الحكم العثماني.. لم تكن صهيونية أبدًا، فقط كان بها يهود محليون، لكن يهود شرق أوروبا الذين نزحوا إلى فلسطين أواخر القرن التاسع عشر كانوا يطمحون إلى خلق يهود آخرين.

وكانت نبرة جدي قد بدأت تأخذ حدة وغضبًا واضحين.. وعاد للشرود. قال له جلال:

- هل تذكرت شيئًا ما يا جدي؟

تنهد قائلًا:

- تذكرت والدي رحمه الله عندما أخبرني أن الصحفي الصهيوني «ثيودور هرتزل» قد نشر كتابه «الدولة اليهودية» باللغة الألمانية في عام ١٨٩٦، لكن يهود أوروبا كانوا يجدون حلمهم في الهجرة إلى أمريكا، وهذا ما جعل الطبيب «ماكس نوردو» الساعد الأيمن لـ «هرتزل» يرسل اثنين من كبار رجال الدين اليهودي إلى فلسطين، وبعدها أرسلا خطابًا من سطر واحد فقط جاء فيه:

«العروس جميلة جدًّا.. ومستوفية لجميع الشروط، ولكنها متزوجة بالفعل».

قال جلال غاضبًا وقد انتقل غضب جدي إليه من الحكاية:

- وهكذا فهم «نوردو» أن فلسطين ليست أرضًا بلا شعب كما ذكرَ «هرتزل»، وإنما لها شعب يعيش فيها منذ آلاف السنين.

قلت وقد فهمت لماذا تغيرت نبرة جدي:

- وبالطبع لم يبالوا بالشعب.. أصحاب الأرض الحقيقيين.

ردَّ جدي بحزن:

- وأكثر من ذلك يا حياة.. في ٢٧ أغسطس ١٨٩٧ م شارك «بينبوم» و«نوردو» برئاسة «هرتزل» في المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة «بازل» السويسرية، وتبنى المؤتمر تأسيس وطن لليهود مُعترَف به في فلسطين، وكان هرتزل قد بدأ بالفعل في دعوة علنية رسميًّا لأوروبا لتبني فكرة الاستيطان، فكان يعقد مصالح فردية وهمية لكل دولة من الدول العظمى على حدة، بشرط حماية الكيان الصهيوني..

قال جلال في حنق:

- أولاد الأفاعي.. لكن كيف أقنعوا الدول العظمى بذلك وقد تتعارض مصالحهم؟

- هذا سؤال ذكي يا جلال.. وقعت الدول العظمى في شرك أبي الدولة الصهيونية في العالم بقوله الكاذب الدائم لكل منهم على حدة.. «سأكون معكم ضد الدول الأخرى إذا أسستم دولة إسرائيل.. سأؤمِّن مصالحكم ضد الدول الأخرى».. عندها أكدت إنجلترا مصلحتها في قيام دولة يهودية، عندما صرح رئيس وزرائها «كامبل بانيرمان» بأنه من المهم إقامة حاجز قوي على الجسر الذي

يربط البحر الأبيض بالبحر الأحمر قائلًا.. «يتيعين علينا أن نضع في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة معادية لأهل البلد وصديقة للدول الأوروبية».

وكان اعتقاد الأوروبيين حينذاك أن اليهود أقرب إليهم من العرب، لذلك كان ينبغي بناء كيان قريبًا لهم، وضمان بقاء هذا الكيان هو ضعف ما حوله.

دخل صابر فجأة دون أن نشعر بوجوده من عمق استغراقنا في القصة، كان عائدًا من العمل، وقال معلقًا على حوارنا:

- على ذِكر أولاد الأفاعي كما سمعتكم.. سترحل عائلة واكيم غدًا.. يقولون إنهم سيلحقون بأفراد العائلة في فرنسا.

قلت:

- خيرًا.. كانوا مُريبين.

قاطعني جلال:

- تاريخهم أسود وكلهم متشابهون.

ردَّ جدي مذكرًا:

- مع ذلك تذكَّروا القلة التي آمنت بأنبياء الله موسى وهارون.

تركنا صابر فنظر جدي إلى كلينا في حزن قائلًا:

- اقتربنا من سنوات هامة وحاسمة.. عام ١٩٠٧ توجه إلى فلسطين لأول مرة عالم الكيمياء البريطاني وعضو الحركة الصهيونية العالمية «حاييم وايزمان»، ليؤسس شركة تطوير أراضي فلسطين في يافا، بدعم من عائلة «روتشيلد»، وكان الهدف شراء

أراضي فلسطين بطريقة منظمة.

قاطعنا من بعيد صوت «مبروكة» وهي بالخارج:

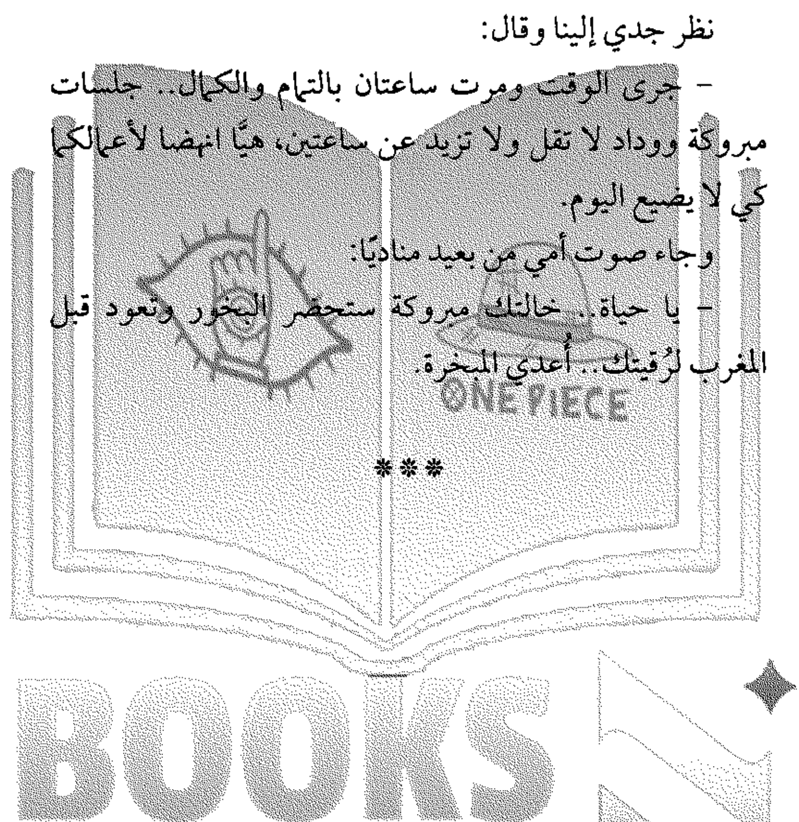
- فُتُكم بعافية.

نظر جدي إلينا وقال:

- جرى الوقت ومرت ساعتان بالتمام والكمال.. جلسات مبروكة ووداد لا تقل ولا تزيد عن ساعتين، هيَّا انهضا لأعمالكما كي لا يضيع اليوم.

وجاء صوت أمي من بعيد مناديًا:

- يا حياة.. خالتك مبروكة ستحضر البخور وتعود قبل المغرب لرُقيتك.. أُعدي المبخرة.



***

شتاء ١٩٦٢

كُنت أستمتع بنوم عميق، إلى أن سمعت صوت رجة واضحة بالغرفة، كانت واضحة جلية مما أوقظني من ذلك النوم العميق.. فتحت عيني فوجدت نجمة داوود منحوتة بالسقف، كانت النجمة ترتج.. فتهتز الغرفة بأكملها، قُمت فزعة فلم أجد جدي في فراشه المُقابل لسريري، وكان الارتجاج يزداد وأنا لا أعلم ماذا أفعل! هممت أن أقوم فوجدت يديَّ وقدميَّ قد قُيدوا بالسرير، فزعت بشدة وهممت أن أصرخ أو أنادي على جدي لكن صوتي حشر في حلقي ولم أستطع، ارتجت الغرفة ثانية ووجدت نجمة داوود المنحوتة في السقف قد أصبحت كتلة نجمية من حديد مُشتعل.. ثم انهالت عليَّ النجمة الحديدية ساقطة فوق رأسي ووجهي فهشمتهما.

صرخت وقمت فوجدت يديَّ حرتين وصوتي كذلك، جلست ونظرت إلى يديَّ وقدميَّ والسقف في دهشة، أين ذهب جدي في منتصف الليل؟ لعلَّه يقضي حاجته.. قُمت لأطمئن عليه فوجدته عند الساعة العتيقة في مدخل البيت يُغلقها.. سألته:

- ماذا تفعل يا جدي؟

ردَّ متفاجئًا:

- حياة! الساعة اللعينة تقف دومًا لا أدري لماذا.. أعتمد

عليها لأعلم ميعاد الفجر كُلما استيقظت في الليل.. ولكن لماذا أنتِ مستيقظة في هذه الساعة المتأخرة؟

لم أجبه ففطن أنني لست بخير.. ابتسم في حنانه المعتاد:

- حياة قلبي تحتفظ بالأسرار.. حسنًا، ما رأيك بنزهة صباحية بعد الفجر بقليل.. أنا وأنت وجلال فقط.. قبل أن يستيقظ الجميع؟

ابتسمت وحاولت استعادة روح الطفولة التي أفتقدها بشدة وأومأت موافقة، فقال:

- إذًا فلتحضري جلال بمعرفتك عند الشروق.

اندهشت لمعرفة جدي بطريقتي في إيجاد جلال عبر البلكون المجاور لنا فخجلت منه.

***

على الأريكة الخشبية في «حديقة فريال» بحي الإفرنج جلسنا ننظر إلى الأشجار الوارفة من حولنا، ننعم بنسمات مُنعشة ونتناول فطورنا الذي أعدَّه جدي، تذكرت الكابوس فزفرت أنفاسي وكأنني أنفض الخوف عني، تأمل جدي الهدوء من حولنا وأصوات طيور الحديقة وقال:

- رحم الله أبي.. كان يقول: «كلما ضاقت عليكم أنفسكم استمعوا لصوت الصمت، فالصمت يقول الكثير».

تذكرت الكابوس فنظر إلى عيني وكأنه شعر بما أخفيه عنه فأردف:

- لماذا تقلقينني عليك يا حبيبتي.. احكي لي ما بك.

توتر جلال ونظر إليَّ مستفهما في تعجب وكأنه فطن إلى أنني أخفي عليه شيئًا لا يعلمه.. وأربكني ذلك كثيرًا.. رددت على جدي:

- أنا بخير لا تقلق عليَّ.. هل تكمل لنا الحكاية. لقد وقفنا في عام ١٩٠٧.. ثم ماذا بعد ذلك؟

- فلنكمل قصتنا الطويلة.

قال جلال:

- نعم يا جدي، فلتكمل لنا ما الذي حدث بعد ذلك؟

نظر لي جدي في قلق واضح ثم استطرد مكملًا الحكاية.

***

كانت الشمس حامية تودع سهل «مرج بن عامر» وقت الغروب في النصف الأول من عام ١٩١٠، اصطفَّ الأخوان «حاييم وداوود ناحوم عزرا» يحملان أوعيتهما بالقرب من خيمة صغيرة بالية، ليحصلا على حصتهما اليومية من الحليب والخبز، نظر داوود في اتجاه الشمس وأظل عينيه بكفه وقد بدت عليه آثار المشقة، كان طابورًا طويلًا من الفلاحين، التفت داوود إلى حاييم وقال في صوتٍ عالٍ..

- حقًا لا أُصدق ما زعموه عن إقامة وطن لنا بعد الشتات؟ أجلوبنا من شرق أوروبا لنصطف من أجل لقيمات نسد بها جوعنا في هذه الشمس الحارقة؟ أهذا ما أقنعتني به لنترك بيتنا؟

نظر حاييم بطرف عينيه إلى داوود في ثبات:

- لم يكن بيتنا بأي حال من الأحوال، ولم تكن بلادنا يا داوود، نحن نعلم أننا مشتتون في جميع بقاع العالم وإن تظاهرنا بأن ما نعيش فيه أوطاننا، وأنت تعلم هذه الحقيقة.. لا تخدع نفسك، هنا نجد حلم الوطن الحقيقي، والحلم يلزمه الكثير من الصبر.

- هراء.. هربت من اضطهاد في أوروبا لعبودية في فلسطين.

قاطعه حاييم في إصرار:

- لا تقل فلسطين.. بل قل إسرائيل.. دولة الحلم اليهودي.. الأرض المقدسة، ألم تتوق إلى وطنٍ وقد صرت في السابعة عشرة من عمرك؟

- وهل تُصدق أنت ما يملؤون به رأسك وأنت في العشرين من عمرك؟

- أنا على يقين.. سوف ترى يا أخي، ألم تعلم أن الصندوق القومي اليهودي قد اشترى بالفعل أكثر من مئتي ألف دونم شمال فلسطين أي على هذه الأرض؟

هبت نسائم عليلة عليهما بعد أن توارت الشمس، نسائم جففت عرقهما وجعلت الجو صافيًا فأظهرت خُضرة الأشجار وجعلت حاييم يبتسم في انتصار لداوود وأكمل مُتأملًا ما حوله:

- ألا تحب هذه الأرض الغنية المقدسة؟

- هذا يجعلني أتعجب كيف باعها أهلها؟

- اشتراها الصندوق اليهودي من عائلة «سرسق» اللبنانية المقيمة في أوروبا، وكانوا قد اشتروا الأرض مُسبقًا من ضباط عثمانيين.

- تعني اشتراها الصندوق بالحيلة وطرد أهلها.

جاء دور داوود فمد وعاءه إلى الرجل القابع وراء قِدرٍ كبيرٍ، فملأ وعاءه بملعقتين كبيرتين من اللبن الدسم المُغطى بالأتربة، ثم أعطاه رجل آخر بجانبه رغيفَ خبزٍ كبيرًا فخرج من الصف، وانتظر حاييم حتى أخذ حصته لِيُكملا سيرهما إلى المُستوطنات اليهودية، قضم حاييم قطعة كبيرة من الخبز وقال وقد تبعثر الفُتات من فمه:

- ليكن أي شيء في سبيل تحقيق الحلم.

أردف داوود في شك:

- لكنهم قاموا بترحيل أكثر من ستين ألف فلاح فلسطيني! هل يرضى الرب عن هذا؟

- في سبيل تهويد أرضنا هذه الأمور لا تُهم.

- أنا لا أبني حُلمي على خداع.. لقد اتخذت قراري بالذهاب إلى مصر.

- مصر! مصر التي اسُتعبد فيها أجدادنا حتى أخرجنا منها موسى بالمعجزات؟! هل نسيت ما ورثناه أبًا عن جد من روايات قاسية؟

- الآن يعيش فيها اليهود في سلام، وأنا كل ما أريده أن أحيا حياة كريمة بعيدًا عن هذا الشقاء.

قال له حاييم بغضب:

- سوف تندم يا داوود.. تذكَّر هذا. سوف تندم.

اقتربا من الخيمة فنظر حاييم في فخر لرجال تحمل البنادق مُتأهبة ترتدي زِيًّا عسكريًّا فقال:

- انظر.. هؤلاء الحرس «الهاشومير» يحرسوننا.. لقد جاءا من اليمن، الآن نبدأ لم الشمل من جميع بقاع العالم، قل لي.. هل يوجد حرس لليهود في مصر؟

بدا داوود مُنهمكًا يستمع في اهتمام ولا تبدو عليه علامات رضا أو غضب، حتى بلغا خيمتهما فدخلا يحضران لتناول الطعام ثم النوم، ليبدآ رحلتهما من جديد في زراعة الأرض في صباح اليوم التالي.. تمتم داوود بصوت هامس:

- ادعوا الرب أن يجتمع شمل الشتات.

***

كُنت أستمع لحديث جدي وأريده أن يُنهي القصة كلها في جلسة واحدة، فقاطعته في شغف:

- وهل اجتمع الشتات حقًّا كما تمنى داوود؟

- صبرًا، فللقصة بقية، في عام ١٩١١ م تظاهر حاييم مع اليهود للاعتراف باللغة العبرية في ظل هيمنة الدولة العثمانية، ومع ضعف العرب آنذاك إلا أنهم كانوا مُدركين تمامًا المعنى الحقيقي للصهيونية.

- أريد أن أعرف معناها.

- هي ببساطة «حركة عنصرية تبحث عن رأس مال لاستعمار أرض وتوظيف البُعد الديني لجعلها وطنًا لمن تبقَّى من يهود العالم، لإنشاء هوية وكيان ومستقبل سياسي»، وهي التي يؤمن بها حاييم شقيق داوود، هذا الإدراك والوعي تمثَّل عندما أصدر الصيدلاني

«نجيب نصار» صحيفة «الكرمل» في حيفا، ليحذر الفلسطينيين والعرب من مطامع الصهيونية، وكان يؤكد فيها.. «الدولة اليهودية ستكون خنجرًا سامًا في خاصرة العرب».

سأل جلال:

- وهل نشر نصار هذا الوعي؟

- كانت «الكرمل» صحيفةً صغيرةً يعمل فيها «نصار» مع زوجته «ساذج نصار»، لكن العثمانيين لم يتركوه لينشر هذا الوعي، ولم يسلم من قمعهم، فلاحقوه وسجنوه وحاربوه.

سألته وذكريات العدوان تتداعى أمامي وقد تلاشت طفولتي من جديد:

- لماذا كل هذا الظلم يا جدي؟

- مهما فعلنا ستظل بعض أسئلة العمر بلا أجوبة.

- هذا العالم قبيح لا يستحق كل هذه الأحلام.

- استكمالًا للقُبح قامت الحرب العالمية الأولى في ١٩١٤ التي أثرت تأثيرًا مباشرًا على مصر، وتركّز تفكير بريطانيا إلى موقع فلسطين وقُربها من قناة السويس في مصر.

اشتدت الشمس علينا فارتدى جدي طاقيته ونظر في ساعته واستند واقفًا على عصاه وقال:

- لا بُدَّ أنهم يبحثون عنا الآن.. هيَّا إلى البيت نُكمل القصة لاحقًا.

***

١٩٦٣

المطر ينهمر بغزارة في طقسٍ شديد البرودة، أصوات الرعد الممزوجة بأنوار البرق المُتقطعة تُحدِث في نفسي رغبة وشغفًا لاكتشاف كل ما لا أعرفه، أنا وجلال على موعد مع جدي لنُكمل قصته، لكن جلال لم يأتِ بعد وجدي لم يترك البلكون في انتظاره، صنعت مشروبنا الشتوي المفضل، وفي طريقي من المطبخ إلى البلكون لمحت شيئًا يجري فجأة ثم اختفى، وكأنه طيف، وقفت لبرهة أدقق النظر فلم أجد شيئًا، هممت أن أمشي ثانية فرأيته يجري ويختفي في لمح البصر مرة أخرى، تجمدت مكاني.. وضعت المشروب جانبًا، كانت هذه الرؤى قد توقفت لشهور عدة، حسبت أنني ارتحت بغيابها أو أنه كان مرضَ تهيؤات واختفى.

لكنها ها هي تعود من جديد، قد أكون استثنائية كما تقول مبروكة لأمي، لكنني سئمت من رؤية أشخاص لا أعرفهم ولا أعلم ماهيتهم.

هنا عاد الطيف يجري أمامي مرة أخرى.. ظننت أنه توارى خلف أحد الكراسي، تجوَّل بصري في صالة الاستقبال سريعًا، لم أجد شيئًا، لكنني مُتأكدة أنني رأيته يجري، قررت أن أتجاهله وأمسكت

بمشروب جدي لأذهب إليه، لكنني لمحت شيئًا يلمع في الأرض، حدقت النظر فوجدت وراء كرسي حذاء طفل صغير يلمع!

شهقت وتراجعت للوراء خطوة.. فسمعت صوت ضحكات طفل! ثم بدأت تظهر من خلف الكرسي أصابع يده الصغيرة.. ثم أظهرَ نفسه شيئًا فشيئًا، طفلٌ وسيمٌ يبدو في الخامسة من عمره! لكنه يرتدي الزِّيِ المدرسي الخاص بمدرستي في هذا السن! الجاكت الكحلي والقميص الأبيض.. ربطة العنق الحمراء والسروال الرمادي القصير وحذاءً أسود.

وضعت مشروب جدي ولم أشعر أنني خائفة.. ربما لكونه طفلًا.. لا أدري حقًّا، حدقت فيه بفضول فنظر إليَّ في براءة وضحك ثم جرى مرة أخرى!

أخذت أجري وراءه.. لكنه كان قد اختفى. صرت أبحث عنه فلم أجده.. فجأة سمعت قهقهته، يُهيأ إليَّ أنه كان فرِحًا لأنني لم أجده! كأنه يلاعبني! مَن هذا الطفل وماذا يريد؟ لا بُدَّ أن أعرف.. ظللت أبحث عنه ولا أسمع إلا صوت ضحكاته فتوقفت عن البحث وعقدت ذراعي وقلت:

– مَن أنت؟

ضحكَ الطفل وسمعت صوت قدميه يجري إلى مكان بعيد.

– إذا ظهرت أعدك أنني سألعب معك.

توقف الطفل عن الضحك، وجالت عيني في كل الأركان لأراه دون جدوى، بدأت أبحث عنه بتمعن شديد، إلى أن خطر

ببالي أنه من صُنع خيالي، وفجأة شعرت بشيء بارد يدق على ظهري أفلتت مني صرخة وارتجفت للحظات ثم استدرت في بطء وتخشُّب من الرعب.. وجدت الطفل أمامي يبتسم، لم أصدق كونه طيبًا أبدًا، لأن من رأيتهم جميعًا أبدوا انزعاجًا من وجودي، فما قصة هذا الطفل؟ استجمعت شجاعتي وقلت:

- مرحبًا.. مَن أنت؟

حدق الطفل في ذهول وقال:

- مَن أنا؟ أنا صاحب البيت.. مَن أنت؟ إن هيئتك غريبة قليلًا؟

صدمتني إجابته ولم أعرف ماذا أقول، وكأن لساني تلجم فأكمل هو:

- تقول أمي لا يجب أن نثق بالغرباء هنا لكنها دومًا تأتي بهم إلى البيت!

ظللت أنظر إلى الطفل ومددت يدي لألمسه فبدأ يتلاشى وهو ما زال يبتسم.

أفاقتني ضربات الرعد المُتلاحقة، ورأيت جدي في البلكون وهو يرتجف قليلًا من شدة البرودة،إلتفت إلى الطفل فلم أجده! بحثت عنه جيدًا ولكن لم أعثر على أي لأثر له! حملت مشروب جدي ودخلت البلكون.. توسلت إليه قائلة:

- لتترك البلكون يا جدي أرجوك..

ابتسم جدي للبخار المتصاعد من مشروب الكاكاو وقال:

- مشروب ساخن في توقيت قياسي؟

انتابتني الدهشة لظني أنني تأخرت ولم يعد المشروب ساخنًا فسألته:

- حقًّا يا جدي؟ لم أتأخر؟

- لم تستغرقي خمس دقائق في صنعه.. من تأخَّر حقًّا عن ميعاده هو جلال، ترى أين ذهب..

ثم نظر من البلكون يتفقده وبعد دقيقة صاح:

- أخيرًا ها هو.. هناك.. انظري، يتفادى حُفَر المياه بنطات بهلوانية.

لوح لنا جلال من الأسفل ضاحكًا فقلت:

- حسنًا.. لننتظره في الداخل يا جدي أرجوك.

- أريد مشروب الكاكاو الساخن قبل أي شيء.

صعد جلال بعد قليل وجلسنا حوله في غرفتنا وجدي يرمق نظرات الشغف في أعيننا ويسألنا:

- أين توقفنا؟

ردَّ جلال:

- عند قيام الحرب العالمية الأولى.. لكني أريد أن أعرف مصير الأخوين حاييم وداوود عزرا.

ربت جدي على كتف جلال وقال:

- داوود لم ترُقه معيشة التقشف في المستوطنات اليهودية، شعر أن الأمر سيلزمه الكثير من السنوات لكي تصبح فلسطين وطنًا لليهود، ناهيك عن أنه لم يؤمن بداخله بضرورة إقامة هذا الوطن من الأساس،

كان يريد أن يعيش في سلام، وفي رفاهية أيضًا، أراد أن يتزوج وينجب الأبناء في حياة طبيعية بعيدًا عن الحروب، ترك الحلم اليهودي وجاء إلى مصر في عام ١٩١١، وكان اليهود في مصر يعيشون في سلام كما كان يعلم جميع العالم، عمل في كل ما يعمل فيه الأجانب في هذه الفترة، إلى أن استقر كصبي في محل صاغة وأثبت كفاءته.

سألت جدي:

- وما الذي حدثَ لحاييم؟

- حاييم كانت عقيدته تملي عليه ألا يترك فلسطين أبدًا، وأنها الأرض المقدسة له ولقومه.. فظل مكانه في المستوطنات يجتهد في عمله، ينشئ الكثير من العلاقات ويتدرج في الأعمال.. ويستخدمه قادة الصهيونية.

نعود إلى الحرب العالمية الأولى.. اتجه تفكير بريطانيا إلى موقع فلسطين وقُربها من قناة السويس في مصر، فكان لا بُدَّ من التخطيط لضعف المنطقة حول فلسطين بأكملها ليضمنوا سيطرتهم الكاملة عليها دون خوف.

وفي عام عام ١٩١٥ م قُدِّمت مذكِّرة سرية إلى مجلس وزراء بريطانيا بعنوان «مستقبل فلسطين»، كتبها أول وزير صهيوني يهودي يصل إلى منصب وزير بريطاني «هيربرت صموائيل»، جاء في الوثيقة:

«الوقت الحاضر ليس مناسب لإنشاء دولة يهودية مستقلة، لذا يجب أن توضع فلسطين بعد الحرب تحت السيطرة البريطانية، لتعطي تسهيلات للمنظمات اليهودية لشراء الأراضي، وإقامة

المستعمرات وتنظيم الهجرة، وعلينا أن نزرع بين المحمديين ثلاثة إلى أربعة ملايين يهودي أوروبي»..

سأل جلال جدي متعجبًا:

- كيف علمت يا جدي بأمر هذه الوثيقة؟

- هذه شؤون خاصة يا جلال.. بعدين تعرف.

قلت لجدي:

- أكمل.. وماذا حدث بعد هذه التوصية؟

- بناء على ذلك تم الأخذ بتوصية «صموائيل» المقترحة في عام ١٩١٦ م والتي جمعت بين بريطانيا وفرنسا لتقسيم سوريا الكبرى، وعُرفت الوثيقة باسم مهندسيها، البريطاني «مارك سايكس» والفرنسي «جورج بيكو»، ووضعت الاتفاقية «سايكس بيكو» فلسطين تحت سيادة مشتركة للحلفاء، لإعدادها للدولة اليهودية.

كان سايكس صديقًا مقرَّبًا إلى «حاييم وايزمان» وقد أوضحت المراسلات بينهم دعم سايكس للحركة الصهيونية العالمية، كما تزوج «حاييم عزرا» من مهاجرة فلاحة من شرق أوروبا.

سأل جلال وهو يفكر:

- وماذا فعلت بريطانيا يا جدي؟

- في نوفمبر ١٩١٧ م وافق مجلس الوزراء البريطاني برئاسة «ديفيد جورج» بإصدار وعد بريطاني بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، كتب الوعد على صيغة رسالة وزير الخارجية «آرثر بلفور» إلى اللورد الصهيوني «ليونيل والتر روتشيلد» بعد أن شارك في

تعديله وصياغته «حاييم وايزمان» والذي كان يلعب شخص اللوبي الصهيوني، أما «حاييم عزرا» فقد أنجب «ليفي حاييم عزرا» في نفس السنة، وقد بات يعمل مع القيادات الآن بعد أن أمضى سبع سنوات يتنقل بين كثير من المهام، وبعد أن قدم نصائحه لبعض مساعدي القادة، والتي كانت مُلفتة لشدة إيمانه بقيام كيان إسرائيل.

وفي النهاية احتفل في لندن كلٌّ من روتشيلد وصموائيل وسايكس ومن ورائهم جميعًا حاييم وايزمان، بالإنجاز الصهيوني.

– سنة عجيبة.. هل هناك أحداث أخرى في هذه السنة؟

– احتل الجيش البريطاني بقيادة الجنرال «إدموند ألنبي» القدس في ديسمبر ١٩١٧، دخل مع الجيش فيلق يهودي تم تدريبه وتوجيهه على يد وزير المستعمرات البريطاني «وينستون تشرشل»، كان أحد أعضاء هذا الفيلق «ديفيد بنجوريون»، كان معه أيضًا «زي إيف جابوتنسيكي» و «إدوارد صموائيل» ابن «هيربرت صموائيل» و«نحميا رابين» والد «إسحق رابين».

قلت له:

– وانتهى العام على ذلك؟

– نعم يا حياة.

– إذًا نبدأ العام ١٩١٨ الآن..

– بل نخلد للنوم لأن الوقت قد تأخر بالفعل.. لا تتعجلا السنوات، ستريان العجب فيما تبقى.

* * *

١٩٦٤

وسط أجواء احتفالية وتكبيرات عيد الأضحى، أمسك أبي بساطور كبير وأخذ يختبر حدته، واقترب من أذُن العجل كأنه يحدِّثه، هدأ العجل ورضخ دون حركة أخرى فسمعت أبي يردد في صوتٍ عالٍ:

- بسم الله.. الله أكبر.

وشعرت بدوار وأنا أقف في البلكون بجوار جدي فأغمضت عيني ورجعت خطوات للخلف فقال جدي:

- اجلسي يا حياة.. لقد علَّمتك مغزى الأضحية منذ زمن.. صار عمرك أربعة عشر عامًا.

- لا أتحمل مُشاهدة الدم.

- تقصدين دم شهداء عدوان ٥٦؟

كلماته جعلتني أتذكر العدوان وما رأيته فيه، هل نسيت أم تناسيت كل ما حدثَ حقًّا؟ وهل يمكن أن ينسى أحدٌ؟

انتهى الجميع من توزيع لحم الأضاحي، وجاء كل من أخواتي مع زوجها فازدحم البيت عن آخره، ومن المطبخ ظهرت رائحة اللحم واختلطت بكثير من الروائح الشهية، وجلس أبي مع

جدي والسيد شاذلي في البلكون، أما إخوتي قد جلسوا مع جلال بجلاليبهم البيضاء التي لا توحي إلا بالفرح، أحب العيد وأحب لمته. حقًّا.

انسحب جدي من بين التجمعات وأشار إليَّ وجلال، فتبعناه إلى غرفتنا وجلس يُكمل قصته التي بدأها، قال جلال:

- والله يا جدي كُنت أنتظر نداءك..

- نجلس لوقت قصير قبل الغداء.. أتذكر أننا في العام ١٩١٨.. حقًا الوقت أغلى ما نملك.

- مضبوط يا جدي.. لتكمل لنا ما الذي حدث مع حايم عزرا.

- بل أحكي لكم ما الذي حدث لأخيه داوود.. أنسيتم أنه جاء إلى مصر في ١٩١١.. واشتغل بالصاغة

رددت على جدي

- بالفعل لقد نسينا مع الأحداث.. تري ماذا جري له يا جدي؟

- تزوج داوود عزرا في ١٩١٨ من فتاة يهودية ولدت بمصر لأبوين من جنسيات مختلفة، بعد أن أسس علاقات جيدة في المجتمع آنذاك، لم يكن وقتها بالأمر العسير على يهودي لأنهم كانوا في نسيج المجتمع، الفتاة كانت ابنة صاحب محل الصاغة الذي يعمل به، أحبته الفتاة وشعر والدها أن داوود سيكون له شأن كبير في التجارة لشغفه بها، تمت خطبة سريعة اطمأن أهل العروس له

فكان الزواج سريعًا أيضًا واعتمد داوود على نفسه لكن حماه كان قد أمن لابنته سكنًا يليق بها حتى يدبر داوود أمره.

- ثم ماذا؟ ما الذي حدث له؟

- ثم نعود للقدس أولًا يا جلال.

قالها جدي وهو يبتسم.. كان يعلم أننا نموت شوقًا لإكمال الحكاية في جلسة واحدة.. لكنه كان يتعمد أن يلقِّنَّا كل شيء يعرفه كما كان يردد دومًا: «إنها الأمانة التي يجب أن تنقل إلينا».

تابع جدي قائلًا:

- لنعود للقدس.. في يناير ١٩١٨ م استقبل الجنرال «ألنبي» في القدس صديقه الحميم «حاييم وايزمان»، واحتفى به وسط الجنود المحتلة أشد احتفاء، كان عدد اليهود في فلسطين حوالي خمسين ألف مقابل نصف مليون عربي، أي شكَّل اليهود نسبة أقل من عُشر السكان.

أردفت قائلة:

- نسبة لا تُذكَر.

- كانت.. فمع انتهاء الحرب العالمية الأولى وأثناء الإعداد لمؤتمر السلام في باريس، أرسل الرئيس الأمريكي «ويلسون» لجنة برئاسة الدكتور «هنري كينج» والسياسي «تشارلز كرين» إلى الشرق الأوسط لدراسة الوضع، وقدما تقريرًا جاء فيه:

«إذا أردنا تطبيق مبادئ العدالة الأمريكية، فإن أماني الشعب الفلسطيني هي التي يجب أن تقرر مستقبل فلسطين، لأن تسعة

أعشار أعداد السكان يعارضون مشروع الصهيونية، وهذا شعورٌ عامٌّ في جميع سوريا، لقد أكد كل مسؤول بريطاني قابلناه أن مشروع الصهيونية لا يمكن تنفيذه إلا بقوة السلاح، وأن هناك حاجة إلى ما لا يقل عن خمسين ألف جندي، للبدء بتنفيذ هذا البرنامج، وهذا بحد ذاته دليل على ظلم برنامج الصهوينية للشعب الفلسطيني، ولذلك نوصي بالتخلي عن جعل فلسطين كومنويلث يهودية».

قال جلال في سكون:

– وبالطبع لم يجد تقرير «كينج كرين» آذانًا صاغية.

– بالطبع؛ ففي يناير ١٩١٩ شارك في مؤتمر السلام عن بريطانيا «ديفيد لوي جورج» و «آرثر بلفور» وترأس الوفد الصهيوني «حاييم وايزمان»؛ ليعرض خريطة توضح مساحة الوطن القومي لليهود، وكانت تشمل فلسطين وغور شرق الأردن، وغرب لبنان وصولًا إلى صيدا وصور وكذلك القنيطرة السورية، بحدود تسير بمحاذاة خط سكك الحديد الحجازية.

– ماذا فعلوا في هذا المؤتمر؟

– في المؤتمر أحاط كل من «النبي» و »ديفيد لوي جورج» بالأمير «فيصل بن الحسين»، ووقَّع «وايزمان» مع «فيصل» اتفاقية عرفت باسم «فيصل وايزمان»، لكن مهندسها الحقيقي كان الكولونيل البريطاني «توماس إدوارد لورانس» والذي كان معروفًا بـ «لورانس العرب».

وقع «فيصل» لكنه تحفظ بخطه شخصيًّا على الاتفاقية «لن تتم

الاتفاقية إلا إذا نال العرب استقلالهم».

تغيرت ملامح جدي وابتسم وهو يقول:

- ولا ينسى التاريخ ردود أفعال شعب بورسعيد الباسلة في ١٩١٩ عندما علموا أن اللورد «ألنبي» سيمر من خلال ميناء بورسعيد إلى القدس.. يا لها من مدينة عظيمة.

- ماذا فعلوا؟

- تقول الرواية الشعبية إنهم انتظروا مرور سفينته وكانوا قد جهزوا دميةً كبيرةً من القماش على هيئته وعليها اسمه وطافوا بها في شوارع بورسعيد في موكب مهيب، على سبيل التجريس ذهبوا بها للميناء على هذه الحالة وأحرقوها أمام عينه ورآها أثناء مروره وكانت تزامنًا مع ليلة شم النسيم.. وأصبحت تقليدًا وكرنفالًا شعبيًا إلى الآن رفضًا للظلم والطغيان.

- هل هناك أحداث أخرى في هذه السنة العجيبة؟

- أسست الحركة الصهيونية مركزًا استخباريًّا لها، وبدأوا في جمع معلومات سياسية عن الرأي العام، وهل سيوافق الفلسطينيون على المشروع الصهيوني أم لا، أين الأراضي الخالية وهل يمكن بيعها لليهود أم لا؟ معلومات عن مقاومة الشعب لهم في مستعمراتهم وهجومهم عليها.

- ولا تنسَ ثورة ١٩١٩ المصرية يا جدي..

ضحك جدي قائلًا:

- مَن يستطيع النسيان! لقد وُلدَ والدك يا حياة يوم الثورة

وكنت حائرًا هل أترك زوجتي تلد أول أبنائي وأنضم للمسيرات التي ظلت تهتف «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» أم أتركهم لأستقبل أول أبنائي في حضني.. وقد غلبت الأبوة حينها.

مرت لحظات ونحن نفكر ماذا نفعل لو كنا بموقفه، لكنه قاطعنا:

- تذكرون حاييم وداوود عزرا؟

- طبعًا يا جدي.

- في ١٩١٩ أنجب داوود ابنه «هارون» هنا في مصر، وفي ١٩٢٠ عُين «حاييم عزرا» من بين مساعدين «إدموند روتشيلد» بعدما اشتهر بإخلاصه وتفانيه لقيام الدولة الصهيونية، كما عُين أول حاكم بريطاني لفلسطين، ووقع اختيار الحكومة لمنصب المندوب السامي البريطاني على اليهودي الصهيوني «هربرت صموئيل»، وجاء صموئيل ليطبق ما اقترحه قبل خمسة أعوام وهو تهيئة فلسطين لتكون دولة يهودية.

قال جلال:

- هؤلاء الصهاينة لا ينسون ما يخططون له أبدًا..

- أنت مُحق في هذا، كان صموئيل صديقًا لألنبي، وأظهرت مراسلاتهما تفاهمًا كاملًا بينهما، وكانت المادة الثانية من بنود صك الانتداب والذي وافقت عليه الأمم حينذاك تنص على «تكليف بريطانيا بوضع البلاد في حالة سياسية وإدارية واقتصادية تسمح بإنشاء الوطن القومي اليهودي».

منذ اللحظة الأولى اعتبر صموائيل اللغة العبرية لغة رسمية بجانب الإنجليزية والعربية، وأضاف إلى كلمة «فلسطين» بالعبرية ألفًا وياء كرمز «ارتس يسرائيل» أي «أرض إسرائيل».

– وبالطبع لا بُدَّ من عمل شيء هنا.. إنهم لا يُقدِمون على خطوة بلا هدف..

– مُحِقٌ للمرة الثانية يا جلال.. وُضِعَ ما يزيد عن مائة قانون يسمح لليهود بتسريب الأراضي إليهم، وهو من جعل لليهود نظام تعليمي منفصل عن نظام الحكومة الفلسطينية، وأنشأ لليهود نواة وزارة الطاقة لعمل محطات كهرباء، ووزارة أشغال، ووزارة مياه خاصة بهم فقط، والأهم أنه جعل لهم جيشًا منفصلًا.

خرجت عن صمتي الطويل فقلت:

– بداية منظمة، ولولا رعاية بريطانيا للصهيونية منذ البداية ما كان اليهود ليفعلوا كل ذلك بمفردهم.. يا للأسى...

***

يناير ١٩٦٥

ملأت الزينة والأنوار الملونة والورود الحارة والعمارة وسطحها، على السطح تشدو صباح على صوت ميكرفون «أنا هنا هنا يا بن الحلال.. لا عايزة جاه ولا كُتر مال»، يدخل صوتها كل البيوت رغمًا عن سكانها.

ارتديت فستاني الأزرق ووقفت عند الدرج أراقب حركة الكثير من العمال وهم يحملون الكراسي والأنوار الملونة لتجهيز السطح، استعدادات كثيرة لعُرس عايدة ومحاسن الليلة، دخلت المطبخ أشرب كوبًا من الماء فسمعت أبي وأمي يتحدثان، بدا أبي مرتاحًا لفكرة زواج إخوتي في ليلة واحدة، كذلك أمي التي قالت له وهي تزفر نفسًا طويلة:

- الحمد لله.. خلصنا منهما في ليلة واحدة.. في أيامنا تزوجنا بأيسر الإمكانيات، الناس تصرخ هذه الأيام من جهاز عروس واحدة، لقد أعانك الله على تجهيز عروستين سويًا.. لذلك كان قرار الذبح في الحارة قرارًا سليمًا، الفدية تسد عين الحاسدين.

- الحمد لله على سُترة البنات، سوف أفتقدهما كثيرًا كما افتقدت بدر من قبلها.

- ونصر.. ألم تفتقد نصر؟ أم أنك تفتقد البنات فقط؟

- بالطبع أفتقده يا وداد، لكن هذا حال الدنيا.. يتزوج الأبناء.. ربما يسافرون، ويصير البيت خاليًا يفتقد لم شمل أصحابه.

- هذا حال الدنيا.. عقبال الباقي!

سألت نفسي هل يُعقل أن تقصدني وأنا مازلت في الخامسة عشرة؟ وهناء في السادسة عشرة فقط؟ على أي حال هي لا ترى للبنت مكانًا مُناسبًا إلا بيت زوجها.

ترك الجميع البيت وبقيت أساعد جدي في استعداده، بعد بُرهة سمعت زغاريد كثيرة بالخارج، فهرعت لأجد محاسن وعايدة تبدوان كالملائكة في ردائهما الأبيض الواسع، تمسكان بذراعي زوجيهما أثناء صعودهما إلى السطح، ووراءهما بدر وهناء تُمسكان بالشمع الأبيض الطويل المُشتعل في بهجة، كان لا بُدَّ أن أكون بجانبهما لولا أنني فؤجئت بوجود حاخامات كثيرة حولهم! الزغاريد لا تتوقف من الأقارب، وأمي ومبروكة لم تتوقفا عن رش الملح وقراءة القرآن والصلاة على النبي.

صعدت إلى السطح مع جدي وقد سبقنا الجميع، توالت أغاني صباح وحليم وفايزة أحمد، نظرت إليهما في الكوشة وبدأت أتخيل البيت بدونهما، لن يكون البيت عامرًا بعدهما كما قال أبي، وسأكون وهناء تحت مراقبة أمي الصارمة بلا شك.

جلس جميع إخوتي وكذلك جلال أيضًا إلى منضدة واحدة، قام أبي واستقبل عائلة يوسف موردخاي وزوجته يونا، مع ابنهما الوحيد دانيال وزوجته حتى أجلسهم، حضر الكثير من الأقارب

واخترقت فرقة السمسمية المُبهجة الأجواء وصاروا يشدون بصوت عذب:

«أول دخولنا الجنينة»..

لطالما تجمع الموسيقى الغرباء وتقرِّبهم من بعض. وكانت أمي تُراقب هناء مُنفرجة الأسارير، ثم تصطنع أنها لا تراها، مضت السمسمية ومضى الوقت لطيفًا ساحرًا، لا صوت سوى ضحكات مُتقطعة وأغانٍ، الكثير من المُجاملات ولم أحصِ كلمة «عقبالك يا حياة». مع اقتراب نهاية الليلة تجولت في المكان وجلبت الشربات لجدي وجلست بجانبه، فقال لي:

- بالرغم من برودة الطقس إلا أنني أحمد الله أنها لم تُمطر.

- لم يخطر ببالي المطر.

- اسمعي.. اذهبي وأخبري جلال بعد نهاية السهرة ألا يتحرك من هنا.. سنجلس ثلاثتنا في هذا الجو الممتع قليلًا أكمل لكما شيئًا من القصة.

- لكن أمي لن تتركني.

- دعي وداد لي أنا.. هيًا اذهبي.

تقدمت من جلال في ثقة ولاحظت أنه يواري نظراته عني، كما لاحظت بريقًا مختلفًا في عينيه اليوم، هذه فقد كانت تلك هي أول مرة يراني مُتأنقة، أخبرته بأمر جدي هامسة فأومأ مُوافقًا سعيدًا، لم أرهب إخوتي لعلمهم مدى ترابط العائلتين، ومدى قربنا من بعضنا البعض كإخوة! لكن هل حقًا نحن كذلك؟

ذهبت لأودِّع محاسن وعايدة كأنني لن أراهما ثانية، وانطلقت السيارتان خارج الحارة، ووجدت جلال أمامي يعطيني منديله القماش الأبيض لأجفف دموعي متعجبًا.

- ما كل هذا البكاء؟

- لماذا علينا أن نرحل عن أهلنا.. لا أتخيل العيش بدونهما.

- لأنهما وجدا من يُكملان معهما حياتهما، الأجدر بكِ أن تفرحي لهما يا حياة، و...

- لا تقل عقبالك أرجوك.

ضحك جلال موضحًا.

- حسنًا لن أقول.. إنما أريدك أن تفرحي في وقت الفرح.. ثم إنني موجود هنا ولن أغادر.

نظرت إليه وكأنني أختبر شعوري إذا ما تزوج جلال غيري.. شردت عيناي فيه دون أن أشعر فقال:

- حياة.. هلا تتوقفي عن الشرود؟

- هل تريد أن تتزوج يا جلال؟

- بالتأكيد سيحدث.. لكن أمامي الكثير لأفعله.. وأمامك أنتِ أيضًا الكثير.

- ليس كثيرًا.. فأمي تنتظر هناء ثم ستركز معي.

- حسنًا.. أمامك بضع سنوات أخرى.. مَن يدري ماذا سيحدث فيهم؟

شعرت حينها أنني أريده في حياتي بأي شكل ولا أستطيع

فراقه، نظر إلى فوق وقال:

- انظري.. جدك ينتظرنا.. هيَّا لنصعد.

- هيَّا بنا.

في مدخل العمارة أوقفني ونظر في عيني قائلًا:

- قبل أن نصعد عليَّ أن أقول إنك تبدين اليوم كالملائكة..

ابتسمت وخفق قلبي كما لم يخفق من قبل فأكمل:

- لو أعلم أن كلماتي ستجعلك تبتسمين عوضًا عن البكاء لفعلت.

اتسعت ابتسامتي أكثر وصعدنا. عندما وصلنا كان الجميع قد اختفى والعمال ينقلون كل شيء للأسفل، كان جدي ينتظرنا وحيدًا قلقًا وقد حجز مقعدين لنا، احتضنته فقال جلال:

- كانت تبكي كثيرًا وأتعبتني لكي تكف عن البكاء.

أخذ جدي رأسي في يديه ونظر في عيني وقال:

- تغيُّر الحال هو الشيء الوحيد الثابت في الحياة، عليكِ أن تتقبلي التغيير وتقفي صامدة في وجه كل ما يقلقك.

أومأت له بالموافقة وقبَّلت رأسه وجلست أمامه فجلس جلال بجانبي، يظن أنه ينظر لي دون أن يراه جدي، تلمع عيناه على ضوء القمر الذي يراقبنا جميعًا في هذه الليلة الفريدة، أردف جدي:

- سأسرد لكما سريعًا بعض السنوات في تاريخ الصهيونية. وصلنا إلى العام ١٩٢١ الآن، مع استمرار الدعم والتحيز البريطاني لليهود واستمرار طرد الفلاحين الفلسطينين من الأراضي، نشأت

مجموعة من الثوار في المناطق الريفية، ونظموا مظاهرات حاشدة ضد هجرة الصهاينة، وكانت القيادة السياسية الفلسطينية تقليدية في ذلك الوقت، قائمة على توارث مناصب الزعماء، فتوارثها الأجيال جيلًا بعد جيل، وكان مفتي القدس السيد «أمين الحسيني» قد ورث هذا المنصب في عمر الخمس وعشرين عامًا، بعد وفاة أخيه كامل الذي خلف والده «طاهر الحسيني» مفتي القدس، وتوافدت هذه القيادة منذ أوائل العشرينيات في وفود إلى لندن لبحث القضية الفلسطينية، يرى بعض المؤرخين أن الحكومة الفلسطينية أرادت أن تحافظ على المساعدات البريطانية وفي نفس الوقت معاداة الحركة الصهيونية وكأنها تريد الصيف والشتاء معًا فكان الأمر مستحيلًا.

أردف جلال:

- الحاجة تذل يا جدي، والصهاينة مَن جعلوهم كذلك بعد أن استولوا على أراضيهم، ليجعلوهم مُحتاجين إليهم دائمًا.

- بالفعل يا بني، في سنة ١٩٢٥ لعبت بريطانيا لعبةً خبيثةً جديدةً، فجاء تقرير حكومتها إلى عصبة الأمم عن إنجازات الانتداب السامي البريطاني في فلسطين ليقول:

«تسهيل هجرة ثلاثة وثلاثين ألف وثماني مائة وواحد يهودي، ومنحهم الجنسية الفلسطينية، أي ثلاثة أضعاف أعداد العام السابق.

إنشاء ثلاث عشرة مستوطنة يهودية جديدة، تنظيم الهستدروت كنقابة للعمال اليهود تحت إدارة «ديفيد بنجوريون».

منح البلدة «تل أبيب» استقلالًا محليًّا، الافتتاح الرسمي للجامعة العبرية بحضور الجنرال «ألنبي» والحاكم «صموائيل» وضيف الشرف «آرثر بلفور» ورئيس المنظمة الصهيونية العالمية «حاييم وايزمان».

وحَلَّ بلفور ضيفًا على وايزمان وزار عددًا من المستوطنات اليهودية، واجتمع مع ألنبي في القدس لتحديد الخطوة القادمة في الخطة الصهيونية.

لم أتخيل موقف أهل البلد من كل هذا القهر فسألت جدي:

- وماذا فعل الفلسطينيون المقهورون حيال كل ذلك؟

- أضرب الفسلطينيون ورفعوا الأعلام السوداء، ووصفوا زيارة بلفور بالزيارة المشؤومة، وكتبوا في جريدة الشورى وكانت جريدة سياسية:

«إلى اللورد بلفور

لماذا جئت إلى بلادي؟

هل جئت لترى البؤس والشقاء الحالين بقومي بواسطتك؟

هل جئت لتشاهد إفناء فلسطين التي هي من ضحايا تصريحك؟

هل جئت لتتحقق ما إذا كان خراب بلادي قد تحقق؟

هل جئت لتعجل لبلادي الكارثة التي هي نتيجة مجمعة لوعدك؟

هل جئت لتتفرج على رومية تحترق؟»

- وماذا كان رد بريطانيا؟

- كرمت «صموئيل» على ما حققه من مرحلة أولى في تأسيس الوطن القومي اليهودي، بل إنها عرضت فيلمًا وثائقيًّا موجهًا للناطقين باللغة الفرنسية، يستعرض إنجازات الحركة الصهيونية، ويرسم الخريطة باسم إسرائيل بدلًا من فلسطين، وكذلك تستعرض خطتها للخمس وعشرين سنة القادمة.

قلت لجدي:

- لا أصدق كل هذا الجبروت.

- عليكِ أن تصدقي لأن السنوات القادمة تحمل الأسوأ.. ففي عام ١٩٢٩ نظمت الوكالة اليهودية تجمُّعًا صهيونيًّا للصلاة عند حائط البراق، للمطالبة بإعادة بناء الهيكل، على أثر ذلك قامت ثورة شعبية سُميت بـ «ثورة البُراق»، أطلقها فلاح فلسطيني يدعي «فرحان السعدي» من قرية «المزار»، وأصدر المندوب البريطاني «جون روبرت تشانسلر» منشورًا شديد اللهجة يقول فيه «إنه سيوقع القصاص الصارم لكل من اشترك في الثورة»، فاعتقل السعدي ومَن معه «محمد جمجوم» و«عطا أحمد الزير» وسجنهم في سجن القلعة بعكا.

- وهل حوكموا بالفعل؟

- في ١٧ يونيو ١٩٣٠ تم تنفيذ حكم الإعدام على السعدي ومن معه من قبل الحكومة البريطانية، ورفضت مطالبات الدول العربية بتخفيف الحكم عنهم، ولا زالت قبورهم تشهد على

الواقعة تاركين خلفهم رسالة تقول: «نتمنى ألا يُعفى عنا.. لعلَّ في إعدامنا حياة للأمة.. رسالة إلى كل ملوك وأمراء العرب والمسلمين في أنحاء المعمورة ألا يثقوا بالأجانب، وباسم العرب نحيا وباسم العرب نموت».

قال جلال بغيظ شديد:

– كيف يحدث هذا وعدد العرب يفوق عدد الصهاينة آنذاك؟

– في ١٩٣١ وصلَ عددُ اليهود إلى مائة وخمسة وسبعين ألف، حينها إحتفل قادة الصهاينة وداعموها في نيويورك وخطبَ فيهم «ستيفن وايز» وهو أمريكي صهيوني متعصب.. »جئت اليوم لأسئلكم أصدقائي اليهود الصهاينة، عن الموقف الذي ستتخذه من بين المواقف المتاحة أمامنا.. أود أن أقول لإنجلترا برغم أنني يهودي أمريكي لكنني معجب ببريطانيا العظمى أشد الإعجاب، سأقول لإنجلترا إن وجود فلسطين عربية هو تهديد لبريطانيا العظمى وخطر على العالم، لكن وجود فلسطين يهودية هو مكسب لبريطانيا العظمى وبَركة للعالم».

– لعنَ الله الصهاينة في كل العالم.

– ولم ينسَ زعماء الصهاينة في لندن أن يقيموا حفل عشاء للحركة الصهيونية، وكان «ديفيد لويد جورج» رئيس وزراء بريطانيا يدعم نقل ملكية فلسطين إلى الصهيونية فخطب فيهم قائلًا: «كما ذكركم رئيسكم فقد مرت ست عشرة سنة منذ أن جندني في الحركة الصهيونية، تحولت فلسطين من مستنقعات

قاحلة موبوءة بالملاريا إلى مستعمرات مزدهرة، زرعت التربة بعد أن كانت المياه تضيع سدى منذ بدء الخليقة».

قال جلال:

- بالطبع ما هي إلا كذبة لأن فلسطين بالأساس أرض خصبة.

- طبعًا يا بني لم تكن إلا كذبة كبيرة صدرها الصهاينة للغرب، لأن فلسطين كانت مليئة بخيرات الله وثروتها الزراعية بفضل فلاحيها طاهري الأيادي.

- هذا التاريخ يجعل النوم عسيرًا على يا جدي.

- الأسوأ حدث بعدها، في عام ١٩٣٣ تصاعدت المظاهرات والاحتجاجات الشعبية في فلسطين، وشاركت النساء مع الرجال، خرج أمامهم الجنود البريطانيون بالآلاف، فسقط من المتظاهرين العديد من الجرحى والشهداء، حتى «موسى كاظم الحسيني» رئيس بلدية القدس سابقًا ضربه الجنود البريطانيون وهو في الثمانين من عمره وتوفي متأثرًا بجراحه، وفي ٢٩ أكتوبر في نفس السنة كتب الشرطي الفلسطيني «محسن توفيق» يحتج على رئيسه الضابط البريطاني «جورج فارادي» الذي أطلق خمس وعشرين رصاصة في اتجاه المتظاهرين الفلسطينين في يافا، ووجَّه عدة احتجاجات ضده.

قلت في سرِّي: «لا عجب، فلا بُدَّ للظم من أيد شيطانية لتعينه.. وهذه الأيادي واضح أنها كانت موجودة في كل مكان».

هنا صاح جدي وكأنه قد تذكَّر شيئًا هامًا:

- على قولك يا حياة.. لا يفوتني ذِكر داوود عزرا هنا..

فبعد مساعدة أهل زوجته استطاع أن يدبر أمر سكنه وقد تحسنت أحواله المادية كثيرًا، لكنه لم يكن نزيهًا في ذلك، صحيح أنه لم يكن يحلم بنجاح الصهيونية كأخيه حاييم، لكنه كحال اليهود في ذلك الوقت، امتلك المال الكافي ليقرضه بالربا للمُتعثرين، وفي حال عدم سدادهم في الأوقات المحددة يساومهم على أملاكهم، فقد أحبَّ داوود المال أكثر من أي شيء في الحياة.

اشتدت الرياح فجأة وانهمر المطر بشكل مخيف.. شعرت وكأنه يطردنا من سطح العمارة، حينها ابتسم جدي قائلًا:

- لقد مرَّ الوقت سريعًا كعادته.. تذكرا دائمًا أن الوقت أغلى ما نملك.

أسند جلال جدي سريعًا لنختفي من زخات المطر المفاجئة، نظر جدي إلى السماء مُبتسمًا وتمتم بأدعية لم نسمعها.

***

ديسمبر ١٩٦٥

في صباح يوم الجمعة التفَّ الجميع حول الهاتف الأسود في صالة الاستقبال، أبي يُمسكه ويستمع في ضيق ولا يُعلق، اقتربت أمي منه وقالت بصوت مُرتعش:

- ماذا حدث لنصر؟ هل تتحدث إليه؟ لماذا لا تجيب؟

ضم أبي أصابع يده وهزها إشارة لكي تصبر.. ثم قال غاضبًا:

- لماذا لم نعرف قبل أن يحدث أي شيء؟ لم تنفع تربيتي.. خسارة.

وضعت أمي كفيها على وجهها الذي اجتاحته حُمرة القلق وقالت:

- أريد أن أتحدث مع ابني يا أحمد.. ماذا حدث؟

أعطاها أبي سماعة الهاتف ودخل البلكون، بينما نصر ما زال يتحدث بصوتٍ عالٍ مسموع غير مفهوم.. قبضت أمي على السماعة في لهفة وقالت مُنفعلة:

- كيف حالك يا نصر؟ ماذا بك يا حبيبي؟

صمتت أمي لبرهة صغيرة وقد تبدل القلق إلى اندهاش، نظرت إلى أبي الذي أخرج سيجارة من جيبه وأشعلها في ضيق، فقالت في صوت خافت:

- مَن تكون؟؟ خديجة.. يا ألف نهار أبيض يا حبيبي.. لكن الأصول يا نصر كانت تقتضي علمنا قبل زواجك وليس بعده.. لا لا ليس حرامًا لكنك كسرت بخاطر أبيك.

باغتتنا المفاجأة! لا بُدَّ أن أبي غضبان.. كانت أمي تستمع في اهتمام وتتابع أبي في وقت واحد، ثم قالت:

- حسنًا سأجعله يهدأ، هو في البلكون، كان يريد أن يقول لك إن توأمك صابر خطب «آمال» بنت خالك «السيد».. الله يبارك لك يا حبيبي.. نعم.. غضبت هانم لأنه لم يخطب ابنتها، طبعًا صابر تتمناه كل عائلات بورسعيد.

للحظات نسيت أمي كل شيء، وتذكرت عمتي هانم التي غضبت من خطبة صابر، كانت أمي تدرك أن مكالمة نصر لا بُدَّ أن تكون سريعة لارتفاع سعرها عليه.. أسرعت تحاول إنهاء المكالمة.

هز جدي رأسه في أسف وقام مع عصام يلحق بأبي في البلكون، بينما لاحت علامات الضيق على صابر، وجلست محاسن تحمل ابنها ذاهلة، وجلست وهناء نتخيل شكل العروس لأننا نتذكرها في صغرنا قبل أن تهاجر عائلتها، لا بُدَّ أن نصر كان يخطط لكل هذا من قبل دون أن يعلم أحد، فأكملت أمي بصوتها المصدوم:

- لكنك لا بُدَّ أن تكرر مكالماتك هذه الأيام حتى يرضى عنك، وفي أقرب وقت تحضر وزوجتك، أريد أن أراك وقد طالت غربتك، يا نصر نخاف أن نموت دون رؤيتك يا حبيبي.. حاضر.. حاضر.. سيدنا محمد رسول الله.

أغلقت أمي الهاتف ساهمة وجلست تبكي.

أتى الجميع من البلكون فلم تشعر بهم والتففنا حولها نهون عليها ما تشعر به.

- كنت أحب أن أزفه مثللكم جميعًا، هاجر ابني صغيرًا وترك البلد لشدة يأسه منها، لعن الله الاحتلال والإنجليز واليهود والحروب والأطماع، أوحشني نصر كثيرًا.

قال جدي:

- هوني على نفسك يا وداد.. التمسي له العذر، الحمد لله الذي حصَّن نفسه في الغربة واختار امرأة مثل خديجة تصونه وتهون مرارتها عليه.

جففت أمي دموعها وهي تقول:

- حمدًا لله.. خديجة بنت أصل ومتدينة لكن كان لا بُدَّ من إعلامنا مُسبقًا، يُصعب على الأب أن يشعر بتجاهل أبنائه له في الأمور المصيرية مثل الزواج، لقد أخطأ نصر.. لكني لا أريد أن أقسو عليه مع الغربة.

- حصل خير يا وداد.. قومي وصلي لله ركعتين شكر، نصر لم يعد طفلًا ويعلم ما يفعله، ثم إن ابنك يعيش بعيدًا عن الحروب وما نقاسيه هنا، بل إنه يعيش حياة أفضل منا جميعًا الآن.. اشكري الله على سلامة أولادك وادعي له بدوام هذه النعمة الكبيرة.

- حاضر يا عمي.. اللهم لك الحمد.

- هيًّا يا بنات، لتستعددن لسبوع الحفيد اليوم.

اجتمعت العائلة والأقارب والأصحاب وعائلة جلال، لم يكن السبوع مُبهجًا كما توقعناه، كانت الطقوس روتينية بعض الشيء، تحايلنا على الفرحة مرات عديدة لكنها أبت أن تستجيب، وطغى الحديث عن زواج نصر على أي حدث آخر، حتى انقضي الوقت سريعًا أو هكذا شاء الجميع ليختلوا بأنفسهم. وبعد أن غادر كُلٌّ إلى بيته وآوى أبي وأمي إلى غرفتهما، لم يتبقَّ إلا أنا وجدي وحيدين في البلكون.

اتكأ جدي إلى عصاه ورأيت عينيه تتأملان بقعة غريبة على الأرض.. فقطعت صمته:

- أتظن يا جدي أن نصر على صواب؟

قال وكأنه قد توقع سؤالي مُسبقًا:

- اسمعي يا حياة، نحن نعيش كلَّ يومٍ بين الصواب والخطأ والكثير منهم نسبي، جميعنا لدينا خياراتنا في الحياة ولدينا ما نندم عليه وما نخفيه، لا أحد عليه أن يملينا ما علينا فعله في الحقيقة، لكن علينا تحمل تبعات أفعالنا، وهذا يعتمد على مدى قوتك وصلابتك في مواجهة الحياة.

حاولت أن أفهم ما يقول لكنه أكمل:

- علينا ألا نختتم هذا اليوم الثقيل الظل هكذا، اذهبي وأحضري جلال.. أريد أن أجلس معكما.

قفزت من مكاني فرحة وأسرعت وأنا أقول:

- حالًا.

ذهبت لشقة جلال مسرعة.. وصلت في ثوانٍ وطرقت الباب.. فتحت لي السيدة أنيسة فغلب على الخجل وأنا أسألها:

- هل نام جلال؟

قالت سائلة:

- خير يا حياة؟

ارتبكت جدًّا لم أدرِ ما حل بي.. قلت في تعلعثم:

- جدي.. إمم جدي يطلبه الآن..

ابتسمت هي في حنان وبدت كأنها تقرأني، وقبل أن تتفوه بكلمة كان جلال وراءها يصيح:

- أنا قادم يا حياة.. لا تُغلقي الباب سأجيء معك، بعد إذنك يا أمي.

ثم مشينا صامتين.. سألني جلال عمّا بي فخجلت ولم أدرِ ماذا أقول.. الحقيقة أنه لم يوجد شيء ليقال.. يبدو أنني أكبر بعض المواضيع الوهمية في رأسي.. وصلنا إلى جدي وجلسنا سويًّا.. شعرت بفرحة جلال في صحبتي، كأننا نلتقي اليوم لأول مرة، نظر جدي إلينا وقال مكملًا وكأنه كان يحكي منذ دقائق:

- توفي البارون «إدموند روتشيلد» الداعم الأساسي للصهيونية في نوفمبر ١٩٣٤، لكن حاييم ظل مُساندًا للصهيونية يعمل مع عائلة «روتشيلد».

قال جلال:

- الشيطان الكبير.

- اليوم ترقد رفات البارون روتشيلد في ضريح قرب حيفا، وقد أصبح مزارًا يحرص الصهاينة على زيارته وتعليم أبنائهم أنه أول من دعمَ إسرائيل قبل أكثر من مائة عام، وليس منذ العام ١٩٤٨ كما حُفر في عقولنا.

نظر لنا جدي فلم نسأله عن شيء أو نعقب فقال سائلًا جلال وكأنه يختبره:

- إلى أي عام وصلنا يا جلال في المرة الأخيرة.

ردَّ جلال بتحفز دون تفكير:

- عام ١٩٣٥.

ابتسم جدي وربت على كتفه وقال موجهًا حديثه إلى جلال رغم أنه كان ينظر إليَّ:

- أملي فيك يكبر يومًا بعد يوم يا جلال.. حسنًا لنتابع.

وصلنا لسنة فاصلة وهي ١٩٣٥، تسلحت المستعمرات اليهودية في فلسطين وبدأوا في مهاجمة الفلسطينيين العزل، وبناء عليه قامت مظاهرات هنا في مصر ضد الكيان الصهيوني وضد منظمته، ثم انتقل الشعور ذاته نحو اليهود في مصر عمومًا لكنه لم يكن قويًّا.. وفي نفس السنة وصل المندوب السامي البريطاني «مايلز لامسون» إلى مصر وبقي حتى ١٩٤٥.

لم يكن لدينا أسئلة فاستطرد جدي..

- في أبريل ١٩٣٦ بدأت اللجنة العربية العليا الإضراب العام في يافا، وقال المتحدث الرسمي باسمها «إن الشكوى الرئيسية لدى العرب هي ضد سياسة الحكومة البريطانية في فلسطين، فهي سياسة

إذا ما استمرت فحتمًا ستؤدي إلى إحلال اليهود محل العرب، وخلافًا لكل المبادئ فقد فرضت الحكومة البريطانية تصريح بلفور الذي يمقته جميع العرب في الشرق الأدنى، وبتفضيلها تأسيس وطن قومي لليهود تناست بقصد حماية الحقوق الوطنية للسكان غير اليهود، لقد قرر العرب القيام بإضراب عام وشامل حتى تتوقف هجرة اليهود وحتى تجري الحكومة تغيرًا جوهريًا في سياستها الحالية».

سألت جدي:

- وهل نجحوا بعمل هذا الإضراب بالفعل؟

- نعم.. التزم جميع الفلسطينين بالإضراب الذي أربك البريطانيين، والذين كان انتدابهم يتحيز لليهود في كل شيء ويقوم بتيسير أمورهم على حساب الفلسطينيين، كان إضرابا استمر لستة أشهر متواصلة وهز الانتداب البريطاني، وفي ٢٧ يوليو ١٩٣٦م اتُخذت إجراءات صارمة باعتقال كل من يشتبه فيه بعلاقته بالثوار، وقاموا بتفجير منازلهم، ووصل عدد المنازل إلى أكثر من مائتين منزل في يافا، ثم تلتها مدن وقرى أخرى، وأصرت بريطانيا أن تفجير المنازل هو عمل مبرَّر للقضاء على الثورة، استشهد وأصيب فيه مئات الفلسطينين البواسل.

- عقلي لا يصدق كل هذا الظلم والطغيان!

- ظلم أكثر من هذا بدأ يحدث، خاف الصهاينة من تكرار الأمر، فاقترح بنجورين على المندوب السامي البريطاني «آرثر جاكوب» إمكانية تسكين الفلاحين الفلسطينيين الذين تم طردهم من أراضي المستعمرات اليهودية في شرق الأردن، فأجاب المندوب البريطاني أنها فكرة جيدة.

سأل جلال:

- ماذا فعل العرب حينها؟

- أشفق الحكام العرب على الشعب الفلسطيني، فنصحوهم بفك الإضراب وإعطاء فُرصة لبريطانيا لإثبات «حُسن نواياها».. وفي ١٩٣٧ قامت لجنة بتقسيم فلسطين دون الإعلان عنه، وكرمت الحكومة البريطانية الضابط «فارادي» هذا الذي قتل عددًا من المتظاهرين العزل من قبل، بل ومنحته وسام الشرطة الملكي مع الإشادة بدوره في فلسطين! وعلى الصعيد الاقتصادي تصدرت المصانع اليهودية إنتاج القطن والألماس في فلسطين.

قال جلال في غضب:

- سوف يأتي يوم الانتقام بلا ريب.

لكنه استدرك شيئًا فسأل جدي:

- وكيف عرفت يا جدي أنهم لم يعلنوا تقسيم فلسطين إذا لم يعلنوه فعلًا؟

صمت جدي قليلًا وأحسست أنه لا يريد أن يجيب الآن فقال، وكأنه يبتعد عن السؤال:

- لقد أنهكني الحكي كثيرًا.. وأنتما تريدان أن تعرفا كل التفاصيل المرهقة في نفس الجلسة.. أريد أن أشرب المُغات.

فهمنا أنه يريد أن ينهي الجلسة الآن رغم قصرها فقلت:

- سآتيك بكوب كبير يا جدي.

* * *

استيقظت صباحًا وكان هدوء لا أعتاده يخيم على البيت، تذكرت أنهم جميعًا بالخارج، فتثاءبت كثيرًا أملًا في استكمال نومي، لكن خيوط أشعة الشمس المُتناثرة الهاربة من تحت الستائر كانت تعلن عن وضوح النهار، وتحثني على النهوض، قررت أن أتجاهلها وأغفو قليلًا، لكن دقات جرس الباب والطَّرق المستمر عليه كانا لهما رأيٌ آخر، وتذكرت تعليمات أمي لأستكمل الأعمال المنزلية، فقُمت على مضض قبل عودتها من السوق.

وقفت أترنح لا أفهم شيئًا، ربما لأن نومي كان مُتقطعًا مُفعمًا بالكوابيس والأشخاص الغريبة، طَرقُ الباب والجرس لم ينقطعا.

- حاضر.. حاضر.

فتحت الباب فوجدت صبيًّا صغيرًا يبدو شقيًا يحمل الكثير من الخضروات والفاكهة وقال:

- الست أم صابر أرسلت هذه.

ألقى ما معه على الأرض وهرول على الدرج قبل أن أنطق بكلمة، فأدخلتها المطبخ وأغلقت الباب، أنا فقط أريد أن أستفيق، وأصلي لأبدأ يومي، وما إن اقتربت من الحمَّام حتى عاد الطرق مرة أخرى.. لا بُدَّ أن أبي قد أرسل السمك، ذهبت لأجيب الطارق وأنا ما زلت أتثاءب.. فتحت الباب وأنا أقول مُسبقًا:

- شكرًا.. ضع كل الأشياء هنا.

لكني لم أجد أحدًا.. فتحت عيني بصعوبة، فلم يكن هنالك أحد.. هذا الطفل الشقي يتسلى.. يا إلهي، أغلقت الباب وقبل أن

أصل لُمنتصف غرفة الاستقبال رن الجرس في إلحاح! زاد الطَّرق وتوالى في حدة! لقد أفاقني هذا الطفل اللعين.. لو أمسكت به سأحبسه هنا حتى تعود أمي.. صحت في حدة:

- سألقنك درسًا قاسيًا.

فتحت الباب بسرعة فلم أجد أحدًا! لا يوجد أحد، مشيت عند الدرج.. لا يوجد أحد! لن يستطيع أحد هبوط الدرج في هذا الوقت السريع بين طرق الباب وفتحه! هل يختبئ؟ قد يكون لصًا؟ أيكون أحد أفراد عائلة موردخاي؟! لكن لماذا؟ لم يحدث أمر مماثل من قبل!

دخلت بسرعة وأغلقت الباب، وقفت بجانبه لدقائق أنتظر تكرار الأمر فلم يحدث شيء.

جلست لدقائق أخرى ولا شيء، لن أنتظر تكرار هذه السخافة طيلة اليوم، لا بُدَّ من تنفيذ تعليمات أمي، قُمت مُسرعة إلى الحمَّام وعندها.. رن الجرس رنة واحدة طويلة، الطفل اللعين لم يُزح إصبعه عن الجرس، والطرق أصبح عنيفًا بالنسبة لطفل صغير!

رجعت على أطراف أصابعي وتورايت بجانب شراعة الباب الزجاجية، كي لا يرى الطفل خيالي فيهرب، رأيت ظلًّا خلف الزجاج! هذا ليس ظِل طفل! الساعة اللعينة تدق مرتين، الطَّرق يزداد حتى خشيت أن يتلف الجرس.. انتظرت لحظات وفتحت بسرعة شديدة لأفاجأ.. توقفت الأصوات ولم أجد أحدًا! عندها دب الخوف في قلبي ولم أجرؤ على استكشاف الدرج ثانية، أغلقت

الباب ثم أحكمت الترباس جيدًا.

بسملت وتوجهت إلى الحَمّام وأنا أتساءل: «أيدق الجرس من نفسه كل هذا؟»، وفي طريقي لمحت كتلة ضبابية غريبة متكومة عند آخر الطرقة، كتلة سوداء لم تتشكل بعد!

دب الرعب في قلبي.. وأخذت نفسي تساورني بالأسئلة المرعبة.. هل هذه الكتلة مَن طرق الباب!؟ إذا كانت هذه الكتلة أحد الزائرين فإني أتمنى رغم خوفي أن أعرف سبب زيارتها.

مشيت نحوها في ظلام محبوس تحت ستائر البيت ينتظر أن يُفرَج عنه، اقتربت فتجسدت رؤيتها تدريجيًا، بعد قليل رأيت طفل المدرسة الذي جاء من قبل.. تحرك ووجدته يجلس على أحد المقاعد.. ثم أخذ يبكي بحرقة! هذه المرة أخافني بشكل شديد، رغم خوفي اقتربت منه في توجس.. شعر بي اقترب فالتفت فجأة.. والتفت إليَّ وعيناه تملأهما الدموع، أشفقت عليه وقلت في نبرة مرتعشة:

- أنت..!؟ هل أنت...

وخانني الكلام فحاولت أن أجمعه بصعوبه وتابعت:

- هل أنت من طرقت الباب؟ لماذا تبكي يا... لم أعرف اسمك.. ما اسمك؟

جفف الطفل دموعه ونظر إلى الأرض قليلًا ثم قال:

- تقول أمي إنني سأترك كل شيء هنا.

- تترك كل شيء!

- سننتقل إلى مكان أكثر أمنًا.

- ومَن هي أمك؟ هل هي معك الآن؟

بدأ خوفي منه ينقشع فأخرج الطفل صورة من جيبه.. نظرت للصور وقلت:

- هل هذه عائلتك؟

أومأ بالإيجاب، حدقت في الصورة فوجدت الرجل الذي رأيته في سطح العمارة من قبل، رأيته مع امرأة وبينهما رضيع! سألته مندهشة:

- والداك؟

- أجدادي وأبي..

ثم أخرج صورة أخرى لرجل وامرأة.. وهذا الطفل العجيب في المنتصف! إنه الرجل الذي رأيته عندما رأيت عملية الولادة في غرفة أبي! فقلت وقد بدأت أرتعش ثانية:

- لا بُدَّ أنهما والداك..

أومأ الطفل بالإيجاب وتبدلت ملامحه فجأة إلى كيان شيطاني مهيب! ابتعدت عنه صارخة ورجعت إلى الخلف وما زلت أنظر إليه، بدا غاضبًا جدًّا وهو يقترب مني على قدر ابتعادي، أخذ يردد غاضبًا:

- أنا لا أحبك.. لا أحبكم.

فزعت وأخذت أصرخ طويلًا.. ثم بدأت أذكِّر نفسي أنه طيف سيزول، وأنه كل ما أراه ليس حقيقيًّا، هذه كوابيس يقظتي..

ثم تذكرت نصائح أمي إذا ما رأيت أطيافًا غريبة.. أغمضت عيني وقلت بصوت عالٍ:

- «ربِّ أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون».

ثم نظرت إليه.. توقف فجأة وتشنجت أطرافه ثم تبدلت بشرته إلى الزُرقة وامتلأت عيناه بالسواد! وبدا عليه أنه يُصارع شيئًا لا أراه.. فرددت:

- الله أكبر.. الله أكبر.

أمسك برقبته وبدأ ينظر إلى أعلى وكأنه لا يستطيع أن يتنفس.. خشيت أن يموت في البيت! في حين أني لا أدري هل هو من الأحياء بالأساس؟ أما ماذا؟.. تسمرت مكاني أنظر إليه وهو يرتجف وينظر إلى الأعلى في حنق.. مرت لحظات طويلة صعبة ومريرة، إلى أن رأيت الأسوأ...

مال برأسه إلى الأمام وتقيأ شيئًا أحمر لزجًا رائحته مقززة! وتلاشت الكتلة كما تشكلت أول مرة!

نظرت حولي أتفحص المكان.. لا وجود له! بحثت في باقي الشقة مُندهشة فلم أجد شيئًا.. حمدت الله أنه ذهب، لكني رجعت إلى هذا السائل العفن وكنت خائفة أن أقترب منه.. أعلم أنني حتمًا سأنظفه لا محالة، فتحت ستائر الشقة وبكيت بشدة بعد أن غمر النور وجهي.. جففت دموعي غير مصدقة ما حدث.

بعد دقائق رنَّ جرس الباب وسمعت طَرْقًا عنيفًا، لن أفتح

فأنا لم أتمالك أعصابي بعد، استمر الطَّرق وأنا جالسة أنتظر ماذا سيحدث؟ ربما في تحدٍّ وشجاعة الآن.. ثم سمعت صوتًا وكأن أحدًا يريد أن يفتح الباب من الخارج! اقتربت من الشراعة الزجاجية فوجدت ظلًّا كبيرًا.. بل ظلين!

هرولتُ من حيث أتيت وسبقَتْني دموعي، شعرت حينها بالغربة في بيتي ودعوت الله بالنجاة، ثم سمعت صوتَ أمي وهناء بالخارج.. تسمرت مكاني والفرحة والشك يسريان فيَّ كمجرى الدم، مشيت إلى الباب في تأنٍّ وأخذت أستمع إلى الصوت بالخارج:

- ربما نائمة يا أمي.

- لقد أوشك أذان الظهر.

فتحت الباب بسرعة ورأيت أمي وهناء فقالت هناء:

- صحي النوم.

دخلتا لكن أمي تفحصتني قائلة:

- ألم تستيقظي بعد؟ وما هذه الرائحة العفنة! لم تكن موجودة في الصباح! هل أتممت أعمال البيت؟

أومأت بالنفي وأسرعت إلى مكان السائل الأحمر فلم أجد له أثرًا! لكن الرائحة لا تزال موجودة!

***

١٩٦٦

أنهى جدي صلاة الضحى وجلس يسبح وينتظر جلال في البلكون، الجميع في أعمالهم وأمي مُنهمكة في طهي الكثير من الأطعمة في المطبخ، فأخواتي وأزواجهن جميعًا سيأتون لحضور عاشوراء كطقس مقدس، رنَّ جرس الباب وجاء صوت أمي المُعتاد من حيث تكون:

- الباب يا حياة.

- حاضر حاضر.

لم أفتح شراعة الباب لأعلم مَن بالخارج.. كنت أعلم مُسبقًا أنه جلال، وقفت لحظات خلف الباب أسوي هندامي وأصلح خصلات شعري وأقرص وجنتي ليزدادا احمرارًا، استقمت وفتحت الباب وكأنني لا أنتظره، لكني وجدت السيدة يونا زوجة جارنا السيد يوسف موردخاي تحمل طبقًا كبيرًا وتبتسم لي.

- سعيدة يا حياة.. الست وداد موجودة؟

- سعيدة يا أبلة.. تفضلي.

صوت أمي يجلجل:

- مين يا حياة؟

أبلغت أمي بوجودها فعقدت حاجبيها وخلعت مريلة المطبخ

وخرجت في استقبالها مُرحِّبة:

- يا أهلًا وسهلًا يا ست يونا.. تفضلي.. خطوة عزيزة.

ابتسمت السيدة «يونا» ومدَّت يدها إلى أمي تسلم عليها وتعطيها الطبق قائلة:

- تسلمين يا ست وداد.

نظرت أمي إلى ما أحضرته وظهرت عليها المفاجأة أو الخجل، أخذت منها الطبق وقالت:

- ليس له لزوم التعب أبدًا.

- لا يوجد بيننا تعب يا ست وداد، هذا يوم مقدس.

ذهبت ابتسامة أمي وحدقت في وجهها وسألتها:

- أتحتفلون في يوم عاشوراء؟

- ونصومه أيضًا. فقد نجا الله فيه نبيه «موسى» من فرعون.

ساد الصمت في ظِل اندهاش أمي فأرادت السيدة أن تغير مجرى الحديث:

- حقيقة أنا في شدة الحرج لأنني لم أبارك زواج صابر وخطبة هناء؟

- مباركتك وصلت يا حبيبتي. لقد أخذ صابر شقة شاؤل، والله لقد كان فرح صابر محدودًا للغاية، لم يشأ وزوجته آمال أن يقيما حفلًا كبيرًا.. القهوة يا حياة.

- لا داعي للقهوة، زوجي يوسف على وصول.. كل عام وأنتم طيبون.. لا بُدَّ أن أذهب الآن وسوف أبارك لهناء في زيارة

ثانية.. سلامي إلى صابر وزوجته.

- يصل سلامك لكن هذا لا يصح.. الشاي يا حياة.

- لا والله يا ست وداد.. سامحيني هذه المرة.. فقد تركت الطعام على النار كما أن دانيال ابني وزوجته هنا لمشاركتنا اليوم.

- حسنًا.. هذه المرة لن تُحسب.. لكني سأنتظرك قريبًا.

- بالمشيئة يا ست وداد.

كان سلوك أمي مُحيِّرا لي، ولم أعلم هل تقبل أمي وجود اليهود أم تكن لهم كراهية دفينة؟ وكيف تعرف أن عائلة موردخاي ليست صهيونية؟

عادت أمي إلى المطبخ ورنَّ جرس الباب ففتحته شاردة، كان جلال هذه المرة فلم أحييه كما أردت أول مرة فقال باسمًا:

- سعيدة.

- أهلًا جلال.. جدي ينتظرنا بالداخل.

دخلنا عليه وقد لاحظ جدي ما بدا عليَّ من شرود، فلم أتمهل حتى أسأله لاحقًا:

- كانت السيدة يونا عندنا منذ قليل.

- علمت.

- هل سمعت حديث أمي معها؟

- نعم.

- لم أعهد على أمي النفاق أبدًا.

- لم تنافق أمك يا حياة، السيدة يونا من أرقى سيدات الحارة

وعائلتها على خلق، كما أنها وزوجها عاشا ثلثي عمرهما في مصر، دانيال ابنها ولد بمصر وكذلك زوجته، ماذا تريدين من أمك أن تفعل؟ تضربها مثلًا؟

– يا جدي لا أعلم، لقد احترت.. لا أفهم شيئًا.. بعد كل ما تسرده علينا.

قال جلال:

– أنا أيضًا في حيرة يا جدي.

ترك جدي سبحته وقال في هدوء..

– سأردد ثانية.. أتتذكران قصة سيدنا موسى وسيدنا هارون؟ أتتذكران القِلة المؤمنة من بني إسرائيل؟

– لكن..

– هذا هو حالنا اليوم أيضًا، فلا ينبغي لنا أن نأخذ الصالح مع الطالح، هذه ليست سماحة الإسلام.. وعائلة موردخاي جيران لم يؤذوا أحدًا قَطّ،، أنا أصدق أن منهم من يستحق الاحترام، وإن كانت قلة عددهم تمنعنا رؤيتهم.

ساد الصمت والتفكر فيما يقول فأردف:

– حسنًا.. ستفهمون في نهاية الحكاية.. لنعود إلى عام ١٩٣٦ ودعوني أريكم المشهد في مصر من زاوية أخرى، في أبريل ١٩٣٦ توفِي الملك فؤاد.. ملك مصر وسيد النوبة وكردفان ودارفور.. وكان ابنه فاروق آنذاك بعمر السادسة عشرة.. يدرس العلوم العسكرية في بريطانيا. وفي مايو ١٩٣٦ نُصب الملك فاروق

ملكًا على البلاد خلفًا لوالده، وفقًا لنظام توارث عرش المملكة المصرية في بيت «محمد علي» والذي وضعه الملك فؤاد بالتفاهم مع الإنجليز، ونظرًا لصغر سنه كانت له هيئة وصاية للعرش حتى يبلغ سن الرشد في الثامنة عشرة، وبناء عليه جاءت معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا التي كانت تحمل في عنوانها «استقلال مصر» إلا أنها كانت تحمل أنواع السيادة البريطانية على مصر والسودان، وهو ما اضطر وزارة النحّاس باشا للدخول في مفاوضات كثيرة غير مجدية مع بريطانيا، فاضطر النحاس باشا لإلغائها في عام ١٩٥٠ وليشتعل النضال في مصر من أجل الحرية مرة أخرى.

قال جلال:

- بريطانيا كالعادة.. أساس كل الشر في كل مرة!

- الدول العظمى تاريخها استعماري، أهدافها الحصول على خيرات العالم وليذهب الآخرون إلى الجحيم.

أردفت:

- يا لها من ثلاثينيات مليئة بالأحداث.

- أبت الثلاثينيات أن تترك العالم في سلام، فقد قامت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩.

قال جلال:

- أتمنى أن تأتي حقبة الأربعينيات بالخير.

- في مصر وفي بداية الأربعينيات كان الملك فاروق زعيمًا شعبيًّا.

أردف جلال مندهشًا:

- وكيف تقوم ثورة على زعيم شعبي؟

- لأن الشعب كان ضد الإنجليز من أجل الاستقلال والملك أيضًا.

- وماذا حدث؟

- كان الملك صغيرًا في السن والخبرة، واستغلت بريطانيا هذا جيدًا في جميع مصالحها، والدليل القريب على ذلك هو حصار القوات البريطانية للملك في «حادثة قصر عابدين» في عام ١٩٤٢ وإجباره على تشكيل حكومة زعيم حزب الوفد النحاس باشا أو يتنازل عن العرش.

- نعم يا جدي.. كانت أثناء الحرب العالمية الثانية وكانت القوات الألمانية بقيادة «رومل» في العلمين وكان الموقف العسكري خطيرًا على مصر.

- بالضبط يا جلال.. لذلك كان لا بُدَّ من تشكيل وزارة ترضى عنها غالبية الشعب وتحظى بتأييد الغالبية، وتكون حريصة على الولاء لمعاهدة ١٩٣٦ وتكون قادرة على تنفيذها.

- هذا يجعلني أتساءل: هل تواطئ النحاس باشا مع الإنجليز؟

- الأوضاع وقتها كانت تقتضي ضرورة أن تمسك العصا من المنتصف أحيانًا.. وهذا شيء يتنافى مع فكر الحرية.

أردفت في حيرة:

- وهل للملك فاروق من مواقف ضد الإنجليز أو الصهيونية يا جدي؟

- في الثامن والعشرين من مايو عام ١٩٤٦ عقد الملك فاروق قمة «مؤتمر أنشاص»، وهو الاجتماع الأول لملوك العرب وأمرائهم ورؤسائهم وحضره كل من مصر، الأردن، السعودية، اليمن، لبنان، العراق وسوريا.

- وماذا فعلوا؟

- لم يصدر عن مؤتمر القمة بيان ختامي، وإنما مجموعة من القرارات مثل مساعدة الشعوب العربية المستعمرة على نَيْلِ استقلالها، قضية فلسطين هي قلب القضايا القومية، باعتبارها قطرًا لا ينفصل عن باقي الأقطار العربية، ضرورة الوقوف أمام الصهيونية، باعتبارها خطرًا لا يداهم فلسطين وحسب وإنما جميع البلاد العربية والإسلامية.

دعا كذلك إلى وقف الهجرة اليهودية وقفًا تامًّا، ومنع تسرُّب الأراضي العربية إلى أيدي الصهاينة، والعمل على تحقيق استقلال فلسطين، واعتبار أي سياسة عدوانية موجهة ضد فلسطين تأخذ بها حكومتا أمريكا وبريطانيا هي سياسة عدوانية تجاه كافة دول الجامعة العربية، الدفاع عن كيان فلسطين في حالة الاعتداء عليه، مساعدة عرب فلسطين بالمال، وبكل الوسائل الممكنة، ضرورة حصول طرابلس الغرب على الاستقلال، العمل على إنهاض الشعوب العربية وترقية مستواها الثقافي والمادي، لتمكنها من مواجهة أي اعتداء صهيوني داهم. وقد كان هناك في مصر بالتوازي مع هذا تنظيمات مدنية سرية يشارك فيها بعض ضباط الجيش ضد

الإنجليز في الاربعينيات.

قال جلال وعلامات الدهشة تستحوذ عليه:

- لو أنهم فعلوا نصف ما جاء في مؤتمر أنشاص لكانت للعالم خريطة أخرى الآن.

- للتاريخ وجهات نظر مُغايرة دومًا.

- لكن ماذا حدث لليهود في مصر يا جدي؟

- في ١٩٤٧ بريطانيا أعلنت تقسيم فلسطين.

- التقسيم بمثابة خنجر في القلب لكل عربي.. لكن أين أولاد عزرا؟ حاييم وداوود؟

- في نفس السنة تزوج ليفي حاييم من فتاة لعائلة مرموقة وهو في عمر الثلاثين، وكان قد اشتهر بحبه للنساء وعزوفه عن الزواج، إلا أن إلحاح أبويه وجمال العروس جعلاه يفكر في الأمر حتى حدث.

- وهارون؟

- هارون كان مُسالمًا مُحبًا للمال كوالده داوود، فقد نشأ في ظروف مختلفة تمامًا عن والده، لم يذق فيها طعمَ الشقاء، فكان يعمل من أجل المال والمُتعة، وورث تجارة الذهب عن والده واشتغل بها، لكن أمر زواجه كان يشغل داوود كثيرًا ويبحث له عن عروسٍ مُناسِبة.

هنا سمعنا صوت بداخل الشقة وصاحت أمي:

- يا حياة.. حان أذان المغرب وإخوتك جميعًا هنا.. ساعدي

هناء في إعداد المائدة.

ابتسم جدي وقال:

- الحمد لله.. لأول مرة تنقذني وداد.. هيَّا يا حياة لتعدي الطعام بسرعة.. لقد أتعبني الحكي وجعلني أشعر بالجوع.

ثم داعب جلال ضاحكًا:

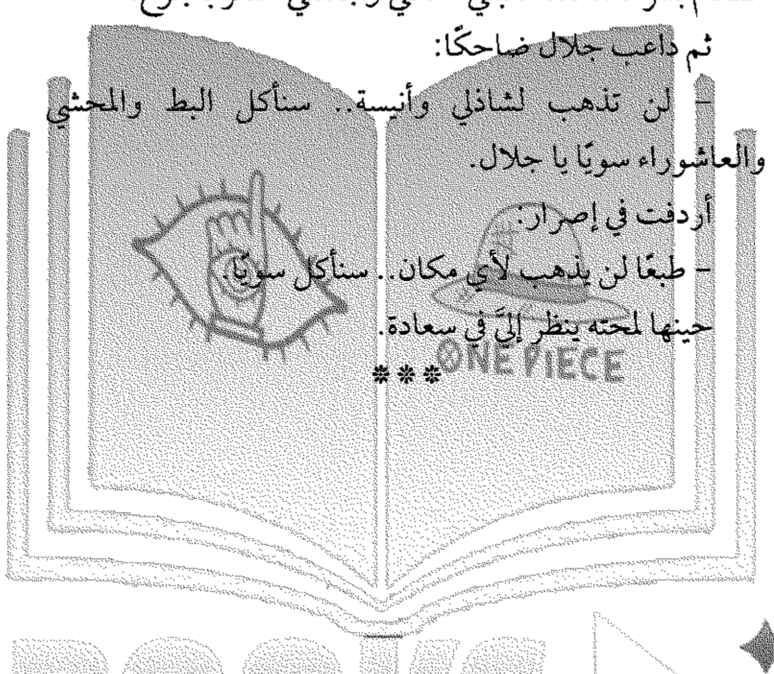
- لن تذهب لشاذلي وأنيسة.. سنأكل البط والمحشي والعاشوراء سويًا يا جلال.

أردفت في إصرار:

- طبعًا لن يذهب لأي مكان.. سنأكل سويًا.

حينها لمحته ينظر إليَّ في سعادة.

***



يناير ١٩٦٧

كان الجو شديد البرودة.. وبعد العشاء مباشرة جلس جلال في البلكون مع جدي أمام شوَّاية أشعلها الفحم لشواء «أبو فروة» الذي أحضره لجدي، لعلمه بحبه له وليساعدنا على تحمُّل برد يناير القارس، أصبح جلال رجلًا ناضجًا في السنة النهائية بكلية التجارة، لعلَّه يفاتح جدي بعد التخرج في أمر يفرحني.

نظر جلال إليَّ وعيناه تملأهما البهجة، مدَّ يده بطبق أبيض كبير من الصاج وقال:

- فلتساعديني قليلًا حتى أفرغ من شواء كل هذا ليُكمل جدي حكايته.. أم إنكِ متفرجة؟

- كيف أساعدك وكل ما تفعله هو وضع أبو فروة على النار وتركه ينضج؟

قال جدي:

- كُفَّا عن المجادلة الآن فالوقت يمر سريعًا..

قاطعته:

- أعز ما نملك:

- حقًّا.. سوف أبدأ الحكي أثناء الشواء، لم يتبقَّ الكثير حتى نصل إلى سنواتنا هذه.

أردفت:

- لقد عَلِمنا وتعلَّمنا الكثير عبر سنوات حكيك يا جدي.

تنهد جدي وقال:

- ومع ذلك لم أحكِ كل شيء ولن أستطيع، الكواليس بها أكثر والتاريخ لم يقل كل شيء، ونحن نكتشف أحداثًا لم يكشف عنها الغطاء منذ سنوات بعيدة، وسوف نرحل وتأتي أجيال جديدة تكتشف أشياء تحدث الآن لا نعلمها نحن.. هذا حال الدنيا..

قال جلال وما زال يشوي ما أمامه:

- فلتبدأ يا جدي الآن قبل أن يزداد الجو برودة.. ربما نأكل الكستن بالداخل لنتدفأ.

- بعد دعوة الملك فاروق لمؤتمر أنشاص وفي مايو ١٩٤٨ دخل الجيش المصري والسوري والأردني والعراقي واليمني والسوداني واللبناني بمتطوعيه فلسطين من أجل استردادها.

صاح جلال:

- لا أصدق.. حرب؟

- نعم، كانت أول حرب عربية متحدة ضد الصهاينة، لكنها غير محسوبة، فعدد جموع الجيوش العربية من أربعين لخمسة وأربعين ألف فقط وغير مدربين، في ذلك الوقت كانت جيوش محلية نظامية للأمن الداخلي وليست جيوش حروب، أما عدد الجيش الإسرائيلي فكان مائة ألف جندي مدرب، بالرغم أن تعدادهم وقتها كان لا يتجاوز ٤٠٠ ألف.

- كيف هذا؟

- لأنهم يتبعون التوراة.. أي يهودي يكون مُحاربًا، وكان عندهم خبرة الحرب.

- ومن أين جاءتهم الخبرة؟

- لأنهم أرسلوا لواء جيش حارب مع الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، فنقل خبرته للهاجناه اليهودية، بجانب قوى الاحتلال الإنجليزي في مصر، والفرنسي في الشعوب العربية، والتأييد الدولي لقيام الدولة اليهودية من قبل الدول العظمى، حتى إن الطيران الإنجليزي أسقط خمس طيارات مصرية في هذه الحرب.

- هذا العالم ظالم..

- إلى أقسى حدٍّ.. النظام اليهودي وقتها كان يدخل قرية فيذبح أكبر عددٍ من أهلها، فتخاف القرى المجاورة وترحل العائلات خوفًا على أبنائها من المذابح، أدى كل ذلك إلى هزيمة العرب في ١٩٤٨.

- تذكرت.. لقد سمعت أبي يقول إن الأسلحة كانت فاسدة.

- هذا ما تردد عند العامة، ولا نستطيع أن نُحمل الهزيمة إلى قضية الأسلحة الفاسدة لأنها كانت حالات فردية تم المبالغة فيها، الحقيقة أننا لم نكن مستعدين، فسيطرت الوكالة اليهودية على فلسطين وفجَّرت الهاجناه بيوتهم.

كنت أمسك بالطبق وجلال يضع قطع «أبو فروة» الناضج

من النار، لم ينتبه جلال فاحترق بعضه فقال جدي وهو يشير إلى الشواء:

- لا بُدَّ أن تحترس حتى لا يضيع تعبك ووقتك هباءً منثورًا، كان الشيطان «إسحق رابين» هو أحد مخططي ومنفذي عملية ترحيل الفلسطينيين التي نفَّذتها الحركة الصهيونية في القدس، فطرد وشرَّد خمس قرى على الساحل تحت أنظار الجنود البريطانيين بناء على تعليمات بنجوريون، بنهاية يولية كان قد طُردَ أكثر من ٤٠٠ ألف فلسطيني، ولا يفوتني أن ليفي وأباه حاييم عزرا المناصرين للصهيونية وإنشاء الوطن اليهودي، واللذين أصبحا من أعلام إسرائيل وقتها، لم يفتهما أن يشتركا مع رابين في هذا العمل الإرهابي، وأنجب ليفي في نفس السنة ابنًا أسماه إسحق تيمنًا بإسحق رابين.

- لعنهم الله جميعًا. لكن ماذا عن مصر يا جدي وماذا عن عائلة داوود عزرا؟

- تم إعلان الأحكام العُرفية في مصر، وبدأ البوليس السياسي بالقبض على اليهود والصهاينة تحت مسمى الطائفة الإسرائيلية في مصر، فكانت بداية فرار اليهود من مصر، وليس كل اليهود، أما هارون فقد اختار فتاة يهودية من أرقى اليهود بمصر في أواخر العام ١٩٤٨ وتزوجها بمباركة داوود وإشرافه.

نظرت إلى الطبق وقد امتلأ عن آخره ورياح يناير قد اشتدت علينا فقلت لهما:

- لا أريد أن آكله باردًا كما أن البرد قد بدأ يعلن عن وجوده،

هل لنا أن نُكمل بعد أن نأكله؟

قال جلال:

- نأكله ولا بُدَّ أن أنام لأسافر في الصباح الباكر إلى الكلية، ثم نكمل الجمعة القادمة في إجازتي يا جدي.. لكني أريد أن أعرف هل تبقت أحداث من فترة الأربعينيات؟

- مات داوود عزرا في هدوء في ١٩٤٩ بعمر السادسة والخمسين من عمره، أراد أويه حاييم أن يأخذ جثمانه ليدفن في فلسطين المحتلة، لكنه دفن في مصر حسب وصيته، وعاشت زوجته مع ابنهما هارون وزوجته بعد أن أنجبا «إسرائيل» في نفس العام، وبعد شهور قلائل لم تتجاوز مدة شهور الحمل المعروفة، الأمر الذي جعلها منبوذة في عين زوجة داوود.

- وماذا حدث بعدها؟

- سنكمل الحكاية قريبًا...

***



مارس ١٩٦٧

ارتديت فستانًا أحمر واسعًا يحدد خصري جيدًا، جعلني أبدو مثل وردة تفتحت، كانت العائلة بأكملها قد استعدت لزيارة أسرة جلال كعادة الأسرتين كل فترة، يتجمعان على الغداء أو العشاء بالتبادل، وقفت أمام المرآة أتفحص الفستان الذي صنعته لي والدة تهاني صديقتي، إنها حقًّا ماهرة، وفي إعجاب نظرت لي أمي وقالت:

- عروسة كالقمر يا حبيبتي.. الله يسعد صاحب النصيب.

جلست الأسرتان في منزل جلال بعد غداء فخم أعدته والدته بمساعدة مبروكة، مجتمعين حول التليفزيون يشاهدون فيلم «صغيرة على الحب» للممثلة «سعاد حسني» والممثل «رشدي أباظة»، يضحكون ويتحدثون في أمور شتى، كانت مبروكة تعد الشاي في المطبخ بينما طلبت أمي قهوتها منّي، وكنت أراقب جلال على استحياء خوفًا أن يلحظني أحد، ذهبت مبروكة بصينية الشاي الكبيرة وأنا أعد القهوة، وفجأة جاء جلال يقول:

- هل لي أن أطلب أيضًا قهوتي منكِ؟

نظرت له فوجدته يتفحصني في ودٍّ وشوقٍ شديدين، هل ما أشعر به حقيقي؟ قلت في جرأة:

- أنت تتبعني؟

دخل وبدأ يعد قهوته بنفسه وقال:

- غير صحيح.

نظرت له غاضبة فضحك واستطرد:

- حسنًا.. ولِمَ لا أتبعك؟

- ولماذا تتبعني؟

ابتسم وقال:

- ربما تعرفين لاحقًا..

- أتتبع بنات الكلية أيضًا؟

ضحك بشدة وقال:

- أنتِ تعلمين الحقيقة في قرارة نفسكِ.

تلاقت أعيننا للحظات أحسبهم خارج الزمن، تمنيت لو أن نكون بمفردنا فيبوح بكل شيء، ويكون هو صاحب النصيب الذي تقصده أمي، حاول أن يشتت ذهني فقال:

- أريدك أن تكوني أول من يعلم بشيء هام.

خفق قلبي ونجح في تشتيت ذهني بجدارة وتعلق بما سيقول..

ابتسم ابتسامة واسعة وأكمل:

- سوف أتطوع للخدمة في الجيش عقب تخرجي مباشرة.

- ماذا؟

صرخت كلمتي بما يضيق به صدري.. هذا التطوع سيزيد من انتظاري وأنا بالكاد أتحرق شوقًا ليوم تخرجه وخطبتنا.. لم أدرِ ماذا أقول لكنه فعل:

- أراكِ واجمة! حسبتك ستفخرين بي!

تلعثمت وباحت عيناي بحيرتي:

- أنا أفتخر بك في كل الأحوال.

اقترب قليلًا وثبَّت عيناه في عيني حتى شعرت أنه اخترق أفكاري كلها وقال:

- حياة.. أنا أريد أن أحيا حرًا.. أتزوج حرًا وأنجب أطفالًا أحرارًا.. هل تساعدينني؟

فارت قهوتي وارتبكت.. وسمعت صوت أمي ورائي:

- كل هذا الوقت من أجل قدح قهوة؟ هيًا اذهبي وسأعدُّه أنا.

خرجت من المطبخ أتعرق ولا أرى أحدًا من هذا الجمع، ذهبت إلى جدي في البلكون ووقفت أمامه أبتسم في بلاهة.. تفحصني جدي ونظر إلى الداخل فلم يجد جلال بين الجالسين فابتسم وقال:

- أين جلال؟

- يعد قهوته بالمطبخ.

- ولماذا لم تعدها مبروكة.. أو تعدها يدك المرتعشة هذه.

نظرت إلى يدي وأمسكتها فارتعش صوتي:

- كنت أعد قهوة أمي ووجدته.. أقصد ووجدني.

قاطعني جدي قائلًا:

- قولي لجلال إنني أريده، وعودي في ثوانٍ.

فعلت وأحضرت مبروكة الفاكهة والحلوى وجلست بينهم، بينما كنت مع جدي وجلال في البلكون. ابتسم جدي لجلال في دهاء وقال:

- أراك قد أحببت القهوة؟

تنحنح جلال خجلًا ونظر للأرض:

- نعم يا جدي.

نظر جدي إليَّ وضاقت عينيه فخجلت وقال لجلال:

- جميل... دَعْنَا منها الآن، سوف أطلعك على أسرار صنع القهوة لاحقًا وحدنا، الآن نكمل حكايتنا..

قال جلال وكأنه وجد مخرجًا للحرج:

- أرجوك يا جدي.

- وصلنا لفترة الخمسينيات، عندما كنتم أطفالًا صغارًا، الآن وقد كبرتم لتعرف شيئًا مما دار فيها، دعوني أبدأ بزوجة داوود التي لم يعجبها العيش في مصر بعد كل هذه الأحداث خاصة بعد موت داوود، فرحلت مع أهلها إلى فرنسا بعد أن رفض ابنها هارون ترك مصر في عام ١٩٥٠.

- وبدأت حقبة الخمسينيات بالثورة.

- نعم.. قامت الثورة المصرية في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقيادة الضباط الأحرار وخلعت الملك من الحكم، وتولى «محمد نجيب» الرئاسة، ووزع «عبد الناصر» الأراضي على الفلاحين في هذا العام، وأعيد ترتيب المشهد العالمي من جديد، فلم يعد هناك ملك يطيع

أوامر بريطانيا، بل رئيس شعبي خطط مع زملائه لثورة نجحت.

نظر جدي لنا فلم يجد أسئلة فأكمل:

- كانت سنة ١٩٥٤ مليئة بالأحداث، ففي يونيو شارفت المفاوضات المصرية البريطانية على الانتهاء، بشأن انسحاب القوات البريطانية من قناة السويس، الأمر الذي زاد من المخاوف الإسرائيلية بتمكين الجيش المصري من استخدام معسكرات ومطارات الجيش البريطاني المتروكة في شبه جزيرة سيناء وغيرها، ولهذا بحثت أجهزة المخابرات العسكرية الإسرائيلية إمكانيات عرقلة هذا الانسحاب من خلال تفعيل خلية إرهابية يهودية مصرية، للتخريب في مرافق بريطانية وأمريكية ومصالح غربية في مصر والإيعاز بأن هذه العمليات تمت من قبل خلية مصرية، وقد نجحت الخلية التي ضمت ١٣ يهودي صهيوني مصري من الإسكندرية، بتنفيذ عدة عمليات إلى أن قُبض عليها في يوليو ١٩٥٤ وتم تقديمهم للمحاكمة، وعلى الجانب الإسرائيلي كان صدي الفضيحة مدويًا نظرًا لنتائج فشلها على الصعيد السياسي والعسكري والاستخباراتي، ونتجت عنها أزمات سياسية بعيدة الأمد بين القيادات، وأدت لمطالبات داخلية بكشف المسؤولين عن هذه العملية وقائدها، سميت في مصر «فضيحة لافون» وفي إسرائيل «قضية العار».

- يا لها من سنة..

- تم توقيع اتفاقية الجلاء في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ بعد مفاوضات

مصرية بريطانية رافقتها مقاومة شعبية شرسة للقوات الإنجليزية بالقناة، وتم إجلاء البريطانيين بالكامل عن مصر في غضون شهرين من توقيع الإتفاقية، فيما بدت علاقة عبد الناصر مع الدول الغربية في تلك الفترة جيدة، خاصة مع موافقة البنك الدولي بدعم أمريكي بريطاني على منح مصر قرضًا لتمويل مشروع السد العالي، الذي كان يطمح به عبد الناصر أن يحقق طفرة زراعية وصناعية في البلاد. وفي تلك الفترة كانت المناوشات الحدودية مستمرة بشكل متقطع بين الدول العربية وإسرائيل منذ حرب ١٩٤٨، وأعلن عبد الناصر عداءه الصريح لإسرائيل، وضيَّق الخناق على سُفنِها في قناة السويس وخليج العقبة، فوجدت فيه مبررًا لتدعيم ترسانتها العسكرية عن طريق عقد صفقة أسلحة مع فرنسا، فقرَّر عبد الناصر طلبَ السلاح من الولايات المتحدة وبريطانيا، إلا أنهما ماطلا في التسليم ورفضاه في النهاية معلِّلين ذلك بوضع حدٍّ لسباق التسليح بالشرق الأوسط، لم يجد عبد الناصر بديلًا إلا أن يطلب السلاح من الاتحاد السوفيتي، وهو ما قابله الأخير بالترحيب لتدعيم موقفه بالمنطقة؛ فقررت كلٌّ من بريطانيا والولايات المتحدة الرد على الخطوة المصرية، بجانب رفض عبد الناصر الدخول في سياسة الأحلاف، ورفضه الصلح مع إسرائيل طبقًا لشروط الغرب كما أقرتها الخطة «ألفا»، وذلك بوضع خطة جديدة أُطلق عليها «أوميجا» هدفت إلى تحجيم نظام عبد الناصر عبر فرض عقوبات على مصر بحظر المساعدات العسكرية، ومحاولة الوقيعة

بينها وبين أصدقائها العرب، وتقليص تمويل السد الذي تم إلغاؤه بالكامل في وقت لاحق.

شعرت أن هذه السنة ما زالت تحمل المفاجآت فقلت:

- وماذا بعد في العام ١٩٥٤؟

- نأتي لعام العدوان الثلاثي..

صحتُ في تلقائية:

- مِن إنجلترا وفرنسا وإسرائيل.

- هو كذلك، لكن أحداث ما قبل العدوان بدأت في السادس والعشرين من يوليو، عندما رأى عبد الناصر في تأميم قناة السويس فرصتَه الوحيدة للحصول على التمويل اللازم لبناء السد العالي، وبالفعل أعلن في يوليو ١٩٥٦ قرار التأميم. ومع فشل الضغط الدبلوماسي على مصر للعدول عن قرارها، قرَّرتْ بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وضع خطة لاستخدام القوة العسكرية ضد مصر أُطلق عليها بروتوكول سيفرز، آملين بذلك تحقيق مصالحهم من تلك الضربة، فعلى الصعيد البريطاني كان الهدف التخلص من عبد الناصر الذي هدَّد النفوذ البريطاني بتحقيق الجلاء وتحالف مع السوفيت وأمم القناة التي تمر منها المصالح البريطانية، وعلي الصعيد الفرنسي كانت فرصة للانتقام من عبد الناصر الذي ساند ثورة الجزائر وأمَّم القناة التي كانت تحت إدارة فرنسية، في حين وجدت إسرائيل فرصتها لفك الخناق المحكم على سفنها في قناة السويس وخليج العقبة، وتدمير القوات المصرية في سيناء التي كانت تشكل تهديدًا صريحًا لها.

- وجاء العدوان الثلاثي في التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٥٦.

- طبقًا لبروتوكول سيفرز وفي٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ هبطت قوات إسرائيلية في عمق سيناء، واتجهت إلى القناة لإقناع العالم بأن قناة السويس مهدَّدة. وفي ٣٠ أكتوبر أصدرت كلٌّ من بريطانيا وفرنسا إنذارًا يطالب بوقف القتال بين مصر وإسرائيل، ويطلب من الطرفين الانسحاب عشرة كيلومترات عن قناة السويس، وقبول احتلال مدن القناة بواسطة قوات بريطانية فرنسية بغرض حماية الملاحة في القناة، وإلا تدخلت قواتهما لتنفيذ ذلك بالقوة.

- أبناء إبليس..

- أعلنت مصر بدورها رفضها احتلال إقليم القناة، وفي اليوم التالي ٣١ أكتوبرهاجمت الدولتان مصر وبدأت غاراتهما الجوية على القاهرة ومنطقة القناة والإسكندرية. ونظرًا لتشتُّت القوات المصرية بين جبهة سيناء وجبهة القناة وحتى لا تقوم القوات المعتدية بتحويطها وإبادتها، أصدر عبد الناصر أوامره بسحب القوات المصرية من سيناء إلى غرب القناة، وبدأ الغزو الأنجلو-فرنسي على مصر من بورسعيد التي تم ضربها بالطائرات والقوات البحرية تمهيدًا لعمليات الإنزال الجوي بالمظلات.

- وماذا حدث؟

- قاومت المقاومة الشعبية ببورسعيد الاحتلال بضراوة واستبسال كما تتذكران، الأمر الذي حرك العالم ضد القوات

المعتدية، وساندت الدول العربية مصر أمام العدوان وقامت بنسف أنابيب البترول، وفي ٢ نوفمبر اتخذت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارًا بوقف القتال، وفي ٣ نوفمبر وجَّه الاتحاد السوفيتي إنذارًا إلى بريطانيا وفرنسا وإسرائيل، وأعلنَ عن تصميمه على محو العدوان، كما استهجنت الولايات المتحدة العدوان على مصر، فأدى هذا الضغط الدولي إلى وقف التغلغل الإنجليزي الفرنسي، وقبول الدولتين وقف إطلاق النار ابتداءً من ٧ نوفمبر، تلاها دخول قوات طوارئ دولية تابعة للأمم المتحدة، وفي ١٩ ديسمبر أُنزل العلم البريطاني من فوق مبنى هيئة قناة السويس ببورسعيد، تلا ذلك انسحاب القوات الفرنسية والإنجليزية من بورسعيد في ٢٢ ديسمبر، وفي ٢٣ ديسمبر تسلمت السلطات المصرية مدينة بورسعيد واستردت قناة السويس، وهو التاريخ الذي اتخذته محافظة بورسعيد عيدًا قوميًّا لها أطلق عليه «عيد النصر». وفي ١٦ مارس ١٩٥٧ أتمت القوات الإسرائيلية انسحابها من سيناء.

قال جلال:

- لم أفهم يومًا علاقة مصر بحلم الصهيونية!

- كان حاييم وايزمان يقول دائمًا «إن قيام دولة إسرائيل لم يكن بعيدًا قَط عن ضرورات حماية قناة السويس».

- وهل بقي هارون في مصر؟

- قُتل هارون داوود عزرا في بورسعيد عام ١٩٥٧، وقِيل إن القتل تم بغرض السرقة، لكني أميل إلى تصديق الرواية الشعبية

التي تقول إن المقاومة الشعبية لم تثق في أي يهودي بعد فضيحة لافون، رُبما تشككوا في علاقته بالجماعة الصهيونية.. فقد كان هارون متعدد العلاقات، ربما ظنوه عميلًا لإسرائيل، بعد قتله مباشرة فرَّت زوجته وابنها «إسرائيل» مع أهلها إلى فرنسا، لكنها لم تتحمل قتل زوجها فأدمنت الكحول وماتت عام ١٩٥٩، وبعث حاييم ابنه ليفي ليأخذ إسرائيل من أجداده لأمه، ليكون في حضانته وليتربى مع إسحق ابن عمه ليفي.

– وماذا حدث؟

– لا شيء سوى أن إسحق ليفي التحق بالجيش الإسرائيلي مع أبيه العام الماضي في ١٩٦٦، إكرامًا وثقة في إخلاص عائلة «عزرا» للصهيونية، بعد كل ما قدمه الجد حاييم من خدمات مع عائلة روتشيلد والجيش الإسرئيلي في طرد الفلسطينين من أرضهم.

***

أوائل مايو ١٩٦٧

«هو صحيح الهوى غلاب.. ما أعرفش أنا.. والهجر قالوا مرار وعتاب.. واليوم اليوم بسنة»

فرحت لما رأيت جدي مُغمض العينين يتمايل في شجن من فرط عذوبة الكلمات واللحن، وكأنه يسبح في عالم آخر رغم تأخر حالته الصحية في الفترة الأخيرة، فقد كان يفزعني صوته وهو يتألم من حين لآخر وأدعو بيني وبين نفسي أن يخفف الله عنه وألا يصيبه مكروه أبدًا، جدي هو الملاذ الوحيد الذي أشعر فيه أن عقلي يعمل وروحي حُرَّة قادرة على التعبير عن مشاعرها الخجول التي تخفيها عن جميع الناس، كان يقرأ ما في عيني فأعجز عن إخفائه للأبد، ويعرف ما يجول بخاطري دون أن أضطر للحديث عنه، وكنت أسلمه مفتاح أفكاري دون أن أخشى توبيخه لي مثلما تفعل أمي وإخوتي، ويكفيني أنه شاهد على بلوغ قلبي ونظرات الإعجاب والكهرباء التي سارت في جسدي تجاه جلال لأول مرة.

ظللت أصارع الحزن الذي رغب في التسلل داخلي حتى فتح جدي عينيه وقال محمومًا:

- العالم بالكامل في حالة فوضى كبيرة، الجميع يريد فوق ما يحتاجه، والآن ونحن نقترب من منتصف العام ١٩٦٧ وقد

أوشكتِ على إتمام عامك السابع عشر.. لا أوصيكِ إلا بمراقبة الخير في نفسك أولًا يا حياة، أدعو الله لكِ بالنجاة من هذا العالم.

انتابني قلق شديد عليه وسألته:

- لماذا تقول كل هذا الآن؟

- رجعت مع صوت ثومة لأيام لن تعود، ومرت السنين وما فعلته بنا في رأسي كشريط سينمائي، رأيت كل اختبار أجبرتنا الحياة على خوضه، وكل لحظة خوف عرفتها فخشيت عليك من تقلبات الدنيا وصراعاتها.. لكنني أطمئن لقوة روحك ورجاحة عقلك التي تفوق سنك بكثير.

ارتسمت على وجهي ابتسامة عريضة وشردت للحظات أتأمل وقع كلماته وأتذكر ما يحدث لي من حين لآخر وما أراه رغمًا عني، والأثقل من ذلك هو الصراع الذي وضعني فيه جلال لتوه، وما إن أدركتني نظرات جدي حتى داعبته قائلة:

- ألم تلعن الحرب مائة مرة لأنني كبرت بعدها عمرًا فوق عمري؟

- وسوف ألعنها حتى الموت...

جاءت أمي تحمل صينية الشاي بينما يبدو عليها الإرهاق وهي تقول:

- بعد زواج عايدة ومحاسن لم أعد أحتمل أعباء البيت وحدي يا عمي، حتى هناء زفافها بات وشيكًا.

نظر جدي إليَّ نظرة ذات مغزى وأردف:

- لست وحدك يا وداد.. عروستنا الأخيرة مازالت معنا حتى الآن.

نظرات أمي عبَّرت عن خيبة أمل كبيرة ولم تُعلِّق، مال جدي إلى وهمس في أذني:

- أين عريسك لم أرَه منذ فترة؟ آه نسيت.. قد يكون في القاهرة، لقد اقترب تخرُّجه من الجامعة.

كُنت أعلم أن جدي يتمنى لو يطلبني جلال للزواج. انضم إلينا أبي وصابر وبدا أبي على غير عادته، قدَّم لجدي كوبًا من الشاي وقال:

- جاك ابن ميتشو توفاه الله اليوم، وميتشو بحالة سيئة جدًّا.

- لا إله إلا الله.. لا بُدَّ أن نقدم واجب العزاء، ألهذا أنت واجمٌ هكذا؟

- لقد باع ميتشو المقهى وباع كل شيء! لا أعلم لماذا لم يخبرني بالأمر؟

- متى؟ ومن المُشتري؟ وأين يذهب ميتشو؟

- لا أعلم تحديدًا كيف ومتى، لكنهم يقولون إن المشتري مُناضل مقدسي من فلسطين، شاب يُدعى «مراد نظمي»، جاء منذ أشهر قليلة، لكنه سرعان ما اكتسب حب الناس وثقتهم، حتى إن صابر توسط لكي نؤجر له الشقة بمدخل العمارة، أما ميتشو سوف يهاجر لأقاربه في إسبانيا فلم يعد له أحد بعد موت زوجته في الماضي وابنه الوحيد الآن.

ربت جدي على كتف أبي:

- الرجل مكلوم بموت عائلته، لا تحزن، سوف يعوضك الله خيرًا منها.

كانت أمي تنظر إلى الجدران في قلق حاولت إخفاءه، إذ بدت وكأنها تتبع شيئًا ثم لاح عليها التعجب، رن جرس الباب ففزعت بشدة وبسملت فقال أبي غاضبًا:

- أصبحت تفزعين لأتفه الأسباب يا وداد! هل ساءت حالتك؟

ارتعش صوت أمي:

- أبدًا.. أنا فقط مُرهقة قليلًا.. الباب يا حياة.

أردف صابر بسرعة:

- نسيت أن أخبركم.. جلال ووالده يستأذنان في الاطمئنان على جدي بعد وعكته الأخيرة.

ابتسم جدي في مكر فقُمت لأفتح الباب، تلاقت عيناي بجلال للحظات أختطفها دومًا من الزمن، ترهقني أحلامي كثيرًا ما بين رفضي التخلي عنها وبين خُذلان الحياة لي، وكان جلال هو حلمي الأول والأخير.

- أهلًا يا عمي.. تفضل.

- أهلًا يا حياة يا بنتي.. جئنا نطمئن على صحة الدنون الكبير.

قام والدي يستقبلهما فأردف جدي:

- عمك وحده يتفضل وجلال لا؟.. أهلًا بكما يا أحبابي..

تبادلوا التحيات وخلع والد جلال طربوشه الذي ما زال يتمسك به كأبي وجدي وجلسا.

- لا أريد إزعاجكم، أنا في راحة لساعاتٍ قليلة وأردت أن أطمئن على الحاج، جلال شديد القلق عليه.. أنتم تعلمون أن الحج

أطال الله عمره بمثابة الجد الوحيد لجلال.

أردف جدي في حنان:

- وهل يستطيع أن يُنكر هذا؟

قام جلال فقبَّل يد جدي فأردف والده:

- أرادت أم جلال الاطمئنان بشدة لكنها اضُطرت للسفر إلى الشرقية للاطمئنان على والدتها أيضًا.

- حضورها موصول يا سيد شاذلي.

جلس أبي والسيد شاذلي يتجاذبان أطراف الحديث.

- وماذا بعد الإغارة على الأردن في نوفمبر الماضي؟ الآن يتهمون سوريا بتشجيع أعمال الفدائيين داخل فلسطين! وهل هذا اتهام؟

- بعد اشتباكات الطيران الإسرائيلي والسوري يا سيد أحمد.. سيتم إعلان حالة الطوارئ القصوى وحالة التعبئة العامة قريبًا جدًّا.. نحن مرتبطون باتفاقية الدفاع المشترك مع سوريا.

- يا سيد شاذلي.. أنت تعلم جيدًا من خلال رتبتك في المخابرات الحربية، أن جيشنا يعاني من خسائر الأفراد والمعدات والتوتر وضعف الحالة الفنية للأسلحة وانخفاض مستوى التدريب، وهذا كله لا يُخفى على الشعب بعد حرب اليمن في ١٩٦٢ والتي لم ينقضِ عليها خمس سنوات كاملة.

- بعد قرار ناصر اليوم بغلق مضايق تيران أمام الملاحة الإسرائيلية.. ستكون الحرب وشيكة.. لله الأمر من قبل ومن بعد.

كان جدي مُنصتًا لهما وفي الوقت ذاته يختلس نظرات بيني وبين جلال، كما اختلست أنا وجلال نظرات عبَّرت عن الكثير بداخلنا، خفق قلبي بشدة وأردت أن أحدثه دون خجل، لكنني لم أستطع، للمرة الأولى أشعر أننا قد صرنا شبابًا، فلم أعد الطفلة التي تمتطي العجلة وراءه.

لكن نظراته بدت مقلقة بعض الشيء، وكأنه ينظر إليَّ وباله مشغول بشيء آخر، شيء لا يمكنني توقعه كالعادة.. تغلبت على شعوري بالخجل وحاولت أن أتمتم له بكلمات لعله يفهمها ويتجاوب معي، لكنه كان في ملكوت آخر لم يستفق منه إلا بصوت أبي محدثًا والده.. قائلًا: بالمناسبة.. سينضم إلينا ساكن جديد بشقة الدور الأرضي بدءًا من الغد إن شاء الله.. شاب فلسطيني مُناضل.

- يا أهلًا وسهلًا به.. هل جاء مع عائلته؟

قال صابر في حماس:

- لا، بل قام الصهاينة بتفجيرعائلته أثناء تهجير القرى.. أبادوهم.. أشعر أنه ترك بلده بعد فقدهم مثلما فعل ميتشو بعدما فقد أهله.. هربًا من نزيف الذكريات.

تعاطفت أمي وقالت:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. مسكين.

قال والد جلال في اهتمام..

- وماذا عن أسرته الكبيرة؟

- هاجر غالبيتهم، الغالبية هاجرت، فما علمته أنه من عائلة

كبيرة بالقدس وقد أعطاه أحد أعمامه المقيمين حاليًا بالأردن مبلغًا من المال لَّما علم بنية مجيئه إلى مصر.

- ولماذا لم يبقَ مع عمه بالأردن؟

- لم أحدثه كثيرًا بهذا الشأن لكنه يقول إن الأوضاع في الأردن ليست كما تبدو لنا، ويقول إنه يومًا ما سيدخل القدس مع الفاتحين من مصر وينتقم لأهله.. سوف تحبونه جميعًا.. لقد أصبحنا أصدقاء منذ أشهر قليلة.

رمقه جلال في غيرة أعرفها وقال:

- أين تعرفت عليه؟

- في حي «البازار» مع أحد الأصدقاء.

أدار جدي قرص الراديو بجانبه وهو يقترب منه مُستمعًا.. ولما جاء صوت العود في مُستهل لحنٍ بديع أشار لنا بيده لنكف جميعًا عن الكلام، فضحك والد جلال وقال:

- ميعاد الست ثومة.. فلتأذنوا لنا في المغادرة، ألف لا بأس عليك يا حاج.

أصر أبي أن نتناول العشاء جميعًا على أنغام الست، وقد كانت الأجواء مُبهجة، إلا أنني ظللت أرى أثناء العشاء نجمة داوود سوداء على الحائط، وعندما أغمض عيني وأفتحها لا أجدها، ثم نظرت إلى أمي فوجدتها مُتعرِّقة لا تكف عن البسملة بينما كان أبي يكظم غيظه.

كنت أنتظر سماع كلمات أمي بصوتها الخفيض لعلَّها تهدِّئ من روعي وتخرجني من الدائرة التي كانت تضيق عليَّ بينهم، أرى

تلك النجمة تتسع وتكبر ويزداد حجمي وكأنها تكاد تسقط على رأس أي من الموجودين، وما إن أقترب من الاستسلام لشعوري بالذعر حتى تعود لطبيعتها.. ظللت على تلك الحالة حتى جاءت عيني في عين جلال من جديد.. ورغم قُربي من جلال كأنه فرد من العائلة، ورغم كل شيء إلا أن هذه الليلة كانت وليدة لمشاعر لم أكن أعلم أنني أُكنها لجلال في قرارة نفسي، وأظنه كذلك.. أو أنني أتمنى أن يكون عند ظني به.

***

منتصف مايو ١٩٦٧

في مستشفى الأميري رقدت بدر تصرخ على أحد الأسِرَّة أثناء ولادتها الأولى، صراخًا سمعه أهالي شارع «أوجينيه» جميعًا، مما جعل أمي تصرخ في وجهي:

- اذهبي الآن للبيت وأحضري حقيبة المولود التي نسيناها وزيدي بعض المناشف.. ستجدينها في غرفتي.. حياة.. أسرعي.

- حاضر.

اجتمعت العائلة في طُرقة المستشفى تنتظر الخبر السعيد ما بين مُترقب ولا مُبالي، يعلو صوت أمي في وجه الأطباء بتهكُّم.. خرجت من المشفى وعبرت الطريق، مضيت بأسرع ما يمكنني ثم استقللت تاكسي لأسابق الوقت.

في مدخل العمارة رأيته.. شاب وسيم، متوسط القامة رشيق، شعره بني كث، قسماته حادة، عيناه تتحدثان بالنيابة عنه في جرأة لم أعتَدها في أي من شباب الحي ولا حتى في الشاب الوحيد الذي أعرفه، لا بُدَّ أنه الشاب الفلسطيني، أسرعت من خطواتي وصعدت درجات قليلة من السلم فبدأ الحديث بلكنته الشامية:

- لا بُدَّ أنك حياة؟

التفت له وقد بات موقعه بالأسفل.

- أنت مراد الساكن الجديد بلا شك.

صعد الدرجات في خفة ومد يده مُصافحًا فقلت بتحفظ وتلقائية:

- كيف عرفت أنني حياة؟

فابتسم تلقائيًا من نبرتي الصبيانية في السؤال وقال:

- أشار صابر قبل استدعائه للتجنيد أن جميع أخواته قد تزوجن، وأن هناء قد اقترب زفافها ما عدا حياة، ولم أجد في إصبعك ما يشير إلى خطبة.. إذًا أنتِ حياة.

ابتسمت في غيظ أخفيته ولمت صابر بداخلي على قوله وكأنني أنكر الحقيقة! وأردفت على الفور:

- ملاحظة في محلها.. بالإذن.

- تفضلي.

صعدت بسرعة وأدرت المفتاح ودخلت الشقة، رائحة غريبة لم أميزها من قبل لكنني لم أهتم، هرعت إلى غرفة أمي في آخر الطرقة.. ها هي الحقيبة اللعينة، فتحت الدولاب لأحضر بعض المناشف، وبعد أن أغلقت الحقيبة زادت حدة الرائحة الغريبة، فشرعت في الخروج من الغرفة لكني تسمرت في مكاني فاقدة النطق على أعتابها لما رأيته!.. كان حاخام يهودي طويل جدًا، نعم أعلم هذا الجلباب الأسود، الشعر الطويل الملفوف المُنسدل من الجانبين، ذقنه الطويلة، الكيباه المُستديرة في نصف رأسه، ها هو يخرج من الحمَّام مُمسكًا بمبخرة في يده، تدور كفه بها أمامه، لكن

لا وجود لأي أبخرة مُنبعثة من المبخرة! إذًا من أين أتت رائحة البخور؟

أغمض الحاخام عينيه وتمتم بلغة غريبة لم أسمعها من قبل! كدت أشهق لكنني كتمت فمي بيدي.

تواريت وراء باب الغرفة من الداخل وبدأت أراقبه، أتعرق كما لم يحدث من قبل، بينما كان ظل الحاخام يذهب ويعود بأريحية في جميع أركان الشقة التي أستطيع رؤيتها، يختفي بُرهة ويعود بعدها.. يُبخر شقتنا! كاد قلبي أن يتوقف خوفًا أن يأتي إلى الغرفة ليبخرها فيقتلني. مَن هو هذا الرجل؟ ولماذا يبخر شقتنا؟

قررت أن أختلس النظر مرة أخرى لأرى التفاصيل، فوجدت شيئًا طار له عقلي.. لقد كان الحاخام طائرًا في الهواء! وهذا سبب رؤيته طويلًا جدًّا للوهلة الأولى، ولأنني من فرط الدهشة لم أنظر للأسفل فالرجل متوسط القامة بالأساس! ما هذا؟ مَن هو؟ هل له علاقة بنجمة داوود التي رأيتها ليلة العشاء؟ والأغرب من هذا.. هل هو من تتبعه نظرات أمي الخائفة المندهشة على الجدران؟

دقت الساعة العتيقة بمدخل البيت مرتين، لقد أصبحت الثانية مساءً.. هذا يعني أنني واقفة في مكاني لربع ساعة تقريبًا، لا بُدَّ أن أذهب لأمي قبل أن تلد بدر، تسمرت مكاني لدقائق أخرى ثم قررت المجازفة.

نظرت مرة أخرى فوجدته قادمًا من الطُّرقة، ورأيت عينيه.. عينين يملؤهما السواد! ليس بهما مساحة بيضاء، أتساءل ما إذا كان

قد رآني أم لا؟ تابعته بنظري حتى دخل الحَمَّام.. ورحت أفكر هل أخرج من الغرفة وأمرُّ من أمامه؟ هل أنا مجنونة؟ كما أنني أعلم أن أمي عندما تُبخر الشقة تغلق أبواب الحمامات، فكيف له أن يبخر الحَمَّام نفسه! أرعبتني تلك الفكرة حتى كدت أسمع صوت عظامي ترتج داخل جسدي من الخوف، ماذا أفعل الآن؟

ثوانٍ وانغلق باب الحَمَّام بشدة وسمعت زجاجًا يتكسر، على الأرجح كان زجاج الباب، فاستجمعت قوتي وتأكدت أن الحقيبة بيدي، بسملت ونطقت الشهادتين وقطعت الطرقة كلها عدوًا، وقد شعرت بالزجاج المُتبعثر على الأرض، حتى بلغت الباب فرأيت ظلًا عملاقًا ورائي ففتحت الباب وكتمت صرختي وأغلقته سريعًا.. هبطت الدرج باكية.

كان مراد يغلق باب شقته، فنظر إليَّ مذهولًا ونظر للأعلى مُتفحصًا في قلق:

- عفوًا.. هل حدث شيء؟

- أبدًا.

- إلى أين العزم.. دعيني أصطحبك إلى وجهتك.

- لا داعي.. شكرًا.

- كيف وأنتِ تبكين؟ ويداك ترتعشان؟

تحققت من حديثه فكان صحيحًا، لقد بكيت رغمًا عني، نظرت إلى يدي في غيظ وهمست:

- لقد نسيت المفتاح بالداخل.. ستقتلني أمي.

نظر إليَّ في شفقة وفي سرعة بديهة اقترح:

- أستطيع أن أحضر لكِ المفتاح ولن يعلم أحدٌ بهذا، فقط لو أن شبَّاك الحمَّام أو المطبخ مفتوح..

رمقته وأنا أجفف دموعي في شكٍّ:

- كيف؟ ستقع في المنور وعندها ستكون المشكلة أكبر.

- ثقي بي.. لن تكون مشكلة، أريد أن أساعدكِ فقط، أتبكين لأنكِ نسيت المفتاح بالداخل؟

قالها في استخفاف فأوشكت أن أسرد له ما حدثَ لعلَّه يدرك حجم الخوف الذي يتملكني دون أن يطلق حكمه هكذا من فراغ لكني نحيت هذا التفكير جانبًا، وقلت في قرارة نفسي إنه لا يوجد ما يربطني به وما يظنه ليس بشيء هام، لكنني ترددت للحظة وتساءلت ماذا لو ظهر له الحاخام؟ سيهرب من العمارة.. ربما يتوقف قلبه؟ قاطعني مراد:

- هل أذهب في طريقي أم أساعدكِ؟ اعذريني فأنا على ميعاد؟

- تساعدني؟

- بكل سرور.

- المفتاح على السرير في آخر غرفة بالطرقة. كُن حذرًا.

صعدنا سويًّا وإذا به يصعد عبر الشباك عند الدرج، ومنه يتشبث بماسورة المياه التي نفذ بواسطتها إلى شبَّاك الحمَّام المفتوح، وأشار لي من داخل الحمَّام.

أشعر الآن بالخوف أضعاف ما خفت بالداخل، وراحت

الأفكار تهاجمني بأن ذلك الحاخام سينهال على رأسه ضربًا حتى الموت بلا شك، ماذا أفعل يا الله؟ لا بُدَّ أن بدر قد ولدت وأمي ستقتلني في جميع الأحوال، هل تأخَّر مراد بالداخل؟ هل أستغيث بعائلة جلال؟ أم بعائلة موردخاي؟ ستقتلني أمي أيضًا، بِتُّ خائفة من الشقة، فلو طرقت الباب سيفتح مراد ويقع ميتًا ويأتي الحاخام من ورائه.. لا بُدَّ أن أطرق الباب لأطمئن، تشجعت وقرأت آية الكرسي.. وقبل أن أطرق الباب فتحه مراد مُبتسمًا ممسكًا بالمفتاح في انتصار.. تنفست الصعداء ونزلنا سويًّا.

– أشكرك يا مراد.. هل أنت بخير؟

– لا داعي للشكر.. نعم بخير.. تقولون في مصر «عمر الشقي بقي».

وقفت في مدخل العمارة أريد أن أسأله ألم يقابل أحدًا بالداخل، لكنه كان سؤالًا غبيًا فلو كان رأى أحدًا لعلمت.

– أشكرك مرة ثانية.. لا بُدَّ أن أذهب إلى مستشفى الأميري الآن.

– دعيني أصطحبك إلى هناك.. هل الجميع بخير؟

– بدر تلد هناك الآن.. لكن لا داعي لأن أعطلك مرة أخرى وأنت على ميعاد.

أخذ الحقيبة من يدي وقال:

– طريقنا واحد لا تقلقي.

سرنا سويًّا، التفتُّ إليه.

– هل أصابك الزجاج المكسور في الطُّرقة؟

– لم أرَ أي زجاج مكسور.

- قبل الغرفة التي كان بها الحقيبة.. على الأرض عند الحَمَّام؟؟
- لم يكن هناك أي شيء مكسور على ما أظن.
تجاوزت ما قال لكي لا أثير انتباهه وادعيت أنه يهيأ لي بالتأكيد حتى صدق وأشاح بنظره بعيدًا، ولسبب غير معلوم أردت أن أستعيد انتباهه مجددًا فقلت:
- لكن.. أنت رشيق للغاية.. كدت أموت خوفًا وأنت في منور العمارة تتشبث بماسورة المياه في خفة وتصعد منها إلى الحَمَّام.
ضحك في سخرية لم يخفِها وأردف:
- هذا لا شيء مما نضطر أن نفعله في الحروب لنبقى على قيد الحياة.
تملكني الفضول عند سماعه يتطرق إلى سيرة الحرب، خاصة أن خلفيته تزخر بالعديد من الأحداث الدرامية كما أخبرنا صابر، ولم أستطع السيطرة على فضولي وسألته كيف خرجت من فلسطين؟
فشاح بنظره بعيدًا ثم قال:
- خرجت من فلسطين إلى الأردن عند أعمامي ممن هاجروا قبلي، تحديدًا في «بلدة السموع» في الضفة الغربية، لكن الشياطين الصهاينة هاجموا القرية بحُجة وجود قاعدة للعمل الفدائي، هدموا مائة وخمسين مُنشأة، وتركوها ما بين قتيل وجريح، وحينها قررت أن أرحل إلى مصر وحمدت الله أن أعمامي قد جمعوا لي من المال ما يعينني لأبدأ به حياتي هنا.
- وتترك فلسطين للأبد؟

- فترة إعداد.. لا بُدَّ من وجود المال لتجهيز المقاومة.. هذه هي خطتي، والتجارة ستجلب المال بإذن الله.

وصلنا المشفى فرآني جلال الذي استقبلني بنظرات قاتلة على بابها، انقبض قلبي وارتبكت فتقدمت منه بصوت مُرتعش:

- أهلًا جلال.. مراد جارنا الجديد.. جلال شاذلي.

قاطعني مراد لما سمع اسمه وتقدَّم يصافحه في حماس:

- وهل يُخفى القمر؟ لقد حدثني عنك صابر كثيرًا، وتمنيت أن أراك قبل أن تذهب للتجنيد.

أردف جلال في برود:

- وتعلم أنني ذاهب للتجنيد؟ أهلًا وسهلًا.

ثم أخذ الحقيبة من مراد والتفت إليَّ:

- الجميع ينتظرون قدومك منذ أكثر من ساعة ونصف الساعة.

نسيت كل ما حدث معي في الشقة، ولم أعلم حينها هل أفرح لرؤية جلال في غيرة صريحة، أم أخجل من مراد الذي ساعدني وكان كريمًا معي، هل تحتضنك مصر يا مراد أم تقسو عليك مثل باقي البلدان؟

استأذن مراد في الرحيل خجلًا بعد أن استشعر ما لم يقُله جلال. دخلنا المشفى وعند غرفة العمليات علمت أن بدر في ولادة مُتعثرة، كانت عائلة جلال مُتواجدة.. أعطيت الحقيبة لمحاسن ثم وقفت بجانب جلال الذي ظنه الجميع قلقًا في حين أنه يستشيط غضبًا.

- لقد أصر مراد أن يصطحبني لما رآني مُشتتة الذهن و...

- مشتتة الذهن.. التعبير الأدق.

- جلال! ماذا تقول؟

- لا شيء..

التفت إليّ ونظراته يملؤها الغضب واللوم وتركني ليجلس بجانب والدته، وقفت مع العائلة مضطربة، في حين رمقتني أمي بنظرات توعُّد لتأخري.

وأخيرًا سمعنا صوت الطفل.. خرج الطبيب وخلع كمامته وقد بدا عليه الإرهاق الشديد.

- كانت ولادة صعبة.. مُبارك عليكم «محمد» كما أسمته أمه.

انطلقت زغاريد أخواتي وتهلل وجه أبيه فرحًا وهنأه الجميع، فدخلت أمي غرفة العمليات عنوة.. وتذكرت الولادة العجيبة التي شهدتها من قبل في بيتنا.. حينها مرَّ الحاخام اليهودي في وسط الجميع أمامي يُحدق في وجهي بملامح باردة، أغمضت عيني وفتحتها فلم أجده! هل تلف عقلي؟

***

نظر مُتعجبًا لا يفهم ماذا أقصد فأكملت:

- قابلني هناك وكأنها مُصادفة.. سأحكي لك.

لم أنتظر جوابه ومضيت سريعًا لأحضر السمك. وبعد برهة صغيرة عند العم مصري السماك والذي تربطه علاقة بجميع أفراد أسرتي، صاح مراد:

- آنسة حياة.. كيف أحوالكم؟

- مراد.. جميعنا بخير والحمد لله..

أعطاني عم مصري السمك وظلَّ مُحدقًا في مراد وقال:

- أنت الفلسطيني المُستأجر الجديد في حارة اليهود؟

- نعم أنا.

- أهلًا بأحبابنا.. ربنا يخلصنا من هذا الهم يا بني.

- مرحبًا.. آمين يا حاج مصري.

والتفت إليَّ بتلقائية:

- دعيني أحمل السمك عنكِ.

كان يمثل دوره بإتقان غريب جعلني أتعجب منه بعض الشيء لكنني فرحت في نهاية المطاف فلم تكن هنالك طريقة لإخباره إلا هكذا، مضينا في طريقنا بدون أن نثير ريبة أحد، فمجتمع بورسعيد الصغير يحفظ كل فرد فيه، أشار إليَّ لنعبر الطرق فنسلك طريق البحر ونتحدث.

- أسمعكِ يا حياة.

انفتح فمي وانطلقت منه الكلمات دون توقف للمرة الأولى، أخبرته بكل ما رأيته في يوم المفتاح وحتى اليوم، أخبرته بكل ما

أشعر به وبحجم الخوف الذي يسكن روحي إزاء كل ذلك، حتى توقف فجأة وارتسمت ملامحه بالقلق وقال:

- لا تخافي.. أعلميني فقط بكل كبيرة وصغيرة تحدث، هؤلاء ليسوا من الإنس يا حياة.. ولا شك أنكِ تفعلين أشياء تستفزهم.

- ليسوا من الإنس فعلًا؟ وما هي الأشياء التي تستفزهم؟

- طبعًا.. فلا تنسي أننا في حي اليهود بالأصل.. أتعتقدين أنهم تركوا مُمتلكاتهم هكذا ورحلوا بتلك السهولة؟

- السيدة «جاي» لم تتركه.. لقد باعته لأبي.

- أقصد أن هؤلاء الملاعين يحبون أن يتركوا بصمتهُم يا حياة.. لا بُدَّ أن هُناك شيئًا خفيًا في الشقة.

- إذا كان كذلك لماذا يظهر الآن؟

- لا أعلم.. أخبريني أنتِ.

- سوف أخبر صابر.

- لا داعي لأن تدخليه في أشياء كهذه.. لقد ذهب للجيش البارحة فحسب، دعيه يحارب هؤلاء الشياطين ولا تُثقلي كاهله.. لا تقلقي سوف أساعدك.

- ماذا تقصد؟

- حياة.. أنا لا أريد إخافتك.. لكن يبدو أنه سحر أسود وعليكِ توخي الحذر.

- سحر أسود! لكن لماذا؟

* * *

٢٩ مايو ١٩٦٧

استند جدي بيمينه على عكازه وجعل من يدي عكازًا ليده اليسرى، أوصلته إلى البلكون في الظهيرة، حيث استراح وقال:

- الجو بديع.. به نسمات هواء مُلطفة نادرًا ما نشعر بها في هذا التوقيت من السنة.

شعرت أن صحته قد تحسنت عن الأيام الماضية، فقررت أن أصنع له القهوة لكن أبي دخل البلكون ووراءه يسري قلقًا عابسًا، مما جعلني أنتظر في مكاني بانتظار ما يستعدون لقوله.

- منذ أيام استدعوا القوات الاحتياطية فذهب صابر المسكين وامرأته لم تضع مولودهما الأول بعد.. والآن إعلان التعبئة العامة سيأخذ يسري.. الحمد لله أن عصام ما زال يدرس بكلية الطب.. ونصر خارج البلاد ومرتضى غير لائق.

صمت جدي قليلًا ثم أراد أن يهون الأمر على والدي فقال بنبرة تتحين البهجة:

- سيحفظهم الله جميعًا وسيعالجني الدكتور عصام بعد بضع سنوات فقط.

لكن دعوة جدي وفخره لم يغيرا من قلق أبي شيئًا.. عمَّ الصمت إلا من زقزقة العصافير التي تتخذ الشجرة العجوز بجانب العمارة

مسكنًا، تبدلت ملامح جدي من الإشراق إلى الحزن.

- أعلم جيدًا ما تشعر به.. أنت تتذكر فراق أخيك بعد أن رزقه الله الشهادة في حرب ١٩٤٨.. بارك الله في عمرك وفي أولادك وحفظهم جميعًا.

أمَّن أبي على دعائه وتركنا يسري إلى غرفته، وبعد بُرهة صغيرة ابتهج جدي فجأة وهو ينظر إلى الأسفل وصاح وقد تهلل وجهه وأشار:

- جلال.. اصعد يا بطل.. هل ترون جلال في البدلة العسكرية؟

هرولت تلقائيًا لأراه ونسيت وجود أبي الذي كان في عالم آخر، كان يشير إلى جدي مبتسمًا مُمسكًا بشيء، وبدا رجلًا مختلفًا في البدلة العسكرية.. شعرت أن وجوده قد وهبني الحياة للتو، كلما أراه أولد من جديد.

لحقني جدي بتعليقه:

- ما أجمله!

غادر أبي البلكون وملأت وجهي ابتسامة لم أخجل منها، هرعت إلى المرآة أراقب هيئتي وأصلح منها، فجلال سوف يطرق الباب في أي وقت. بعد نصف ساعة رن جرس الباب، فتحته فكان في عيني أوسم الرجال.

- الحمد لله على السلامة.

- الله يسلمك..

أجابني في اقتضاب بنظرات باردة لا تخلو من شك فانطفأت ابتسامتي، ثم دخل لتحية أبي وأمي، ثم إلى جدي في البلكون قائلًا:

- استطعت أن آخذ إذنًا لبضع ساعات فقط.

- أهلًا بالبطل.. لم أتوقع رؤيتك!

- ولا أنا توقعت أن يُسمح لي بذلك أيضًا، الوضع على أهبة الاستعداد.. الجميع مُستنفرون والحالة العامة لا توحي بالخير.

- لا تفكر بهذه الطريقة.. فقط توكل على الله..

- يا جدي أصدقك القول.. لا يوجد أمل.

- إذًا كُن أنت الأمل.

تشجعت لما كان مع جدي وحدهما ووقفت معهما، لقد تجاوزنا الطفولة وأصبحنا في سن الشباب والأمر بات حساسًا للعائلتين.

- متى أحضرت رواية نجيب محفوظ لجدي؟ ولماذا لم أرَكَ وقتها؟

التفت إليَّ وبدا في نفسه شيئًا يغضبه وعيناه تتحدانني فقال ساخرًا:

- لا بُدَّ أنكِ كُنت تبتاعين السمك حينها.

كان واضحًا أنه علمَ بأمر مراد، دق قلبي بعنف، لا توجد أسرار في هذا البلد، لكن مَن أبلغه؟ ارتعش صوتي.

- رُبما.. لا أدري.. كان عليك أن تنتظرني.

نظر إلينا جدي وعلم أن في الأمر شيئًا، فاستأذن جلال للمغادرة فكدت أن أبكي، فقلت له في جرأة ولم أعلم كيف

أسعفتني سرعة بديهتي هكذا:

- والدة تهاني تخيط لي فستان لخطبة تهاني قريبًا.. هل لك أن تصطحبني إلى منزلها من فضلك؟ تعلم أن «المنطقة الخامسة» ما زالت حديثة ونائية.

- يستطيع يسري أن يصطحبك فوقتي ضيق.

- يسري نائم وأنا أريد أن أذهب الآن.

أمسك جدي بيده وقال برفق:

- بما أن يسري نائم فإني لا أئتمن أحدًا غيرك يا بني.

زفر أنفاسًا ضاق بها وقال مُطيعًا.

- أوامر يا جدي.. امنحني عدة دقائق وسأنتظرها أسفل العمارة.

استأذنت أبي فلم يمانع، فهو يعتبر جلال أحد أبنائه بحق، في حين امتعضت أمي لأنني أصبحت عروسة تنتظر النصيب وعلاقاتي بجلال بمثابة «وقف حال» كما ألمحت من قبل.

دخلت غرفتي لأختار أي الفساتين أرتدي فإذا بالباب يطرق بهدوء.

- ادخل.

كان يسري وقد غلبت عليه البشاشة، دخل وأغلق الباب وجلس صامتًا.

- هل أنت بخير يا يُسري؟

- اجلسي يا حياة.. أريد أن أفاتحك في أمر هام.

جلست أحدق به لما شعرت من غرابة تجاهه.

- أعلم أننا لا نتحدث كثيرًا في أمورنا الخاصة، ربما تخافين عصبيتي، أو أفشاء سرك، لكن.. حياة.. أنا أعلم مشاعرك تجاه جلال، وأعلم منه ما لا يعلم هو عن نفسه، ولو لا أننا أهل لما آمنته عليك أبدًا، لكنني أعلم أنه أهل للأمانة، أعلم أنك ستقابلينه الآن.

اضطرب عقلي وتعرقت فمسح يسري على رأسي وأكمل:

- جلال أخ وصديق وعريس أتمناه لك، فقط أطلعيني على كل شيء وسوف أساعدك.. لا تخافي.

بدون أن أشعر قمت واحتضنته، ربت على ظهري في حنوٍّ وقبَّل رأسي فسألته:

- هل ستسلم نفسك إلى الجيش الليلة؟

- سأذهب قرابة الفجر.. ألا تشمين روائح الطعام، فمنذ أن علمت أمك وهي تعد ما تستطيع لي ولصابر، حاولت أن أشرح لها أنني لن أقابله لكنها لا تقتنع، اسمعي.. عندما أعود أريد أن أسمع موعد الفرح.

ضحكت وقبَّلت يده ورأسه في وداع مؤقت، وفي وقت قصير كنت واقفة أسفل العمارة أمام جلال، عبرنا الحارة وظهر غضب جلال الذي يثبت غيرته، ومن ثم حبه الذي لم نُصرح به بعد، بتُّ في مقام الحائرة لا أدري هل أفرح أم أحزن، وعلى أي أساس يغضب جلال إذا لم يصرِّح بحبه علانيةً؟ وإذا لم يفعل ماذا أفعل؟

قال جلال في رسمية لا تخلو من غضب.:

- سنستقل تاكسي..

- أريد أن نمشي عن طريق الكورنيش.
- تريدين نُزهة وأنا لا أملك وقتي.
- جلال.. أرجوك.. ماذا بك؟

نظر بطرف عينه إليَّ في عتاب ولم يعقب، لكننا بدأنا طريق الكورنيش بالفعل، إنه يفعل ما أريد لكنه يعترض عليه قولًا، سرنا وقد خُيِّل إليَّ أن رأسه تنفث دخانًا.. فأردت أن أسترق قلبه:

- لقد قابلني مراد صدفة في سوق السمك.. وعرض أن يحمل السمك عني إلى البيت.

ضحك مستهزئًا:

- وقابلك صدفة ليحمل عنكِ الحقيبة يوم ولادة بدر أيضًا.. يا محاسن الصدف.
- مراد شاب محترم ويتصرف في هذه الحدود ولم يتعدَها أبدًا.
- الآن تدافعين عنه وكأنك تعرفينه منذ سنوات.. هذه هي البداية.
- حسنًا.. سأصفعه إذا عرض أي مساعدة أخرى.

ثم توقفت وقد أصبحنا في منتصف الطريق..

وأنا أعلم أننا في منتصف طريق علاقتنا أيضًا التي لم يكن لها مسمى يومًا

- لم أخطأ لأدافع.. لكن لماذا تغار الآن؟ هل يوجد بيننا ما يستدعي الغيرة؟

كانت خطواته الواسعة تسبقني لكنها توقف والتفت إليَّ وقد تغيرت ملامحه:

- كُنت أحسب هذا..

- جلال..

- ألا تعلمين؟ ألا تشعرين؟ أنا لا أتخيل أن أمضي خطوة بدونك في الحياة.. ماذا بينك وبين هذا الشاب يا حياة؟

- الآن.. اليوم هو أسعد أيامي.. وعلينا أن نشكر مراد لأنه كان السبب في أن ينطق أبو الهول.

- أنا لا أمزح.. لا تقولي أعتبره أخًا، فهو ليس بأخ ولا نعرف له أصلًا..

- لا تضخم الأمور ولا تفسد اللحظة أرجوك.. تعال نجلس هنا وسوف أسرد لك كل شيء..

جلسنا على الكورنيش وحكيت له كل شيء، وسط غيرته العمياء ونظرات حبه الذي لم أختبره من قبل، واندهاشه مما أقول.

- لا بُدَّ أن تعلم العائلة بما حدث.

- لا أرجوك.. ستموت أمي من الخوف، ثم إن أبي قد باع كل شيء من أجل شراء عمارة داوود.. كنا بخير إلى أن...

- إلى أن جاء مراد..

- أنت تغار من مراد دون حق..

- حياة..

- غيرتك لن تساعدني في حل اللغز. أريد أن...

- لن تقدري على فعل أي شيء من هذه الأمور وحدك، وأنا لا أعلم متى سأزوركم مرة أخرى، لقد جئت اليوم من أجل أن أراكِ

لأنني لا أعلم ماذا تُخفي الأيام القادمة.. الحرب تدق الأبواب.

ربت على يده وقد ملأني الأمل..

- بل ستأتي الزيارة القادمة بخير وتتقدم لخطبتي..

- خطبتك؟

- نعم.. خطبتنا..

- أنا أحبك يا حياة.. منذ أول يوم رأيتك فيه ونحن صغارًا.. كنت أعتبرك مسؤولة مني بشكل لا إرادي.

- ما يكتمه قلبي أكثر مما أتحدث به.. حياءً وخوفًا منك.. على أمل أن يأخذني الفرح إليك يومًا ما.

- كيف أهديك الفرح وقلبي حزين؟ وكرامتنا غائبة في وطن مكسور!

- آه.. الآن فهمت.. أنت لا تُريدنِي يا جلال.. لا تُجمل الحقيقة.

- الحقيقة أنني لن أُنجب أطفالًا تُعساء، لن أُورثهم ذُل سيطرة العدو على مستقبلهم، ذل التخفي والتهجير والصراع اليومي فقط لأجل أن تبقى أسماؤهم وسط الأحياء يا حياة.

- كل الذين عاصروا الحروب منذ أن كتبها الله عليهم أحبوا وتزوجوا وأنجبوا، الجميع يفعل ذلك.. ألا تريد أن نبقى سويًا بين الأحياء وحتى نموت مهما كانت المصاعب؟

- حُلم جميل يتحقق بعد النصر.. حينها أهديكِ حياتي.. حياة بلا قيود.

- بل نصف حياة أحياها في وجودك الغائب.

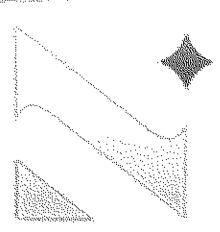
- دعي الأمور تأخذ مجراها.. لن نستطيع أن نستمتع بالمستقبل إلا إذا انصلح الحاضر.

- حُجة يصدقها عقلك.. أما أنا فلا.

انهمرت دموعي وتدفقت الأفكار في رأسي كشلال مياه قوي، كما تدفق غضبي الذي لم أعرف كيف أسيطر عليه، وغادرت وسط إلحاحه أن أبقى أو يصطحبني، وجدت نفسي وحيدة ومُنسحقة في شوارع كئيبة مهزومة ومدينة لا تملك من أمرها شيئًا، لماذا أعيش كل هذه النكبات؟

شعرت للحظة أنني أرى مراد يسير على مقربة منا وكأنه يرى كل شيء من بعيد، أو ربما أرى رجلًا في نفس هيئته لكنني لم أمتلك الوقت الكافي لتبين ملامحه، حاولت أن أدقق النظر حتى شردت عن أفكاري والحزن الذي تسبب فيه جلال لكنني لم أستطع أيضًا رغم أنني شِبه متأكدة مما رأيته في الوهلة الأولى!

***



٥ يونيو ١٩٦٧

أردت أن أثبت لجلال خطأ ما يظنه بي، وأنني قادرة على مواجهة الأمر وحدي على عكس ما يقول، وللمرة الأولى منذ هاجمتني تلك المشاهد المخيفة وقفت في صالة منزلنا، تحديدًا أمام الساعة العتيقة التي صارت ملتقى هؤلاء الحاخامات.. واقتربت بينما تملأ روحي مشاعر مختلطة ما بين الخوف والقلق وما بين العناد واليأس الذي جعلني أستكمل خطواتي في ثقة دون رجعة.

وبدأت أحدثهم في إصرار وأحاول أن أنادي بهدوء كي لا يسمعني أحدهم، لكن دون جدوى، صوت قرقعات لا ينتهي من رأسي ورغبة قاتلة في الفرار مما أفعل، الفرار من نفسي التي بدأت أشكك في صحة عقلها! لكنني انتظرت، كررت النداء لعلهم يستجيبون ويكشفون لي عن نياتهم، لعلي أستطيع التخلص من كل شيء بالمواجهة.

ظللت أدور حول نفسي في حيرة وخوف لا أنكرهما حتى رأيت الحاخامات، رأيتهم يلتفون حول الساعة يرتلون بلغة لا أفهمها.. كأنها ابتهال أو صلاة، يبكون وتهتز رؤوسهم للأمام وللوراء في تتابع مُنتظم! وأنا أقف بالقرب منهم، يقتحمني الخوف لكني أراقبهم وأريد أن أسألهم ماذا يفعلون هنا في بيتنا؟

وفجأة التفتوا تجاهي جميعًا في وقت واحد، وانبعثت من كل

حاخام أبخرة سوداء تجمعت لتُشكِّل نصف دائرة حولهم، عندها أطلقها الحاخام الأكبر بيده لتملأ البيت، الأبخرة السوداء تطير في كل مكان لتستقر عندي وتطوف بي وأنا أسعل بشدة، أختنق اختناقًا شديدًا أجبرني على الاستسلام للرغبة في الهرب إلى غرفتي، لكن الأبخرة بدت كمن يقرأ أفكاري فرحلت عني وذهبت إلى غرفتي! فكرت أن أغلق الباب عليها ثم أذهب لمراد فأخبره، لكنني تذكَّرت جدي وأنه ما زال نائمًا بالغرفة! هرولت إليه فوجدت الأبخرة السوداء تلتف حول رقبته كذراع طويل قوي يريد أن يقضي عليه، صرخت وأخذت أصارع الذراع دون فائدة، كانت أقوى مني وكان جدي ضعيفًا وقد أتعبته المقاومة فاستسلم وترك هذه الذراع السوداء تقتله!

انتفضت فزِعةً ولا أعلم التوقيت لكنني استبينت أنه أغشي عليَّ من الخوف وأن الشروق قد حل منذ فترة، انتبهت أكثر لما سمعت صوت الراديو عاليًا بالخارج.

«تتقدم كل الجيوش العربية تجاه حدود فلسطين لتحريرها. هذه ساحة الحساب التي انتظروها تسع عشرة سنة. الآن قواتنا على أبواب تل أبيب. أراد حكامكم المشاكل والآن يحصلون على مبتغاهم».

وجدت جدي وأبي وأمي ووالدة جلال وإخوتي مرتضى وهناء يلتفون حول الراديو يهللون ويكبرون، يحضنون بعض وأعينهم دامعة، الفرحة في قلوبهم تنطبع على وجوههم غامرة،

المشاعر تفيض وتحكم العقول، لم أكن قد استفقت بعد لكنني أعتقد أنني رأيت مراد أيضًا معهم! وأعلم أنني أرى جدي الآن سليم معافى وكأن ما حدث بالأمس لم يكن حقيقيًّا، لكني متأكدة مما رأيت وأعرف جيدًا أنني اقتربت منهم وأنه بإمكاني أن أفعل هذا مرة أخرى حتى ولو كانت تلك المشاهد التي يخيفونني بها هي وسيلتهم في الدفاع. يجب أن أدرك الأمر وأقرر وحدي حتى ينتهي هذا الكابوس.

التفت ناحية مراد فوجدته بالفعل، ولكن لم يعبأ أحدٌ منهم بوجودي ولا بالذعر الذي يسكن قسمات وجهي، كان مراد يهلل في فرح:

- سقطت مئات من طائرات العدو الإسرائيلي. الله أكبر.. الله أكبر..

خفق قلبي بشدة واكتسحني شعور من الفرحة والقلق في آنٍ واحدٍ، صابر وجلال ويسري الآن يحاربون العدو وينتصرون.. الآن تعود إلينا العزة والكرامة كما تمنى جلال وتمنى شعب مصر، سوف يعود جلال مرفوع الرأس فنتزوج، غرقت في أحلامي الوردية حتى أفاقني منها بكاء أمي الممزوج بالفرح، ربتت على كتفها السيدة أنيسة مواسية:

- أعلم ما يدور قلبك حوله يا أم صابر.. لن يخذلنا الله أبدًا.. سيعود الأبطال وسنحتفل.

- حتى عصام لم يتصل وهاتف منزل صديقه لا فائدة منه..

اللهم لا ترِني بأسًا بأولادي فلذات أكبادي.

تركتهم ودخلت البلكون يساروني القلق، الزغاريد في كل مكان، خرج الناس في الحارة فرحين، في حين اكتفى سكان الحارة اليهود القلائل بالمراقبة من الشرفات، ذكرني المشهد بفرحة تأميم القناة، الفرح الذي أعقبه حزن طويل.

كان مراد يراقب ردود فعلي باهتمام.. فانسحب من بينهم وجاء خلسة.

- أعلم قلقك على أخويكِ.. و... جلال.

لم أجِبه ولم أنظر إليه فأكمل:

- ثقي أنهم بخير.. الأبطال ينحتون أسماءهم في التاريخ الآن.. صحيح لم ننتصر بعد لكننا في طريق الانتصار.. قريبًا ندخل تل أبيب مُنتصرين مرفوعين الرأس.

- أتمنى من الله رجوعهم جميعًا..

- سيأتون بمشيئة الله..

التفتُّ إليه وقد تذكرت شيئًا:

- لكن.. كيف وجدتك هنا اليوم؟

- أبوكِ دعاني اليوم لتناول الفطور معه.

- هذا شيء عجيب.. أتعلم أن أبي لا يثق بالناس سريعًا؟

- قال إنه يريد أن يتعرف بي أكثر، وأن يعرف لماذا اشتريت المقهي؟ أعتقد أنه يريد أن يطمئن لمن يسكن بيته.

- وهل اطمأن؟

- أعتقد ذلك.. لكن قولي لي...

التفت إليهم بالداخل فوجدهم مُنشغلين فقال في صوت خافت:

- ماذا عن الحاخام؟ هل ظهر ثانية؟

- نعم، وأنا من تسبَّب في ذلك..

- وكيف ذلك!

- لا أعرف لكني استدعيته بطريقتي، ولكن انتهى بي الأمر مغشيًا عليَّ من الخوف.. أنا أضعف من تلك المواجهة.

- مهلًا مهلًا.. هذا ليس صحيحًا.

بدا مُنشغلًا لكنه أراد فيما يبدو ألا يثير قلقي أكثر.. ولمحنا نظرات أمي تتابعنا رغم بكائها.

- سنرى هذا الموضوع فيما بعد.. هيَّا إلى الداخل لكي لا تُثيري قلقهم أكثر.

طمأنني حديثه قليلًا فدخلت معهم نحتفل والقلق يأكل من عقلي.. ومن عقل أمي أيضًا.

***

٦ يونيو ١٩٦٧

بقيت راقدة في فراشي طوال الليل في حالة الأرق اللا إرادي، انتابني القلق قليلًا فقمت أتفقد جدي فوجدته بخير، ورحت أتفقد هناء في غرفتها فوجدتها تغط في نوم عميق بدورها.. أو لعلها تتظاهر به هي الأخرى، أشعر بحال أمي وأبي لكني لا أجرؤ على اقتحام غرفتهما في هذا التوقيت من الليل.. بينما أتجاهل صوت طقطقات متفرقة في الشقة.

عدت إلى غرفتي لأرغم عيني على النوم، لكني أردت أن أتأكد من عودة خيالات النجمة، فنهضت وأضأت نور الأباجورة التي بيني وبين جدي فلم يكن هنالك شيء، بقيت جالسة في سريري وكأنني أحمي جدي من خطر قادم لا أعلمه.

لم يكن هناك شيء يبعث على الخوف سوى بعض الأصوات خارج الغرفة، أصوات أسمعها في الليل منذ مجيئنا، اعتدتها لمَّا أخبرت أمي بها ذات ليلة وقالت ربما خشب الأثاث يُحدث صوتًا من اختلاف درجات الحرارة عليه. لم أصدقها بالطبع، لكني لم أعِر انتباهي للأمر ثانية.

بدأت عيني تغفو قليلًا وشرعت في النوم بالفعل، لولا طَرق باب الغرفة! من يطرق باب غرفتنا قُبيل الفجر؟ ربما أبي يريد أن يُفيق جدي

لصلاة الفجر.. قُمت فيْ شجاعة ففتحت الباب فلم أجد أحدًا!

نظرت بالخارج ومسحت الطُّرقة بعيني.. أبواب الغرف كلها مُوصدة! فعدت متوجسة وأغلقت الباب وجلست مكاني أنظر إلى جدي الذي بدا ملاكًا غارقا في نومه.

وفجأة سمعت ارتطامًا قويًّا بالحائط، نظرت لأعلى فكانت نجمة داوود الحديدية تطير في أرجاء الغرفة، الآن أراها رَأْي العين! يا الله ماذا أفعل؟ تطير وكأنها حائرة تريد أن تهتدي إلى وجهة لا تعلمها، ترتطم بالحائط فتغير وجهتها لترتطم بحائط آخر فتقع على الأرض، ثم تقوم وتطير ثانية!

لا مجال للشك فيما أرى الآن، لكن ماذا أفعل؟ هل أوقظ جدي ليرى ما أراه؟ لا.. أريده أن يرتاح، هل أحضر عصا طويلة فأسقطها وأقبض عليها؟ وما أدراني أنها ليست من الجن؟

جلست عند طرف سرير جدي خشية أن تقع عليه في أحد الارتطامات، ثم خطرت لي فكرة أن أفتح الشباك لعلّها تطير بعيدًا، مشيت على أطراف أصابعي وفعلت هذا لكن ارتطامها بالحوائط لم يتوقف، ولم تقترب من الشباك أيضًا، رجعت وأنا أكاد أبكي، ثم وقفت أحمي جدي وأكتم أنفاسي هلعة وأخاف أن يفيق من نومه، وأخيرًا اقتربت النجمة.. إنها ليست حديدية كما ظننت بل عبارة عن أبخرة سوداء! ما بال الأبخرة السوداء وماذا تريد مني؟

طارت في الهواء بعيدًا واقتربت من السقف فسمعت صوت طرق الباب مرة أخرى، وسمعت صوت أبي، لعلَّه ينقذني من

الأبخرة السوداء، أسرعت إلى الباب لما كادت النجمة أن تبلغ سقف الغرفة وتتمايل كأنها تبحث عن شيء.

عندما فتحت الباب تسمرت قدماي مكاني لحظات، وبدأت أرجع للوراء خطوات من فرط خوفي، أمسكت فمي بيدي جيدًا كي لا أصرخ، كان الحاخام واقفًا عند الباب بهيئته التي رأيته بها من قبل وذقنه الطويلة، هذه المرة لا يرتدي الكيباه المُستديرة في نصف رأسه، بل عمامة سوداء يتدلى عليها قماش يغطي كتفيه إلى آخر ذراعيه، نظر إليَّ نظرات مُبهمة ودخل الغرفة بينما تراجعت أنا إلى الخلف لاإراديًّا.

أردت بشدة أن أقرأ بعض ما أحفظ من القرآن، لكنني كنت عاجزة بشدة كأنني بلا أحبال صوتية تُعينني على ما أراه، صوتي لا يخرج وعقلي لا يستجمع آية واحدة، كان الحاخام ينظر إلى جدي في غضب.. وأنا أراقبه في صمت حتى كدت أموت لحظتها، نظر بعدها إلى نجمة داوود نظرة سريعة فهبطت إليه واستقرت فوق رأسه كتاج في مشهد مخيف.

كدت أفقد توازني وأردت أن أصرخ عندما اقترب مني، لكنه أشار إليَّ بيده ألا أفعل وقال في هدوء وهو يشير إلى جدي وعلى وجهه علامات الحنق والغضب:

- أخبريه أن يترك ما يخفيه..

تسمرت أمامه عاجزة عن فعل أي شيء، ولا أعلم ما الذي يتحدث عنه بالطبع فيما بدا على وجهي خوف شديد من احتمالية إيذائه لجدي، فنظرت إليه كي أطمئن عليه لكنني فوجئت به مستيقظًا ويتسلل أمامي دون أن يعيرني أي انتباه، كأنه لا يراني ولا

يري الحاخام! حتى قال الحاخام في ثقة:

- لن يرانا.

فغر فمي وراقبت جدي الذي راح يطمئن على جثماني في فراشي ويُدثرني! ثم سار على أطراف أصابعه كي لا يوقظني! كيف أراني نائمة؟ وكيف لا يراني جدي مستيقظة؟!

علا صوت تكبيرات الفجر بالراديو مما جعل وجه الحاخام يتبدل إلى شيءٍ مخيفٍ، وسمعت صوت أبي يقول الشهادتين.. ثم تكبيرات جدي، الأمر الذي أزعجه كثيرًا فنظر إلى نجمة داوود أعلاه.. ويا هول ما رأيت.. فقد بدا وكأنه يتحد معها فيصبحان كتلة واحدة ويطيران خارج الغرفة من الشباك!

رقدت في فراشي وحيدة أبكي وأنا أنظر تجاه الضوء، حيث كاد شعاع الضوء بالخارج أن يشق السماء، وما زال صوت الأذان يصدح بقوة إلى أن ختم وكرَّر: «الصلاة خير من النوم».

صوت الأناشيد الوطنية والأخبار العسكرية المُبهمة ينتقل من الراديو إلى قلوبنا الراجفة، ولم أتبين مشاعري الحقيقية بين فرحة النصر المُريب وبين قلق لا أنكره، قلق يجعل في قلبي غصة عجيبة، تعيقني عن الفرح بأي شكل.

لكنني كُنت قد اتخذت قرارًا جادًا بعد جلسة بكاء طويلة وسوف أنفذه اليوم دون الخوف من جلال، لقد تحدَّث الحاخام وأشار إلى جدي صراحة! وأنا لن أسمح لأي كائن أن يمسه بسوء.

***

٧ يونيو ١٩٦٧

خليط مُتناقض من المشاعر بين فرح وقلق يدور بيننا في البيت دون الحديث عنه بصراحةً، يجلس جدي في الشمس الحامية في البلكون يُراقب المارة، ويُمسك بالراديو الترانزستور الخاص به، يقربه من أذنه في شغف لعله يستمع إلى خبر النصر الصريح، كان يثق في القيادة وزعيمها ويثق في إعلامهم الحر.. «قريبًا ندخل تل أبيب»..

اقتربت منه فراقبني مُبتسمًا واهنًا يموج الأمل في عينيه كهدير بحر عاصف.

- صحي النوم.. لقد كان نومكِ مُزعجًا.. ما كل هذا الصراخ؟

- صراخ!

- نعم.. حاولت أن أوقظك ثلاث مرات لكن هيهات.

- متى؟

- أول أمس ولم أشأ إزعاجك.. لكن الأمر ذاته تكرر بالأمس!

أرغمت نفسي أن أبتسم وقبّلت جبينه فنظر إلى مليًا.

- إلي أين تذهبين في هذا الصباح؟ لا بُدَّ أنها مشاوير وداد التي لا تنتهي.

- هذه المرة أمي بريئة.. أخذت الإذن للذهاب إلى تهاني لتُكمل أمها فستاني.. أنت تعلم أن فرح هناء قد اقترب.

ضاقت عيناه لثوانٍ وأردف:

- حسنًا.. لتعودي سريعًا.

- لن أتأخر يا جدي.

عند مدخل الباب قابلتني الساعة العتيقة، تقف شامخة غامضة مُريبة، دقت مرتين وأنا أرتدي حذائي عند الباب.. هل الساعة الثانية الآن؟ التفت إليها فوجدتها العاشرة صباحًا!!

اقتربت منها وتأملتها ورأيت جدي يتابعني عن بُعد.

- هل أنتِ بخير يا حياة؟

- دقت الساعة مرتين الآن وهي العاشرة.

- لم أسمعها تدق.

- لا عليك.. إنها كوابيسي اللعينة.

أغلقت الباب وهرولت سريعًا أتلفت لأتأكد أن مدخل العمارة خالٍ، فطرقت باب مراد لكنه لم يجِب، اقتربت وطرقته بقوة وصعدت بضع درجات تحسبًا للمفاجآت.. أخيرًا فتح الباب مُتثائبًا.

- حياة.. أهلًا وسهلًا.

- مراد.. أحتاج مُساعدتك بشدة، قابلني الآن عند الكورنيش جهة الحي الإفرنجي.

كان المارة في الشوارع فرحين يملأهم الأمل، يضحكون وكلهم نشاط وإقبال على الحياة، وعند البحر وقفت أتأمل براحه اللا نهائي الذي ضاق في عيني، غير عابئة بأمواجه التي تبعث

الراحة في نفسي على قدر ما تبعث الرهبة أيضًا.

جاء مراد على غير ما رأيته آخر مرة، قلِقًا يقطب حاجبيه ويتحاشى النظر إلى عيني، فسألته على الفور:

- ماذا بك؟

- لا عليك.. لم تُرِحني نبرة صوتك.. هل حدث شيء جديد؟

تغاضيت عما يواريه وسردت له كل شيء.. صمت قليلًا وقال:

- الأمر واضح.. هُناك شيء يخفيه جدك في البيت جلب لكم كل هذا الشر، عليك أن تراقبيه حتى تعلمي ماهية هذا الشي وتبعديه عنه، السحر مذكور في القرآن. أمهليني يومين ووسوف آتي لك بالحل إن شاء الله.

- حسنًا.. لكن قل لي ماذا بك؟

تنهد وزفر نفس عميق في ضيق..

- لم آخذ قسطًا كافيًا من النوم، الأخبار على إذاعات راديو «مونت كارلو».. صوت إسرائيل.. «بي بي سي لندن» تنفي تقدُّم القوات المصرية وتعلن هزيمتها الساحقة! الصهاينة يحتفلون!

- لكن الإذاعات المصرية تؤكد أن...

- أنا مشتت بينهم.. لكن دعينا لا نستبق الأحداث.. ستظهر الحقيقة.

- لنأمل أن نكون نحن الصادقين.

- فقط احرصي ألا يقتلك الأمل كما يفعل كل مرة.

* * *

٨ يونيو ١٩٦٧

وكأن المشهد توقف عند أحداث الخامس من يونيو، في الصباح صك الراديو آذاننا بصوته العالي بأناشيد وطنية وأخبار لا تصرِّح بالنصر، والجميع يعيد ويكرر ما يفعلونه، أمي في المطبخ وأبي في المقهى، آمال زوجة صابر تجلس وحيدة، تنظر قلقة إلى جنينها المنزوي داخل انتفاخ بطنها، هناء عند الخياطة في بروفة لفستان زفافها، وجدي يجلس في البلكون مُمسكًا بالراديو الترانستور لعلَّه يبث أخبارًا صريحة عن تلك التي يبثها الراديو بصالة الاستقبال، يردد من حين لآخر في يقين يشوبه أمل وشك:

- سوف نلقنهم درسًا لن ينسوه أبدًا.

أشعر أنني دخلت لعبة تكرار زمني لليوم الثالث على التوالي، رن جرس الباب في وهن وجاء صوت أمي المُعتاد:

- الباب يا حياة.

فتحته لأقف خارج الزمن قليلًا قبل أن أستوعب من يقف أمامي، ببدلته العسكرية وقد تغيرت هيئته إلى شخص آخر، ملامح جامدة تنظر إلى اللا شيء في حزن عميق بملامح كساها الفراغ والذل.

- أبيه صابر..!

ارتمى في أحضاني وأجهش بالبكاء، ألقى جدي ما بيده وأمسك بعكازه مُسرعًا إلينا وأتت أمي وقلبها يهرول أمامها.. سألته:

- تعالَ.. أدخل.. ماذا بك يا أخي؟ ما كل هذه الجروح والدماء؟!

أدخلته وأغلقت الباب فجلس في صالة الاستقبال وما زال يبكي بحُرقة لأول مرة في حياته، صرخت أمي:

- ابني حبيبي.. ماذا حدث لك؟ وأين يسري؟

الباب يطرق بقوة.. كانت والدة جلال رفقة مراد.

- صابر.. الحمد لله على سلامتك يا ابني.. هل من أخبار عن جلال؟

نظر مراد إليه وأغمض عينيه التي فاضت سيلًا من الدموع، مرت دقائق ونحن نتأمل هيئته، البدلة العسكرية تمزقت وغطاها التراب والجروح والدماء.. انحدرت دموع جدي صامتة وقال في أسى:

- اتركوا البطل يستريح ويهدأ.

نظر صابر إلينا وكنت أراه يمسح عنه شيئًا أكبر من الدموع، ثم جاء صوته مُحشرجًا:

- لقد هُزمنا من الصهاينة.



***

٩ يونيو ١٩٦٧

تحول صابر المحب للحياة إلى شبح يسكن بيننا، نراه ولا يرانا، نسمع صمته المُفجع لكنه لا يريد أن يسمعنا، تبكي زوجته ولا تشتكي، لا يغادر غرفته حتى إنه لا يداعب ابنه «جمال» الرضيع، ووالدة جلال تبكي غياب زوجها وابنها دون انقطاع، فيما تبكي أمي لغياب يسري وانقطاع أخبار الجميع.

لم تتحرر المدينة المسكينة، ولم يتمكن الأمل من إنقاذ أبنائها من جحيم غائر في أعماق أنفسهم.

جلس الجميع يعزون أنفسهم في صالة الاستقبال مُلتفين حول هذا الأمل الضائع. عدا جدي الذي لازال يجلس مقربًا الترانزستور إلى أذنه.

طرق مُتتالٍ على الباب، سريع وقوي وصوت مراد بالخارج.

- حاضر.. حاضر.

فتحت الباب فوثب مراد بجسده في منتصف الشقة وكأن مصيبة للتو قد حدثت.

- عبد الناصر سيلقي خطابًا الآن.

نظرت إليه نظرة خوف ربما أنه اعتادها مني فلم يعِرني أي اهتمام في لحظتها، لم أكن أعلم ماذا أريد منه لكن وجوده في تلك

الأجواء كان أكثر ما أتمناه ولا أعرف كيف أو لماذا، ربما كانت تريحني فكرة أنه على عِلمٍ بهمي الأصغر أكثر من هم البلاد كلها.

لكنه لم يكن يحفل سوى بالخبر الذي جاء يزفه إلينا في جميع الأحوال، فانزويت في ركن كي أستمع معهم قبل أن يلاحظني أحد.

بينما هرعت هناء إلى الراديو تفتحه.. وسمعنا صوت ناصر مهمومًا مهزومًا:

- أيها الإخوة:

لقد تعودنا معًا في أوقات النصر وفي أوقات المحنة، في الساعات الحلوة وفي الساعات المرة؛ أن نجلس معًا، وأن نتحدث بقلوب مفتوحة، وأن نتصارح بالحقائق، مؤمنين أنه من هذا الطريق وحده نستطيع دائمًا أن نجد اتجاهنا السليم، مهما كانت الظروف عصيبة، ومهما كان الضوء خافتًا. ولا نستطيع أن نخفي على أنفسنا أننا واجهنا نكسة خطيرة خلال الأيام الأخيرة، لكني واثق أننا جميعًا نستطيع - وفي مدة قصيرة - أن نجتاز موقفنا الصعب، وإن كنا نحتاج في ذلك إلى كثير من الصبر والحكمة والشجاعة الأدبية، ومقدرة العمل المتفانية. لكننا - أيها الإخوة - نحتاج قبل ذلك إلى نظرة على ما وقع؛ لكي نتتبع التطورات وخط سيرها في وصولها إلى ما وصلت إليه، إننا نعرف جميعًا كيف بدأت الأزمة في الشرق الأوسط في النصف الأول من مايو الماضي. كانت هناك خطة من العدو لغزو سوريا، وكانت تصريحات ساسته وقادته العسكريين كلها تقول بذلك صراحة، وكانت الأدلة متوافرة على وجود التدبير.

غضب أبي غضبًا شديداً وقال:

– ماذا يريد أن يقول؟

أردف مراد وهو يمسح شعره بعصبية إلى الوراء:

– ها هو يُصارح الشعب والأمة العربية بالهزيمة الساحقة.

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

دموع أمي والست أنيسة لم تتوقف لحظة واحدة.

قال جدي:

– لنستمع لنهاية الخطاب.

«وكانت هناك أمم عظيمة خارج العالم العربي قدَّمت لنا ما لا يمكن تقديره من تأييدها المعنوي. لكن المؤامرة – ولا بُدَّ أن نقول ذلك بشجاعة الرجال – كانت أكبر وأعتى، ولقد كان تركيز العدو الأساسي على الجبهة المصرية؛ التي دفع عليها بكل قوته الرئيسية من المدرعات والمشاة؛ معززة بتفوُّق جوي رسمت لكم من قبل صورة لأبعاده، ولم تكن طبيعة الصحراء تسمح بدفاع كامل؛ خصوصًا مع التفوق المعادي في الجو. ولقد أدركت أن تطوُّر المعركة المسلحة قد لا يكون مواتيًا لنا، وحاولت مع غيري أن نستخدم كل مصادر القوة العربية، ولقد دخل البترول العربي ليؤدي دوره، ودخلت قناة السويس لتؤدي دورها، وما زال هناك دور كبير مطلوب من العمل العربي العام، وكلي ثقة في أنه سوف يستطيع أداءه. ولقد اضطرت قواتنا المسلحة في سيناء إلى إخلاء خط الدفاع الأول، وحاربت معارك رهيبة بالدبابات والطائرات

على خط الدفاع الثاني.

ثم استجبنا لقرار وقف إطلاق النار، أمام تأكيدات وردت في مشروع القرار السوفيتي الأخير المقدم إلى مجلس الأمن، وأمام تصريحات فرنسية، بأن أحدًا لا يستطيع تحقيق أي توسُّع إقليمي على أساس العدوان الأخير، وأمام رأي عام دولي - خصوصًا في آسيا وأفريقيا - يرى موقفنا، ويشعر ببشاعة قوى السيطرة العالمية التي انقضت علينا...»

صرخت والغيظ يملؤني:

- أتعجب لماذا لم يفعل هذا في وقت مبكر. لقد قتلنا الأمل ألف مرة.

أشار لي أبي أن أصمت.

«نصل الآن إلى نقطة هامة في هذه المكاشفة بسؤال أنفسنا: هل معني ذلك أننا لا نتحمل مسؤولية في تبعات هذه النكسة؟ وأقول لكم بصدق - وبرغم أي عوامل قد أكون بنيت عليها موقفي في الأزمة - فإنني على استعداد لتحمُّل المسؤولية كلها، ولقد اتخذت قرارًا أريدكم جميعًا أن تساعدوني عليه: لقد قررت أن أتنحى تمامًا ونهائيًّا عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر..»

- ماذا.. ماذا يقول.. هل يتخلى عن مصر والأمة العربية بأكملها؟!!

هكذا صرخ مراد وانهمرت دموع الجلوس كلهم وقد شعرنا بمرارة الهزيمة مرة على الجبهة ومرة الآن..

«إن قوى الاستعمار تتصور أن جمال عبد الناصر هو عدوها، وأريد أن يكون واضحًا أمامهم، أنها الأمة العربية كلها وليس جمال عبد الناصر، والقوى المعادية لحركة القومية العربية تحاول تصويرها دائمًا بأنها إمبراطورية لعبد الناصر، وليس ذلك صحيحًا؛ لأن أمل الوحدة العربية بدأ قبل جمال عبد الناصر، وسوف يبقى بعد جمال عبد الناصر.

ولقد كنت أقول لكم دائمًا: إن الأمة هي الباقية، وأن أي فرد مهما كان دوره، ومهما بلغ إسهامه في قضايا وطنه، هو أداة لإرادة شعبية، وليس هو صانع هذه الإرادة الشعبية.

وتطبيقًا لنصّ المادة ١١٠ من الدستور المؤقت الصادر في شهر مارس سنة١٩٦٤ فلقد كلفت زميلي وصديقي وأخي زكريا محيي الدين بأن يتولى منصب رئيس الجمهورية، وأن يعمل بالنصوص الدستورية المقررة لذلك، وبعد هذا القرار فإنني أضع كل ما عندي تحت طلبه، وفي خدمة الظروف الخطيرة التي يجتازها شعبنا...»

أردفت هناء في عفوية وهي التي لم تتحدث في السياسة أبدًا..

- مَن هو زكريا محي الدين؟ نحن لا نعرف إلا ناصر.. هل يتنصل من كل ما فعل؟ لا بُدَّ له أن يستمر ويصلح كل شيء.. وبعدها فليترك الحكم إن شاء.

همس مراد وكأنه يحدث نفسه:

- لا أصدق أن إسرائيل شنت هجومها في سيناء واستولت على الضفة الغربية والقدس الشرقية في الأردن وهضبة الجولان في سوريا.. لقد ضعنا.. ضعنا إلى الأبد.

قال أبي في أسى:

- قُصفت جميع المطارات فضمنوا إجهاض الطيران لأي طلعات جوية ثم جاء الاجتياح البري لكل منهم على حدة.

قبل أن يكمل ناصر خطابه سمعنا ضجة الجماهير الغاضبة تملأ الشوارع.. خرج صابر أخيرًا من غرفته يبكي تاركًا الباب على مصراعيه مفتوحًا، وكأنه يقول لمن خلفه لتلحقوا بي، فكان مراد أول اللاحقين به ثم أبي.. هرعنا إلى البلكون جميعًا.

كانت الجموع غفيرة تنهمر كشلالات مياه والصوت يتردد في المدينة كلها ليملأ آذاننا وأرواحنا، دموعنا وقلوبنا بالتحدي وكأن البشرية كلها قد قامت في نفس واحد تقول وتردد بلا ملل أو تعب:

- هنحارب.. هنحارب.. هنحارب.

قال صوت جدي الباكي في وهن:

- ربما ظنوا أنني قد متّ فخرجوا وحدهم.

- بعد الشر يا جدي.. سامحهم لقد طار وعيهم.

- إذًا.. هيًا بنا يا حياة.. مكاني وسط الشعب.

إنضممنا إلى المسيرات المُزدحمة في جميع أنحاء الشوارع والميادين، قال جدي مُندهشًا:

- لماذا يهتفون ضد زكريا محي الدين؟!

لكن روح المسيرات جعلت جدي ينسى مرضه ويندفع وسط الشعب مُسرع الخُطى يسابق دموعه ويصرخ:

- إحنا الشعب.. أصحاب الحق.. لأول مرة نقولك لأ.. هنحارب.

* * *

١٠ يونيو ١٩٦٧

صباح كئيب بلا ريب، صباح بطعم الهزيمة المؤكدة.. بلا نوم ولا طعام، بلا أناشيد أو تصريحات كاذبة بعد أن أغلق أبي الراديو، سكن جدي البلكون منذ البارحة بعيون زائغة يتأمل اللا شيء، رفض طلب أبي بتناول لقيمات تكفي لأخذ الدواء، فتولى مراد الطلب بإلحاح حتى أكمل المهمة، أمي والست أنيسة تبكيان بلا توقف، إذ كانت أمي تغفو ومن ثم تصحو تصرخ وتبكي، لا بُدَّ أن الكوابيس تطاردها، حتى صابر لم يعد منذ البارحة.. لكننا جميعًا نفكر الآن في يسري وعصام وجلال ووالده.

رن الهاتف رنة طويلة أفاقتنا من شرودنا فنظرت أمي له في هلع.. أجاب أبي الهاتف مُقتضبًا.. ثم ارتاحت قسمات وجهه قليلًا وهو ينظر إلى والدة جلال:

- الحمد لله على سلامتك.. نعم موجودة عندنا لا تقلق.. السيد شاذلي يا أم جلال.

أسرعت الست أنيسة إلى الهاتف تخطف السماعة من أبي:

- شاذلي.. ألف وحمد وشكر لك يا رب.. أين جلال؟

مضت فترة والست أنيسة تستمع ولا توحي ملامحها إلا بالقلق.. ارتجف قلبي حينها لكنها قالت:

- سوف أنتظر مكالمتك حين تصلك أخباره.. لن أنام يا شاذلي.

أشارت إليها أمي ففهمت الست أنيسة فقالت قبل أن تغلق السماعة:

- لا تنس يسري يا شاذلي.. الله يطمئنك.

لكن صوت الحشود الذي بدأ في الشوارع كان أعلى من أي صوت آخر.

- ألو.. ألو.. لقد انقطع الخط لكنني أظنه سمعني.. لا تقلقي يا وداد.

- هل يعرف مكان جلال؟

- ليس بعد.. لكن قلبي يطمئنني أنه بخير.

نظرت أمي لها نظرة ذات مغزى وبكت في حُرقة بالغة، رن الهاتف مرة أخرى فشهقت أمي.. أجبت أنا الهاتف بسرعة:

- ألو.. نصر حبيبي.. نحن بخير.

أسرعت أمي تخطف الهاتف.

- نصر.. كيف حالك أنت؟ الحال هنا من سيئ لأسوأ.. ضحكوا علينا ووهمونا بالنصر وهي النكسة الكبرى، عاد أخوك صابر بجسده فقط.. وتنحى ناصر، أما يسري في الحرب وعصام في القاهرة انقطعت أخبارهما بعد أن توقفت حركة القطارات والحياة.. كذلك جلال ابن الست أنيسة لا أخبار عنه.

ثم انفجرت في البكاء دون توقف فتقدَّم أبي منها وربت على

كتفها في حنان وأخذ من يدها السماعة..

- يا نصر يا بني.. نحن بخير لا تقلق.. هُزمنا لكن حتمًا سننتصر.. نعم نعم الجماهير تملأ الشوارع ليعود ناصر.. سيعود أخواك وجلال لا تخف.. في حفظ الله وأمانه يا بني.

جلس أبي بجانب أمي يهدئ من روعها.

- كفاكِ يا وداد أرجوك.. ستنصلح جميع الأحوال.. لا يكون في ملكه إلا ما أراد.

- ونعم بالله.

كان أبي كطبيب لا يملك الدواء لمريضه، بينما قالت هناء وهي تحاول أن تشتت ذهن أمي قليلًا:

- لنحضر الفطور يا حياة.. نحن لم نذق الطعام منذ البارحة.. سنسقط جميعًا من الإرهاق.

قال مراد مُصطنع شيء من البهجة:

- هناء على حق.. سأحضر لكم مربى تين بالجوز من صنع يدي.

أعددنا طعامًا شهيًّا بغير اشتهاء، فلما تجمعنا على المائدة نظرت إليها أمي وقد تورَّم وجهها من كثرة البكاء قائلة:

- هذه المقاعد لم تخلُ يومًا من الفرح والأحاديث.. يا رب أعد لي أبنائي سالمين.

جاء صوت مراد من الخارج وطرق الباب بعنفٍ فنهضت كي أجيبه بسرعة فصاح:

- أنور السادات يُلقي بيانًا من مجلس الأمة الآن.

قال أبي:

- السادات؟ وأين ناصر؟

- يقولون إنه تعذر وصوله إلى مجلس الأمة وقد أُغلقت كل الطرق.

فتح الراديو وصغت كل جوارحنا:

- «كنت أتمنى لو ساعدتني الأمة على تنفيذ القرار الذي اتخذته بأن أتنحى، ويعلم الله أنني لم أصدر في اتخاذ هذا القرار عن أي سبب غير تقديري للمسؤولية وتجاوبًا مع ضميري وما أتصور أنه واجبي، وإني لأعطي هذا الوطن راضيًا وفخورًا كل ما لدي حتى الحياة إلى آخر نفس فيها، إن أحدًا لا يستطيع ولا يقدر أن يتصور مشاعري في هذه الظروف إزاء الموقف المذهل الذي اتخذته جماهير شعبنا وشعوب الأمة العربية العظيمة كلها بإصرارها على رفض قراري بالتنحي منذ أعلنته وحتى الآن، ولا أعرف كيف أعبر عن عرفاني تجاهه.

إن الكلمات تضيع مني وسط زحام من المشاعر يملك على كل جوارحي، وأقول لكم بأمانة، وأرجوكم تبليغ مجلس الأمة الموقر أنني مقتنع بالأسباب التي بنيت عليها قراري، وفي نفس الوقت فإن صوت جماهير شعبنا بالنسبة لي أمرٌ لا يُرد، ولذلك استقر رأيي على أن أبقى في مكاني وفي الموضع الذي يريد الشعب مني أن أبقى فيه حتى تنتهي الفترة التي نتمكن فيها جميعًا من أن نزيل آثار العدوان، على أن الأمر كله بعد هذه الفترة يجب الرجوع

فيه إلى الشعب في استفتاء عام، وإني لأشعر أن النكسة لا بُدَّ أن تضيف إلى تجربتنا عمقًا جديدًا، ولا بُدَّ أن تدفعنا إلى نظرة شاملة فاحصة وأمينة على عملنا، وأول ما ينبغي أن نؤكده بفهم واعتزاز وهو واضح من الآن أمام عيوننا، أن الشعب وحده هو القائد وهو المعلم وهو الخالد إلى الأبد».

صاح جدي في فرح:

- الله أكبر.. الله أكبر... لن يضيعنا الله..

واشتعلت احتفالات صوت الجماهير بالفرحة في الشوارع بدلًا من مسيرات الشجب، وهرعنا إلى البلكون ليحتفل جزء من نفوسنا الضائعة.

نظر أبي إلى أمي والأمل يملأ عينيه.

- أرأيتِ عودة ناصر؟ سوف يعود الأبطال يا وداد.

- يا رب.

حينها صاح جدي:

- لقد أتى صابر بصحبة عصام.

وضعت أمي يدها على قلبها ووقفت تنظر نحو الباب متوجسة.. ولكل منا هواجس تجعله يقف مكانه بلا حراك.

دقائق قليلة ورن جرس الباب. بقينا في أماكننا ننظر له، فتح مراد الباب فدخل صابر وقد زاد على ملامحه بؤس غريب.. وقف الجميع ينظرون إليه وكأنهم في انتظار شيء..

دخل وراءه عصام بعينين متورمتين من فرط البكاء.. ينظر إلى

الأرض مذهولًا، ثم تساقطت دموعه كسيول عارمة.. ذهب أبي ووقف بجانب أمي.. وألحت العيون عليهما أن ينطقا دون أن ينبس أيٌّ منا بكلمة.. تقدَّم صابر من أبي وأمي ببطء.. ثم نظر إليهما في شجاعة يملؤها الحزن.

- يا أبي لقد عودتنا الشجاعة في مواجهة المصائب، وعلمتنا الإيمان واستقبال قضاء الله بنفس راضية لنحتسب أجرنا عنده.

ذرف أبي دموع عزيزة صامتة.. نظرت أمي لعصام بعينين زائغتين ربما يقول ما تريد أن تسمعه.. لكنه لم يفعل أبدًا.. فأكمل صابر:

- لقد تمنى يسري الشهادة... ونالها..

نزل الخبر علينا كالصاعقة.. ولم يدخل أمي أنها فهمت أو أنها لا تريد أن تفهم فقال عصام:

- أثناء مناوبتي في مستشفى الدمرداش، كانت أعداد المُصابين والقتلى لا تُعَد ولا تُحصى، الكثير لم يستدل على هويتهم، والكثير لم يتعرف عليهم أهلهم بسبب تشوُّه جثثهم، فلنحمد الله أنه أكرمنا بمعرفة مصيره، الحمد لله أنه سيدفن بمدافن الأسرة.. شهقت هناء وانسابت دموعي فاقتربت الست أنيسة من أمي تبكي وتحتضنها، ومرت لحظات صمت ثقيلة حتى صرخت أمي هلعة:

- ابني.. مات؟؟.. يسري.. مات!!

كتم أبي فمها بأصابعه التي بللتها دموعه قائلًا:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.. لا أريد صراخًا.. يسري شهيد مع الأنبياء والصديقين.. ولدنا لم يمت يا وداد.. بل حي يرزق.. أريد

أن أراه.. هل ما زال بالمشفى؟

ارتفعت أصوات البكاء فقطعها عصام..

- رفضت إدارة المشفى أن أستلمه لينضم إلى جنازة جماعية لولا دعم زملائي، كل شيء جاهز يا أبي.. لقد جئت به إلى هنا كي نزفه من بيته.. وستخرج الجنازة بعد صلاة الظهر من مسجد «لطفي شبارة».

أشار أبي إلينا قائلًا:

- إذًا أمامكم خمس دقائق لنستعد لفرح ابننا يسري.

في مشهد لن أنساه ما حييت.. وقف جلال بوجه شاحب مُنكسر في بدلته العسكرية، تبعثرت عليها آثار دماء أمام المسجد ينتظر جثمان أخي، ويشير لأمه يطمئنها من بعيد، عقب انتهاء الصلاة كانت الحشود كبيرة.

شعب بورسعيد يحتشد في مسيرات احتفالية برجوع عبد الناصر إلى الحكم.. ونحتفل نحن بزفاف أخي الشهيد «يسري الدنون» إلى الجنة.

فلما علم الناس أن الجنازة لشهيد انضموا إلينا وكأن الله أراد أن تودعه بورسعيد بأكملها في مشهد تقشعر له الأبدان.

***

أواخر ١٩٦٧

نحت الحزن الوجوه ووصمها بعار النكسة وفقد الأحبة، وتم طلاء زجاج الشبابيك باللون الأزرق، كما بُنيت سواتر الطوب أمام مداخل العمائر، وملأت الخنادق شوارع بورسعيد للاحتماء بداخلها أثناء غارات العدو الإسرائيلي.

وتراكمت التعاسة فصار الصمت لغتنا المشتركة في البيت، فلا أحد يريد أن يتحدث أو يستمع، يكفينا ما قلنا وما سمعنا من قبل، وتعلمت كيف أصطاد الأحلام من بين حطام المدينة.. فكانت بعضها خيبات لم أتوقعها، وتوارت عن عيني أجمل الأحلام وأنقاها، حتى جلال الذي يعود في زيارته من الجيش.. لم يعد، لم يتفقد أحوالي يومًا بعد استشهاد يسري، لكنني سمعت روايات صابر وعصام عن مآسي الحرب، وكنت على يقين من هزيمة أرواح المحاربين في هذه الظروف، فمن قابل الهزيمة والموت لم يعد سويًّا كما كان، حاولت أن أطمئن عليه رغم حزني لفراق أخي، لكنه قابل كل تقرب منه بالرفض والبعد، أحيانًا بالتجريح لعلاقة مراد بالعائلة، كلُّ ما فعله هو رمقي شذرًا كلما رآني أتحدث إلى مراد صدفة، بينما مراد يفعل كل ما يستطيع ليساندنا في محنتنا.

شعر جلال أن مراد قد احتلَّ مكانه فرفضت كرامته كل مشاعرنا التي كانت، وأصبح إنسانًا لا أعرفه، لكنني رغم قسوة

قلبه وابتعاده ظلمت نفسي وبقيت على حبه وتعلقي به.

وحدهما جدي وأبي كانا يتشبثان بالأمل، فعمليات الجيش والفدائيين التي لا تنقطع يرد عليها الصهاينة بكثير من الغارات، أحيانًا أحسدهما على استمرار حلمهما وإيمانهما الطاغي رغم كل الظروف.

تعددت لقاءات عائلتنا مع عائلة جلال وازدادت محاولات مواساتنا لبعضنا البعض، حتى يوم كنا نجلس فيه في نفس الأسى وبوادر الأمل الطفيفة تحيط بنا في خوف وتردُّد حتى انطلقت أبواق الغارة ثلاث مرات تنبيهًا لخطر الغارة القادمة، تلاها صوت أحد أفراد المقاومة الشعبية أو الدفاع المدني «طفوا النور.. طفوا النور».

أطفأنا جميع الأنوار وتوجه الجميع لغرفة بمدخل العمارة حتى يكونوا بمأمن من القصف، أشعلت الشمع مع هناء وتوجهنا للأسفل، هناك وقد كانت عائلة موردخاي تستعد في حزن بالغ للرحيل من مصر، يجلسون في زاوية بعيدة وحدهم، بينما جلستنا عائلتنا وعائلة جلال سويًا، لكن أبي كان يتسلل من حين لآخر إلى عائلة موردخاي ويعود، أتى مراد آخر فرد فألقى التحية وجلس على مقربة منا قائلًا:

- لعنهم الله.. الغارات لا تتوقف أبدًا.. كل خمس دقائق غارة؟ كيف نعيش وسط كل هذا؟

قال أبي:

- يستهدفون المدنيين أملًا في إخضاع القيادة.

قال السيد شاذلي في فخر:

- لا تنسوا يا جماعة أن كل هذا بدأ منذ الأول من يوليو ١٩٦٧ في معركة رأس العش.. عندما تصدت قوات الصاعقة للصهاينة ومنعوهم من دخول بورفؤاد.. هذا ردهم.

قال أبي:

- وعمليات القوات الجوية والمدفعية وإغراق المدمرة إيلات التي قسمت ظهورهم، ثم الفدائيون وعمليات الجيش المتوالية على الحدود جعلتهم كالكلاب المسعورة.

كان مراد يستمع إلى الحديث فصاح صياح غلب أبواق الغارة.

- وما الفائدة من كل ذلك وما زالوا يحتلون الأرض؟ وأخيرًا أفرجوا عن جواسيس فضيحة لافون بدلًا من إعدامهم!

قاطعه والد جلال:

- قل لي يا بني.. هل تراني بينكم كثيرًا في العمارة؟

- قليلًا ما أراك.. لماذا؟

- هذا إجابة لسؤالك.. الجيش المصري يعمل كل ما في وسعه، لا تنسَ أنهم حاولوا أكثر من مرة السيطرة الكاملة على القناة بوضع لنشات وقوارب في القنطرة وبورفؤاد وكبريت والشط.. هل وقف الجيش مُتفرجًا؟ لقد تصدينا لكل محاولتهم حتى باءت بالفشل وكانت خسائرهم أكثر منا بكثير.. يا بني.. لا تخف على جيش مصر.. فكل من تراه منهم لا يبالي بتقديم حياته فداءً لها.. ثم إن من قُبض عليهم في عملية لافون لم يتم إطلاق سراحهم إلا ضمن صفقة تبادل الأسرى عقب النكسة، هل فهمت شيئًا؟

- أتمنى أن يكون الوضع كما تشرحه يا عمي.

قالها مُتشككًا وسط صوت الطائرات والقنابل والحديث الذي لا ينقطع عن الحرب، كان جدي يتابع حديثهم في ترقب، وكان يعلم في قرارة نفسه تعلُّقي بجلال وأثر ذلك على نفسي، فكان يراقبني دون أسئلة، جلسَتْ الست أنيسة والسيد شاذلي مع أبي وأمي وإخوتي، وجلست أنا مع جدي، على ضوء الشموع الخافت المُهتز، نظرت الست أنيسة إلى زوجها ثم إلى أمي وأبي في تثاوب وقالت:

- كانت النية أن نفاتحكم اليوم في أمر هناء يا أم صابر.

- خير يا ست أنيسة؟

- يا وداد.. الحزن على فراق الشهيد باقٍ، وما في القلب سيبقى في القلب، لكن ليس من الإنصاف أن يؤجل فرح هناء إلى الآن.

نظرت أمي إلى هناء في غضب:

- لن أقيم فرح في بيتي، أنا أم مكلومة تبكي ولدها كل يوم.. لقد خيرتها بأن يُكتب الكتاب دون ضجة فلم توافق.

أردف السيد شاذلي:

- بالطبع هذه المسألة تخصكم، لكننا نتصرف من منطلق قرابة لا جيرة، فأنا أعتبر جميع أبنائك أبنائي يا سيد أحمد.. كما أنني أعلم أن جلال واحد من أبنائك.

- بالطبع يا سيد شاذلي.. جلال شاب نادر مثل صابر.. وأنا أفتخر بهم، إنهم أبطال رفضوا مُغادرة الجيش إلى الآن.

- يقولون إنهم لن يتركوه إلا بعد النصر.. أريد أن أفرح بجلال وأرى أحفاده لكني لا ألومه أيضًا.

- بارك الله فيهم وأعطاهم ما تمنوا قريبًا.

صمت أبي قليلًا ونظر أمامه إلى اللا شيء، ثم نظر إلى أمي وكأنه يستشيرها فقاطع نظراتهما الصامتة السيد شاذلي.

- إذًا فليكن الفرح في بيتنا.. هل يضيرك هذا في شيء؟ نحن نعلم أن هناء وعريسها فصلهما عن الفرح أيامٌ من النكسة، ولولا استشهاد يسري لكانا في بيتهما.. أعطني إشارة وسوف أجهز كل شيء.

نظر أبي إلى هناء في عطف واستسلم قائلًا:

- فليكن فرح هناء يا سيد شاذلي.. نحن جميعًا بحاجة لأن نفرح بنعم الله علينا ولا ننكرها.

هلت بشائر من الفرحة لكن أمي بكت فأبكت أرواحنا في صمت، لكنني استشعرت روح يسري المرحة بيننا.. مسحت السيدة أنيسة دموعها ثم قالت:

- أعلم شعورك يا وداد.. لكن لكل من أولادك وبناتك عليكِ حق.. سيفرح يسري لأجلها كثيرًا.. ألا تريدينه أن يفرح؟

- رحمك الله يا حبيبي.. مُبارك يا هناء.

اقتربت هناء من أمي واحتضنتها باكية وأمي تربت على كتفها وتجفف دموعها، اقتربت السيدة يونا وزوجها يوسف موردخاي وقد بدت عليهما الكآبة وقالت:

- يا ست وداد.. أراكِ على خير.. لقد سافر دانيال وزوجته مع عائلتها وسوف نلحق بهما.

تركت أمي هناء وقامت تقف بجانبها تستفسر:

- كفى الله الشر.. إلى أين؟ ومتى تعودون يا ست يونا؟

كانت أول مرة ألمح في نبرة أمي شفقة وهي تتحدث إلى إحدى العائلات اليهودية في العمارة، ربت زوجها على كتف أبي وقال في حزن:

- يا سيد أحمد، أنت تعلم أن عائلات اليهود في عمارة داوود من أواخر العائلات المُهاجرة من مصر، صحيح لم تكن تربطني بعائلة واكيم أو شاؤل علاقة قوية.. لكننا كنا نجتمع للصلاة، على أي حال الهجرة لا بديل لها الآن.. لقد تحملنا الكثير منذ الحرب العالمية الثانية ورحيل الكثير منَّا، ثم حرب ال ١٩٤٨، وعاملنا الغالبية كالجواسيس منذ «فضيحة لافون» في ١٩٥٤، بعد أن عشنا في هذه البلد دهرًا لم نشعر بأي تفرقة، أما الآن.. الوضع اختلف تمامًا وقبل أن أُطرَد دبرت أموري مع أنسابي إلى فرنسا وقد سبقوني إلى هناك.

تنحنح أبي وقد بدا مُتعاطفًا أيضًا..

- أعلم موقفكم تمامًا وأقدِّر ما تمرون به، سلامي إلى دانيال يا يوسف.

- إذا وُفقنا فيما بعد لزيارات مُتقطعة سأفعل.. حسب الحالة السياسية كما تعلم، لكني لا أعتقد أنهم سيتركونني أدخل مصر مرة ثانية.

انطلق صفير واحد طويل من بوق الغارة.. فعلمنا أن الخطر قد زال، وبدأت كل عائلة تلم شمل أفرادها للصعود إلى بيتهم.. كان مراد ينظر إلى عائلة موردخاي في حيرة لم تُخفَ عليه، في حين لم تهتم بالحديث السيدة أنيسة، كانت مُنشغلة بترتيبات فرح هناء فقط، نظرت إليَّ نظرة مُشجعة وكأنها تعلم كل ما يدور في قلبي وهمست:

- أرأيتِ؟ الفرح البعيد أصبح قريبًا.. هكذا يشاء الله أن يُولَد الفرح من رحم الظلام.. هكذا يكافئ الله الصابرين.

جعلتني أتساءل عن حالي رغم أن ظروف الغارة قد جعلتني أغفل عنه قليلًا، إنني أشعر بالحزن في كل مرة يتحدث فيها أبي عن كون جلال واحدًا من أبنائه أو يبادر السيد شاذلي ويقولها بنفسه، أشعر بخوف غير مبرر من ابتعاد المسافات التي صارت تتحين الفرصة لذلك، أخاف من جلال ونفسه التي تردد كلمات غير حقيقية وتصدقها ومن ثم تتصنع القسوة أمامي فتجرحني أشد جرح.. أخاف وأتساءل لكنني لم أمتلك الجواب بعد.

***

بداية ١٩٦٨

عاد الفرح مجددًا إلى «عمارة آل داوود» بعد أن ظننا ذهابه بلا رجعة، وعُلِّقت الأنوار المُلوّنة في الحارة بين صفين العمائر، وملأت نفس الأنوار والورود شقة جلال، نُصبت الكوشة في رأس مستطيل غرفة الاستقبال، بالكثير من الورود الملونة على شكل دائرة كبيرة، وأعد الطباخون بوفيه عشاء فاخرًا للضيوف، وفُتحت أبواب الشقتين، كانت أمي ووالدة جلال وأم العريس مشغولات كثيرًا بين الضيوف والطباخين وأمور أخرى، إخوتي وأزواجهم في كامل أناقتهم، صابر ومرتضى وعصام بدوا كالفرسان، بجانبهم مراد يضع لهم العطر ويساعدهم، بينما يختلس نظرات تجاهي لم أعتَدها منه فتجاهلتها بسهولة، تأملتهم قليلًا، إذ كان المشهد ينقصه الشهيد يسري رحمه الله، ونصر أعاده الله لنا بخير، ولو بزيارة سريعة ليفرح قلب العائلة الحزين.

وقفت قريبًا من أبي الذي وقف بجانب السيد شاذلي عند مدخل الشقة يستقبلان المعازيم، قال والد جلال:

- مباركة السيارة يا سيد أحمد.

- سوف نزف بها العروسين.. لم أكن أصدق عرض يوسف موردخاي.. لقد ابتعتها بثمن بخس!

- هكذا يفعل أغلبية العائلات اليهودية في ممتلكاتهم بعد أن يتخذوا قرار الرحيل.

- إذا أردت الحق.. كانت عائلة محترمة لم تؤذِ أحدًا أبدًا، ولم نسمع لهم صوتًا قط، يجاملوننا في المناسبات وكأنهم مصريون الأصل مثلنا.. لم أفرح حقًّا برحيلهم.. لكنني قطعًا فرحت بالسيارة.

ضحكا سويًّا واستطرد والد جلال:

- هل اتخذت قرارًا بشأن التهجير؟

- أنت تعلم أنني لن أترك بورسعيد ولو كانت حُطامًا.

- أردت أن أتأكد هذه المرة، فالوضع يختلف عن ٥٦.. التهجير الآن إجباري بأمر الحكومة ومن يرفضه يتحمل تبعات قراره.. أنت تعلمها جيدًا يا سيد أحمد.

التفت أبي بكامل جسده نحو السيد شاذلي:

- يا شاذلي.. «أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة».. لن أترك بورسعيد حتى وإن كان التهجير إلى دمياط.

ابتسم والد جلال وهو يُداعب شاربه:

- جيران إلى الأبد يا سيد أحمد يا دنون..

اقترب أبي وربت على كتف صديقه قائلًا:

- بل أهل إلى الأبد يا سيد شاذلي.

- عقبال ما نفرح بحياة.

- في حياتك.. آخر العنقود.. وبذلك أكون قد سترت البنات.

كان جدي يُراقب حركتي بين البلكون والسلم وقد أسند ذقنه إلى عكازه مُتأملًا آملًا، كنت أبحث عنه في صمت.. كل الأوقات

تمر سريعًا إلا وقت الانتظار، هل يتواجد اليوم؟ لا بُدَّ أن يتواجد فقد حضر صابر كما يفعل كل فترة، أريده أن يرى فستاني وتسريحة شعري، لا تهمني نظرات الإعجاب والثناء التي أتلقاها ممن حولي، نظرته هي ما تنقصني يا ليتنا نحكم قبضتنا على قلوبنا فتصير مصائرها بأيدينا.. لكن الحب سُنَّة الحياة والقلب لا حُكم لنا عليه.

وأخيرًا أراه يصعد السلم في سرعة ببدلته العسكرية وسط الأنوار الملُوَّنة، يصعد فأشعر بنبضات قلبي تصعد معه، وتختلط الألوان من حوله في عيني، وتهل نسائم الفرح في روحي دون أن أستدعيها، عندما رآني تسمر مكانه وتأملني لحظات وابتسم لأول مرة منذ فترة كبيرة.. وتحدثت رغمًا عني:

- كنت خائفة ألا تحضر.. كُنت أنتظرك.

زادت ابتسامته واقترب مني أكثر وقال:

- هناء أحد أفراد عائلتي.

- هناء فقط؟

- لقد ازددتِ جمالًا يا حياة.

أخجلتني كلماته ولم أقوَ على النظر إليه فقال.

- أوحشتني..

- الله وحده يعلم ما يحمله قلبي.

- سوف يكون لنا لقاء ضروري في شم النسيم، سيوافق زيارتي القادمة، أما الآن دعيني أستعد لأرتدي بدلتي كي أستطيع أن أقف بجانب كل هذا الجمال.

دخلنا الشقة سويًّا فصافح جلال الجميع مُبتهجًا، وصدح صوت عبد الحليم «قولوله قولوله قولوله الحقيقة قولوله بحبه بحبه من أول دقيقة» ليرقص معه أطفال العائلات في انتظار العروسين، لاحظت نظرات مراد الحزينة لجلال إلى أن توارى عن الأنظار، فأشار لي جدي من بعيد وكانت عيناه تفيضان بالكثير.

- اذهبي مع صابر وجلال لإحضار العروسين.. سوف يحضرها عريسها من الكوافير لأخذ الصور التذكارية في الأستوديو.. لا بُدَّ من تواجد أختها معها.

فرحت فرحًا شديدًا لكن مراد قاطعنا بلكنته الشامية:

- سيارتي جاهزة لزفة العروس يا جدي.

فحسم جدي الأمر بقوله:

- لقد أتعبناك بالفعل يا مراد.. لذلك سوف يقوم جلال وصابر بهذه المهمة.

خرج جلال ليجدني أقف مع مراد وجدي فانتابه شيء من الضيق حاول إخفاءه، صاح صابر:

- جلال.. حياة.. لقد تأخرنا على العروسين.. لا نريد أن نتأخر على الأستوديو.

تقدمنا من صابر سويًّا في حين عقد مراد يديه ولاحت في عينيه غيرة واضحة، هبط صابر الدرج في سرعة وأشار إلى جلال لأتقدمه ففعلت، لكنني لمحت هيئة رجل غريب عند مدخل شقتنا فتوقفت.. إنه الحاخام يقف في يده كتاب يقرأه ويبتسم لي.. أراه كما

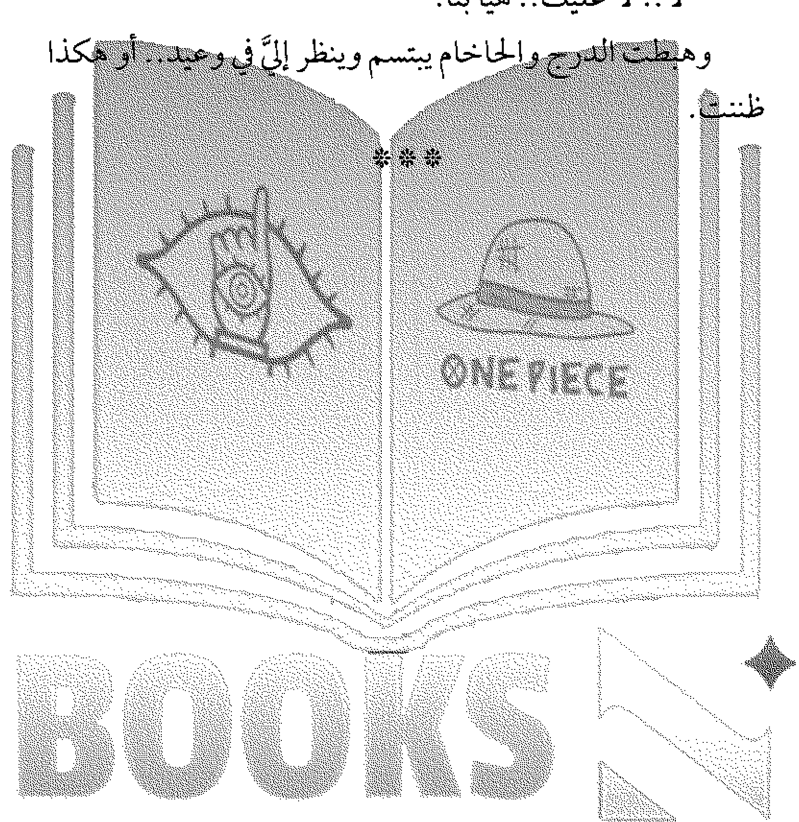
أرى كل من حولي! لم أستطع أن أتكلم.. نظر جلال إلى حيث أنظر وقال:

- هل نسيتِ شيئًا؟

- لا.. لا عليك.. هيَّا بنا.

وهبطت الدرج والحاخام يبتسم وينظر إليَّ في وعيد.. أو هكذا ظننت.

***



١٠ مارس ١٩٦٩

«عدى النهار والمغربية جاية.. تتخفى ورا ضهر الشجر.. وعلشان نتوه في السكة.. شالت من ليالينا القمر».. هكذا ملأ صوت العندليب المكان والقلوب بأمل كبير في النفس.

على هذه الكلمات جلست أتناول قهوتي مع جدي في البلكون، وقد بذل جهدًا كبيرًا لكي أبوح بما أخفيه ولم أفعل، فقد ازدادت صرخاتي في الليل وفزعي من النوم لم يعد يتوقف، حتى صار جدي يؤجل نومه كي يطمئن عليَّ أولًا ولكن دون فائدة، لن أنسى آخر مرة التي استيقظت على كابوس سمعت فيه صوته يأتي من اتجاه مدخل الشقة، عند الساعة العتيقة اللعينة، وهرعت إليها فوجدته جاثيًا على ركبتيه أمامها مُوثَّقة ذراعاه من الخلف، والحاخام الأكبر الذي حذرني من قبل يُمسك بشعر رأسه ويتلو بلغة عجيبة من كتابه.

ورأيت رقبته وقد ذُبح نصفها والدماء تسيل منها تملأ الأرض في جداول صغيرة حتى تصل إلى قدمي. تعرقت وارتعش جسدي كله، صرخت عدة صرخات عالية متتالية.. فوقعت الشمعة في الدماء وانطفأت، حينها التفَّت أصابع رفيعة طويلة لزجة حول رقبتني تخنقني.. فلم أعلم كم من الوقت مضى وأنا أصرخ في هلع..

وعلى صوت حليم أنتظر الثأر لأخي من الصهاينة، النصر الذي سيعيد إليَّ جلال، هكذا أنتظره بشوق ملأني منذ النكسة، أشعر بهذا كل يوم بينما الجميع منهمك في روتين يومي لا يتغير، أمي تشرب قهوتها مع إحدى أخواتي في مكالمة تليفونية طويلة بعد الإفطار، وأبي يذهب لعمله في الصباح الباكر، يصحو بعدها مرتضى ليذهب إلى محله بعد أن امتهن التجارة، وعصام في القاهرة لحضور المحاضرات، أسمع أمي تقول لبدر إنها قلقة أن يفوتني قطار الزواج بعد أن أتممت الثامنة عشرة وصرت قريبة من سن العشرين.

رن جرس الباب رنة طويلة أزعجتني وأفاقتني من أحلامي الصباحية وحديث أمي المعتاد.. وسمعت صوت مرتضى مُتأهبًا للخروج:

- أهلًا مراد.. تفضل.. جدي في البلكون.. للأسف لا بُدَّ أن أذهب لميعاد هام في الميناء.. هل تريد شيئًا يا جدي؟

نظر إليَّ جدي غير مرتاح وصاح:

- تعال يا مراد.

لم أفهم نظرات جدي لكن مراد أتى في سرعة البرق وسمعت صوت الباب يُغلق وأمي ترحب به.. في البلكون دار حوارهما.

- صباح الخير يا جدي.. جئتك بالجرائد كلها كما طلبت.

- كتر خيرك.

- أحزنني مقتل الشهيد الفريق عبد المنعم رياض بالأمس جدًّا.. هذه الأخبار تجعلني أشك في النصر على اليهود.

تصفح جدي الجرائد فاتسعت ابتسامته وقال:

- نحن الفائزون يا مراد في جميع الأحوال.

- كيف والأرض تضيع هنا وهناك؟

- نستشهد فنربح الجنة أو ننتصر فنربح الأرض والجنة بمشيئة الله.

بدا مراد غير مقتنع كثيرًا فقال جدي:

- دعني أريك شيئًا يسعد قلبك، الشهيد «عبد المنعم رياض» اختاره الله البارحة في التاسع من مارس.

- وهل هذا يسعد قلبي؟!

- اقرأ بنفسك.. في نفس اليوم خرج عليهم رجل الصاعقة الهُمام «إبراهيم الرفاعي» ولقنهم درسًا لن ينسوه أبدًا.

- ماذا فعل؟

- ماذا فعل! اقرأ.. لقد احتل ورجاله موقع المعدية «٦» التي أطلقت منه القذائف التي كانت السبب في استشهاد عبد المنعم رياض في نفس صبيحة استشهاده.

- وماذا فعلوا؟

- لقد أباد البطل كل ضابط وجندي في الموقع والبالغ عددهم أربعة وأربعون جنديًّا..

- أنا لا أصدق.. يا الله..

- صدِّق يا مراد صدِّق.. يقولون إنه عندما عبر القناة عائدًا أهداه ضابطًا من المخابرات شريط تسجيل لأصوات الإسرائيليين يمتلئ بصرخات استغاثة كالنساء.

صحت رغمًا عني:

- الله أكبر..

سالت دموع مراد من الفرحة وقال:

- بشرك الله بالخير يا جدي.. هذا صباح جميل.

- جميل جدًّا.. لكن ألن تذهب لعملك اليوم؟

- طبعًا سأذهب.. لكن في حقيقة الأمر أريد أن أستشيرك في شيء قبل أن أفاتح عمي أحمد.

نظر جدي في شك إليه ثم إليَّ وقال:

- اجلس يا مراد.. اتركينا قليلًا يا حياة..

- لا.. لا داعي.. أردت أن أستشيرك في أمر المقهى.

- بكل سرور.

- لقد اشتريت المقهى من الخواجه ميتشو بالصدفة البحتة كما أشرت لعمي أحمد من قبل، تقريبًا بكل ما أملك، والآن أعيش منه.. لكنني أطمع في أن يتطور ويصير سابقًا لزمنه قليلًا حتى يأتي بثمار أستطيع بها خدمة قضيتي الأساسية.. تحرير القدس.

ضحك جدي مُستهينًا بقول مراد لكنه استدرك قوله:

- يا بني.. تحرير القدس لن يأتي من إيراد مقهى في بلد صغير مثل بورسعيد..

- لكنني لست وحدي، لو عمل واتحد كل مقدسي وعربي بطريقة ما على تحرير القدس في إخلاص لحررناها.. أنا أريد تمويل أفراد المقاومة، سوف أجتهد وأنتظر ما يعطيني الله في المقابل.

- إذا افترضنا أن هذا الكلام جائزٌ.. فما علاقة عمك أحمد به؟

- أريد مُشاركة عمي بضخ مبلغ من المال لأطوِّر من المقهى لتصبح مقهى أفرنجي بدلًا من مقهى بلدي، كمقهى ريش في القاهرة، سيكون سابقة في بورسعيد وسيرتاده أغنياء المجتمع بلا شك.

- لكن أغنياء بورسعيد قليلون.. حري بك شراء مقهى في القاهرة، سيرتاده حينها الكثير من الفئات.. ثم أن هناك بالفعل هذا النوع من المقاهي هنا وله زبائنه.

- لكنه لا يجتذب العديد من الفئات.. أنا أؤمن أن بورسعيد بلد مثقف وواع، وبها هذا النوع من الزبائن لكنهم يفتقدون المكان الصحيح.. سيكون للمكان شهرته المميزة خاصة وأن موقعه مميز.

- أبناء المقاومة الشعبية كلهم متعلمون ومثقفون وعلى درجة من الوعي، لكنهم لا يجتمعون إلا في المقهى البلدي الذي تريد أن تغيِّره أنت.. بحكم خبرتي مع أهل بورسعيد أنصحك ألا تفعل ما تخطط له.

صمت مراد وأراد أن يقول شيئًا لكن جدي لم يعجبه الحديث فانصرف بحجة واهية، تجاهَل مراد رغبة جدي في انصرافه، وشعرت أنه يريد أن يتحدث معي على انفراد.. وقد كان تخميني صحيحًا، فبعد أن انصرف جدي قال:

- أردت كثيرًا أن أسألك عن هذا الحاخام وجدك وما يحدث معكِ.. لكن من الواضح أنكِ تتجنبين الحديث معي.. هل ما أشعر به حقيقي؟

لم أجِبه.. فأكمل:

- أشعر أن جلال هو السبب.. هل أنا مُحق؟

- نعم.. لا أريد أن أزعج مشاعره.. كفاه ما هو فيه.. ربما يظن أن بيننا شيئًا.

هكذا أجبته في تلقائية ووضوح فقال وقد بدا عليه الغضب للمرة الأولى، لكنه كان يجاهد نفسه في إخفاءه عني بلا فائدة:

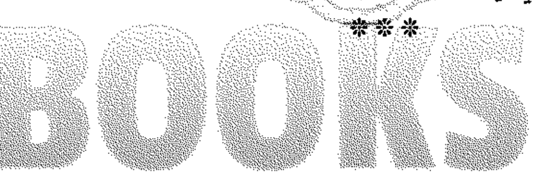
- حسنًا.. لماذا لم توضحي هذا منذ البداية.. سأتفهم موقفكِ.

أردت أن أبدل الحديث عنا للحظات إذ بدأت نظراته تشعرني بالحزن والقلق في آنٍ واحدٍ، وقلت له:

- أنا لا أنام إلا بعد أن يرقيني جدي هذه الأيام، لا أريد أن أتحدث عما رأيته.. لكني أريد أن أهدأ وأنسى.. صدقني إن الخوف الذي بداخلي له اليد العليا عليَّ في تلك الأيام، ولا أريد أن يزداد الضغط عليَّ من كل مكان وسأقدِّر تفهُّمك فعلًا إن كنت تعنيه.

- أعنيه يا حياة أعنيه.. لا تقلقي فأنا لن يشغلني سوى أمر المقهى من الآن، تمني لي التوفيق.

***



أبريل ١٩٦٩

استعدت المدينة لاستقبال «شم النسيم»، عُلقت دُميات بهيئة «اللورد ألنبي» المصنوعة من القماش وقصاصات الورق الملونة في جميع الشوارع، وفاحت رائحة أسماك الرنجة والفسيخ والبصل في كل مكان، كما استعدت الشواطئ والحدائق التي يرتادها أهل البلد اليوم للاحتفال.

كان أبي في مزاج جيد لأنه استطاع أن يشتري المقهى الذي يؤجره من مالكه، أصرت أمي ألا يعلم أحد خوفًا من الحسد، لكن هيهات.. بورسعيد لا تنام وفي جوفها أسرار، كنا في المنزل نستعد بتحضير وجبات اليوم بأكمله في رحلتنا السنوية، وقفت مع جدي في البلكون بينما يراقب دُمية «ألنبي» لحارة اليهود، التي علقها ساكنوها الجدد من المصريين، بعد أن تركها مَن تركها من اليهود وغادروا مصر.

شردت قليلًا وقُلت لجدي:

– لقد اشترى أبي التليفزيون بعد إلحاح كبير، ومع ذلك لا تشاهده أمي إلا قليلًا ولا تدعني أشاهده إلا معها!

– وداد تخاف عليكِ يا حياة.

– تخاف من التليفزيون؟ لم أعد صغيرة يا جدي.

– أعلم جيدًا.. السنوات تسبقنا دائمًا، لكن لا تقولي لأمك

أنا كبرت، تسعة عشر عامًا في عرفها تعني أنكِ لا بُدَّ أن تتزوجي البارحة.

- ألا تريدني أنت أن أتزوج؟

- هذا يوم المُنى.. ولكني فقط أدعو الله أن يكون عريس آتمنه.

كان مُستندًا بكلتا يديه إلى سور البلكون حين سمعنا ضجيجًا عاليًا يأتي من الشارع بالأسفل، ضجيج يشبه عراكًا بين مجموعة من الأشخاص لكننا لم نستطع تبين مكانهم أو مصدر الصوت، وظللنا ننظر لبعضنا البعض حتى اهتدى جدي إليه قائلًا:

- أظن أن الصوت قادم من مدخل العمارة.

فأجبته ونبرة صوتي تتهدج من شدة الصوت خوفًا من أن يكون أحد إخوتي من يتورط في هذا العراك:

- إذًا هيًا بنا لنرى ما يحدث.

هبطت الدرج سريعًا بعدما فتحت الباب دون أن أعير اهتمامًا لصياح أمي من خلفي وطلب جدي بأن أتمهل.. هل هذا صوت جلال؟ مهلًا أعتقد أنني سمعت صوته، لن أتوه عنه بالطبع! ظللت أتتبع الصوت إلى أسفل الدرج حتى اهتديت إليه.. إنه جلال بالفعل، جلال جاء من الزيارة، ولكن ماذا يفعل!!

كان وجهه يبدو مشحونًا بالغضب ويحيل بينه وبين الشخص الذي يتعارك معه جسدُ أبي الهزيل الذي لا يقوى على فض هذا الاشتباك الغريب! هرولت إليهم وأنا أخشى الاقتراب في آنٍ واحدٍ أتبين وجه الشخص الذي يتعارك معه.

وإذا به مراد يظهر من العدم ويحاول إحكام قبضته بقميص جلال وهو يصيح:

- هل تظن أنني لن أقدر على شخصٍ مثلك؟

بينما يعلو صوت أبي في وسطهما ومن خلفه غرباء من المقهى ربما أو مارة من الشارع لم أعد أعلم!

لكن جلال لا يعبأ بأي شيء سوى الرد على مراد بأفعالٍ لا بكلمات.. يا إلهي المشهد الوحيد الذي خشيت أن أختبره حقًا ها أنا أعيشه وأستشعر العذاب الذي تصبه عليَّ نظرات أبي من بعيد.. أتعذب في صمت ولا أقوى على الاقتراب فأنا أعرف بنسبة مائة بالمائة أنني السبب فيما يحدث لكن الإنكار هو حلي الوحيد.

لم يهدأ كلٌّ منهما إلا حينما وصل جدي بعدما سار على مهله متكئًا على الدرابزين درجة درجة حتى بلغ أيديهم الحمقاء وبدأ يفض الاشتباك على طريقته في صمتٍ جعل جلال ومراد يستجيبان له دون نقاش.. حتى أخبرهما أن يتبعاه إلى فوق على الفور.. ومن ثم التفت إليَّ وأشار لي بأن أصعد أولًا كي لا أسير إلى جانبهم حتى.

خفت كثيرًا من ذلك المشهد ومن ردة فعل أبي وأمي لكنني حاولت جاهدة أن أخفي هذا الخوف وأسرعت إلى أعلى ولم أستطع سماع ما دار بينهما في البلكون بعدما اصطحبهما جدي إلى هناك. حاولت التلصص عليهم لكن نظرات أبي كانت تلاحقني في كل مكان حتى جعلني أتلكأ في الكلام وأنا أسأله أملًا في تهدئة الأجواء!

- أبي، هل تعلم لِمَ حدث ذلك؟

فنظر إلى نظرة تعرِّيني من داخلي لكنه لم يرد إلا بعد فترة وكأنه شعر أخيرًا أنه لا ذنب لي في كل ذلك.

- لم يحدث شيء يا حياة، جاء مراد إليَّ كي يفاتحني في موضوع المقهى لكنني فوجئت بجلال يحاول إثارة غضبه بالسخرية من الفكرة برمتها، عندما تقابلنا جميعًا وحكيت له وكأنه يتعمد ذلك.. لا أعلم لكن الولد لم يفعل شيئًا لكل ذلك!

قالها أبي في نبرة أسى توضح كيف كان توافقًا لمسألة شراء المقهى لكنه غضب كثيرًا مما فعله جلال، لم أستطع الرد عليه إذ خرج جدي بهما من البلكون ورمقني كل منهما بنظرة سريعة عابرة لكنها بألف معنى مما جعلني أسرع إلى الجلوس بجوار أبي كي لا يمتلكا فرصة الحديث معي رغم أنني أعرف أنهما لن يجرؤا على ذلك.

ودخلت لجدي الذي عاد لمكانه سريعًا أسأله:

- قال لي أبي إن جلال من بدأ! هل هذا صحيح يا جدي؟

فابتسم ولم يعلق، بينما أراد تغيير دفة الحديث فالتفت إليَّ مبتسمًا..

- أتذكرين حديثنا عن «اللورد ألنبي»؟

- بالتأكيد.

- توارثت الأجيال هذه العادة حتى أصبحت من التراث الشعبي لأهالي بورسعيد.. لكل شارع وكل حارة ألنبي خاص بهم، انظري.. لقد أنزلوا الدمية.

فهمت من كلامه أن ما قاله أبي صحيح وأنه حاول حل المسألة في هدوء وامتصاص غضب جلال الذي يبدو أن كرهه لمراد صار صريحًا الآن.. فأخفيت قلقي في داخلي ونظرت إلى حيث يشير، كان أبناء المقاومة الشعبية يسيرون في موكب مبهج، يرفع أحدهم دمية كبيرة على هيئة «اللورد ألنبي»، ويلتف حولهم جميع فئات الشعب لينشدوا: «يا ألنبي يا بن حالنبوحة.. دي حكايتك صبحت مفضوحة».. والأطفال يرددون وراءهم الكلمات فرحين لا يعلمون حقيقة هذا الألنبي الظالم، لكنهم يستمتعون بفضحه كل سنة، وبعد انتهائهم من مراسم الاحتفال قاموا بإشعال النار في الدُمية، واشتعل الصياح بين المُجتمعين فكانت تتداخل أصوات كثيرة قادمة من خارج الحارة إلينا.

رمقني جدي في حب وكأنه يعلم كم الصراعات التي صارت تسبح بداخلي وقال:

– هل ما زلتِ تحتفظين بالسر الذي جعلك تصرخين في وسط الليل عن جدك؟

أشحت بوجهي بعيدًا ثم نظرت له في ثبات:

– كابوس فظيع يا جدي وأنت علمتني ألا أسرد الكوابيس.

رن جرس الباب فأنقذني من سؤاله.. فتحت أمي الباب في فزع بعد ما حدث منذ دقائق فدخلت الست أنيسة وكأنها تحاول التكفير عما فعله جلال بطريقتها الخاصة وتعيد اليوم إلى نصابه الصحيح.

- نحن جاهزون يا أم حياة، الخبز والخس والجزر والخيار.. الترمس والحمص أيضًا.. والمياه والعصائر الباردة.

- وأنا جهزت الرنجة والفسيخ وترمس الشاي.. هل سيأتي جلال؟

- لا أظن لكن من الممكن أن يلحقنا إلى هناك.

- عظيم.

ينادي عصام من الأسفل:

- السيارة جاهزة يا حياة.. أخبري الجميع.

قاد أبي السيارة إلى طريق «الترعة الحلوة» بالقرب من القنطرة، على أن يستقل صابر وزوجته وابنهما سيارة خاصة، وعصام ومرتضى سيارة مع والد جلال. في الطريق قالت أمي إن جميع أخواتي وأزواجهن سوف يلحقون بنا، كما أنها دعت مراد أيضًا ليمضي اليوم معنا كي يأنس بنا.

لكن أين جلال؟ اليوم ميعاد لقائنا كما وعدني وها هو يبدأه بعراك سخيف لم يكن له ضرورة أبدًا، أخشى أن يكون ما حكاه لي أبي غير صحيح وأن ما أزعج جلال هو شيء أكبر بكثير، شيء ربما لن يجعله يأتي إن علم بوجود مراد هنا، وحتى لو جاء هل سيمنحنا الوقت قليلًا من الخلوة وسط كل هذا الجمع الغفير؟

الشمس مُشرقة والجو بديع، حقًّا أحب الربيع بكل ما يحمله للنفس من بهجة، يحب الإنسان كل ما يدق على وتر الأمل في جوفه، يحب أن يحلم ويصدق أن أحلامه ليست ببعيدة، وأنها لا

بُدَّ ستتحقق يومًا ما، ثم يعيش على هذا الأمل ينتظر ما تمنى ولو تكلف الأمر دهرًا، إنه الشغف الذي يبقيك مستيقظًا ويدفع بك إلى الجنون.

فرشت الملاءات على أرض الحديقة الوارفة، وجلست بجانب أمي والست أنيسة، وجلس الرجال مع أبي ووالد جلال على المقاعد الخشبية المخصصة للزوار بجانبنا، حينها ظهر من بعيد شاب لم أتبين ملامحه وأشار إلينا مُلوحًا. ظننته جلال في البداية لكنه لما اقترب عرفت أنه مراد.

جلس الجميع يتحدثون في كل شيء، يداعب الجميع أحفاد العائلة، ويسرد الآباء جمال الأيام الخوالي، ويمقتون أيامنا نحن التي لا بَركة فيها، شردت أمي وبكت لأنها تفتقد صوت المرح الذي لم يغِب عنها أبدًا طوال إحدى وعشرين عامًا، وهي عمر أخي يسري عندما استشهد في ٦٧.

لاحظت أن مراد ينظر لي على استحياء بإحساس الراغب في الحديث ويحرص ألا أشعر به، لكن مشاعر الحب تتسرب رغمًا عن الجميع، وتفضح صاحبها، تجعلك تشعر بكل شيء دون حديث.

جاء وقت الغداء وبدأت أفقد الأمل في رؤية جلال، وعندها فقط ظهر من بعيد ولم أشعر بابتسامتي التي غابت وهي تنفرج أخيرًا، وفضحتني مشاعري، عندها لاحظت غياب ابتسامة مراد، التي ارتاحت في غياب جلال كما أظن، لكن جدي كان مُراقبًا جيدًا لنا جميعًا رغم تظاهره بعدم الاكتراث لشيء، أقبل جلال

علينا مازحًا أو ربما يحاول أن يظهر لا مبالاة منقطعة النظير كعادته.

- أنا جائع.. أين الفسيخ؟

حينها اقترب منا مراد قائلًا:

- دعوني أساعدكم في تحضير الوجبات للجميع، أراهنكم جميعًا أنني أسرع منكم.

رمقه جلال في ضيق ولم يعلق وكان بينهما لغة صامتة لا يفهمها غير الشباب في عمرهم، لغة تبدو مخيفة في جميع الأحوال، انضم مراد إلى الرجال، في حين نظرت له أنا في اندهاش! فما كان منه إلا أن اقترب مني أكثر مُصطنعًا إعداد الطعام وقال في صوت خافت:

- أعلم أنك تريدين الانفراد قليلًا بجلال.. سوف أساعدك في هذا الأمر اليوم، رغم أن ما فعله لا يغتفر.

اندهشت منه أكثر فلا أجد مبررًا واحد لما يفعله، لما يساعدنا رغم أنه يبادله الكره دون أدنى شك؟.. هل حقًّا يجعلنا الحب نضحي بهذا النُبل، ظلَّ جلال على غير طبيعته مع مراد رغم محاولاته التقرب منه والتي ربما كانت تأتي معه بنتيجة عكسية تمامًا، ومع ذلك مضى اليوم في سلام، لكنه كان أكثر عددًا وأقل بهجة بغياب الشهيد.

بعد الغداء كان الجميع في حالة وخم، فانضم الجالسون على المقاعد الخشبية إلينا على النجيلة يستظلون تحت ظل شجرة كبيرة يحتسون الشاي، وانشغلَتْ كل عائلة صغيرة بحديثها، فلما بدأت أشعة الشمس في الانحسار قال مراد:

- هيًّا بنا يا شباب لنتمشى قليلًا عند الترعة.. لن نمضي اليوم ماكثين على النجيلة.

نظر إليه إخوتي في كسل فقال صابر:

- سألحق بك بعد برهة.. التهمت كثيرًا من الفسيخ.. لا أستطيع أن أتنفس.

- وأنت يا عصام؟

- كأخي تمامًا يا صديقي.

- لم يعد إلا مرتضى وجلال وحياة.. ومرتضى بالفعل نائمٌ.. فلنتمشَّ قليلًا قبل الغروب.

نظرت أمي إليَّ مُشجعة لكني خفت من أبي فترددت في القيام من مكاني، نظر جدي إليَّ وقرأ رغبتي فالتفت إلى جلال آمرًا:

- هيًّا يا جلال لتأخذ حياة في نزهة قصيرة عند الترعة مع مراد.

كانت أمي تعلم جيدًا رغبة جدي في ارتباطي بجلال، لكنها لم تباركها لعدم جدية جلال في نظرها، لقد بدأت ترى في مراد عريسًا مناسبًا ومقدامًا، فلاحت عليها تعبيرات ضيق تكتمتها ببراعة.. وحدي أنا أفهمها، نظر جلال إلى جدي في لوم وقال:

- أوامر يا جدي.

مشينا تجاه الترعة يأخذ جلال موقعه بيني وبين مراد، فلما غاب طيفنا عن الجمع، نظر مراد لجلال وابتسم فقال:

- هل أنت مرتاح الآن يا صديقي؟

نظر جلال بطرف عينه إلى مراد وكأنه يضطر للحديث معه:

- أنا لست صديقك، وأنت تعلم ذلك جيدًا.

- حسنًا حسنًا، فلنغير الموضوع.

في الحقيقة كانت تدهشني برودة الأعصاب التي يتحلى بها مراد كثيرًا، فهو أمر لم أرَه لا في جلال ولا في أبي ولا في أيٍّ من إخوتي، ربما في جدي أحيانًا لكن أي رجل آخر في عائلتنا فلا، غريب أمره لكنه يثير فضولي كلما تحدث رغم ذلك.. كنت أنظر إليه مندهشة من صبره لكنه راح يبذل جهدًا مضنيًا في محاولة فتح حديث يجذب انتباه جلال مرة أخرى قائلًا:

- أظن أن الوضع بات مُشتعلًا الآن.. المقاومة الشعبية والفدائيون، عمليات الجيش السرية على أشدها على الجيش الإسرائيلي.. أتمنى أن تأتي بثمارها قريبًا على إسرائيل بأكملها.

نجح مراد في مسعاه حين جاء على ذِكر إسرائيل إذ انفعل جلال وحاول السيطرة على أعصابه ليجيبه بهدوء اعتبارًا للوجودي بينهما:

- أنا لا أحبذ قول «إسرائيل» يا مراد.. هي «الكيان الصهيوني» فحسب، مجموعة من الطغاة شكَّلت عصابة دولية تملك الكثير من المال والنفوذ لتقضي على العرب.

- ما يدفع بي للجنون أنهم يتحركون في حذر ونظام.. لماذا لا نتعلم منهم؟

- نتعلم منهم؟! كُنت أظنك فلسطينيًّا تعرف تاريخ عروبتك جيدًا!! هؤلاء المشتتون في الأرض جمعوهم للسطو على أراضينا، ولولا قيادة ودعم بريطانيا منذ ١٩١٥ لما كان هذا الكيان القذر.

لاحت علامات الحزن والضيق على مراد حتى اختنق وقال:

- لعنهم الله كما شرَّدونا.. يا الله لقد نسيت ميعاداً هامًا في المقهى.. فلتعتذرا لهم جميعًا لا بُدَّ أن أنصرف الآن.

أردفت في شفقة عليه:

- أي ميعاد يا مراد.. الجميع إجازة في شم النسيم.. فلتبقَ معنا قليلًا.

- المقهى لا يملك رفاهية العطلات، نحن نعتمد على إيراد كل يوم بيومه.. عن إذنكما.

أطلق مراد العنان لقدميه وكأنه يهرب من كلمات جلال التي تلاحقه كالسهام المسمومة، فنظرت إلى جلال في غضب:

- هل لك أن تنحي مشاعرك جانبًا ولا تطلق كل هذه السموم في وجه الرجل؟ يكفي ما فعلته صباح اليوم! لماذا تسدد له اتهامًا وتسرد له واقعًا مريرًا يعيشه.. ألا يكفيك أنه فقد كل أهله وهاجر إلى أرض غريبة؟

- لقد انتظرت كل هذه الفترة كي أراك.. ويا ليتني ما فعلت لأراك تدافعين بحرقة عن رجل غريب، الآن تبين كل شيء، واجهي نفسك بالحقيقة يا حياة. أنتِ تحبينه حقًّا.. أليس كذلك؟

- هذه أوهامك التي تصدقها، هذا الذي تظنني أحبه هو من رتب لنا الآن لقاءنا منفردين الآن لأنه يعلم بحبي لك.

اندهش جلال ثم التفت ينظر إلى الترعة عاقدًا حاجبيه فاستطردت قائلة في غضب:

- وهو الذي يقف بجانبي فيما يحدث من غرائب في الشقة،

هل تذكر الرجل الذي رأيناه على سطح العمارة سويًّا؟

- رأيته وحدك.. أنا لم أرَ شيئًا لأنه لم يكن هناك أحد.

- حسنًا.. هل تذكر اليوم الذي رأيتني فيه أصرخ بعد منتصف الليل ولم تكلف نفسك عناء السؤال عني؟ هل تعلم أن هناك سحرًا أسود في البيت؟ أنا على يقين من ذلك.. ولهذا كنت أرى حاخام في البيت يحذرني ويريد إيذاء جدي.

- رجل على السطح وسحر أسود وحاخام؟ خيال خِصب..

- كنت أعلم علم اليقين أنك لا تحبني، ومع ذلك لم أكرهك، فما كنت لتستحق أن أحبك أو أكرهك.. من يحب بحق يصدق حبيبه ويسانده.

- يقينكِ كاذبٌ.. كل ما في الأمر أنني لا أجيد التعبير عمّا يدور بداخلي.. ولا أؤمن بالشعوذة.

- هل تعلم أن مراد قد وعدني بالمساعدة في أمر الشعوذة هذه؟

- آآآه.. الأمر يتعلق بمراد ثانية.. حسنًا فليساعدك على حل اللغز الكبير الذي لا حل له.. أما أنا فوقتي للجيش والنصر الذي لا بديل له، نحن نخسر الأرواح كلَّ يوم على الجبهة لنرسل رسائل واضحة للصهاينة، لنؤكد أن أرواحهم ستكون ثمن بقائهم في سيناء، وفي الوقت نفسه نبُث روح الحماس والقتال في الجنود، إنها حرب الاستنزاف.. نبني جيشنا من جديد، جئت أحدثك عن مستقبلنا في بلد تكافح من أجل حريتها، أفكر مائة مرة قبل أن أرتبط بكِ فتصبحين أرملة بين ليلة وضحاها، وأنت تلومينني

لأشياء تافهة تقبع داخل عقلك أنت وحدك من أثر الرفاهية، بمنتهى الصدق.. لا وقت لدي للخرافات .

- حسنًا.. فليساعدني مراد لأتخلص من تفاهاتي ولتبقَ أنت على الجبهة.

- هل هذا ردك؟ هل هذا ما تساعديني به لأواجه الصهاينة.. الصهاينة الذين ظلَّ جدك يروي تاريخهم لنا منذ الصغر.. الصهاينة يحتلون البلد ونحن نفتدي الأرض بأرواحنا.. وأنت تتمسكين برأي غريب مشعوذ يقنعك بالخرافات وبأن هلاوسك حقيقة.

- مراد لم يعد غريبًا بيننا وأنا لم تصِبني الهلاوس، وأنت لن تصدقني ولن تشعر بي.

- لكن مراد يفعل؟ حسنًا.. لنعود الآن إليهم، لا أريد أن أتحدث أكثر من ذلك.

عند عودتنا بعد الغروب كان إخوتي يأخذون كل شيء إلى السيارة، وانهمك كلٌّ فيما يفعله، وقرأ جدي وأمي كل ما حدث في وجهي ووجه جلال وغياب مراد.

***

أوائل ١٩٧٠

طنين صوت الحاخام اللعين «أخبريه أن يترك ما يخفيه».. لم يتوقف في أذني طوال الليل، حتى استيقظت في إرهاق أفكر ما الذي يخفيه جدي ويريده الحاخام؟ وهل حقًا لهذا الحاخام وجود؟ هل حقًا هو سحر أسود كما قال مراد؟ استقبلني صوت أمي الغاضب وهي تفتح ستائر الغرفة:

- صحي النوم يا هانم.. اقتربت الساعة من العاشرة صباحًا.

- صباح الخير.

- لا أظنه خيرًا يا بنت أحمد الدنون.

- لماذا يا أمي؟

- لأنني أظنكِ تستعدين لمرحلة لن أسمح بها في العائلة.. شهور قلائل ويصبح عمرك عشرين عامًا بالتمام والكمال.. وستصبحين...

- بورًا.. علمت يا أمي.. سأصبح بورًا وأنا سعيدة بذلك.

- إذًا فلتعلمي أنني أعلم تعلُّقك بجلال الذي لا فائدة منه، إنه حتى لا يهتم بك في زياراته المتقطعة، كل ما يفعله نظرات هنا وهناك.. هل ستتزوجين النظرات؟ لا أنكر أنني أحبه كابنٍ لي وكُنت أتمناه لمعرفتنا الوثيقة بأهله، كما أن أمه تحبك وتتمناكِ لكنها لا تملك كلمة على ابنها، إذًا هي مسألة مُنتهية.. سيضيع شبابك في

انتظار من لا أمل فيه.

- وما المطلوب مني؟

جلست أمي بجانبي وتغيرت نبرة صوتها.

- أريدك أن تنتبهي لنفسك يا حياة، فلن يعمر أحد منا لك، انظري حولك ببساطة.. الجميع تزوج أو أنه في طريقه إلى ذلك، يا حبيبتي من يشتريكِ اشتريه، هكذا هي الدنيا يا ابنتي، صدقيني.. لا شيء يحول بين الرجل وبين ما يريده، الرجل إذا أراد شيئًا مد يده ليأخذه مهما كانت الصعوبات، لكنه إذا ما تمطع وتثاقل وتحجج فأجَّل وامتنع.. فاعلمي أنه حتمًا لا يريده، سوف تثبت لكِ الأيام صحة قولي، فقط أتمنى أن تتنبها قبل أن يفوت الأوان.

أخافتني كلمات أمي أكثر من كلمات الحاخام، وآلمت نفسي كثيرًا، هذا معناه أن شعوري بجلال شعور خاطئ.. أفاقني صوت أمي مرة ثانية:

- ما له مراد؟ أراه يتودَّد إليكِ وإلينا.. يشتري خاطرك ويعاملك باحترام، المرأة تستطيع أن تتزوج بلا حب، لكنها لا تستطيع أن تتزوج بدون اهتمام واحترام، لأن بهما يأتي الحب.

- هل تريدين مني أن أتقدم لمراد الذي يتودد إلينا؟

- أريدك أن تعامليه مثلما تعاملين جلال وهو سيفعل.. هل فهمتِ أم أنني أتكلم مع صنم؟

قاطعنا صوت عصا جدي صائحًا:

- يا حياة... أين قهوتنا؟

نظرت أمي باتجاه صوته قائلة:

- لقد أفسدك دلال جدك لك ولم ننتبه.. هيًا اذهبي إلى السوق لتحضري السمك من عم مصري، ثم إلى الطرابيشي لتأتي بطربوش أبيك.

- لم يعد أحدٌ يرتدي الطربوش إلى الآن!!

- لا شأن لكِ بهذا.. أبوك يرتديه، افعلِ ما أمليه عليك دون نقاش.

- أصنع لجدي القهوة وأذهب.

بسرعة.. أريد تجهيز كل شيء قبل عودة أبيكِ وإخوتك.. ستساعدني آمال لحين عودتك، كما أن عصام على وصول من الجامعة بالقاهرة.. وصابر في زيارة أريد غداءً مميزًا من أجله.

جهزت الغداء في تمام الثانية والنصف عصرًا كعادتنا التي لم تنقطع أبدًا، كحال البلد كلها، فطور باكرٌ.. غداء باكرٌ ثم قيلولة، عشاء باكرٌ ونوم باكرٌ ثم تصحو البلد بأكملها من جديد في وقت باكر أيضًا.

لكن أبي حضر واجمًا ولم يكن الحال يختلف مع إخوتي، وصاح في أمي:

- لقد دعوت مراد للغداء.. هذا المسكين وحيد وبائس.

تهلل وجه أمي فرحًا وقالت وهي تنظر لي:

- خيرًا ما فعلت يا سيد أحمد.

على الغداء كان الأمر روتينيًّا ومملًا بعض الشيء، الجميع

يتحدثون عن السياسة بلا انقطاع، في حين يحاول جدي التغيير لكن الدائرة تدور وتقف عند ما يحدث في فلسطين المحتلة الآن.

رائحة البخور الغريبة ملأت الشقة من جديد، نظرت حولي مُرتعبة، لا شيء غريب، لكن هناك عند مساحة الحائط الخالية تظهر نجمة داوود التي كان يبكي عندها حاخام، النجمة تظهر وتختفي، لكنها ظهرت بوضوح الآن ولم تختفِ وبقيت عيني مُثبتة عليها وتوقفت عن تناول الطعام، لم يلتفت أحدٌ لي إلا جدي ومراد.. نظر مراد إلى الحائط وقد فهمَ أن شيئًا ما ورائيًا يحدث الآن.

نظر إليَّ وأشار إلى الطعام في إشارة إلى أن أكمل غدائي، لكنني لم أستطع أن أفعل، دقت الساعة العتيقة مرتين فالتفتُّ نحو الصوت.. قال صابر:

- يغمرنا إحساس الغرق أحيانًا، لكننا نرى البر عند عمليات الصاعقة الجريئة، أنا حقًّا فخور بكل جندي على هذه البلد، بكل شهيد، الفدائيون يواجهون العدو بشجاعة، المقاومة الشعبية هنا لا تعرف الخوف.. سوف نرى النصر قريبًا ونهتف تحيا الثورة.. تحيا الحرية.. تحيا مصر.

كانت آمال تؤمن بأفكار صابر وتقدس كل ما يقول، تنظر إليه دائمًا وتردد:

- مضبوط.. تحيا الثورة.

نظر له عصام مُتهكمًا يبدو على وجهه الاعتراض، وقبل أن يتفوه بكلمة، لاحقه جدي في هدوء:

- أعرف ما ترغب في قوله يا عصام.. عندما تكون جزءًا من حدث ما فإنك لا تراه.. هذه حقيقة الأمر مهما حاولت إقناع نفسك بغير ذلك.. لا تحاول إطلاق الأحكام الآن.

نظر صابر إلى عصام الذي امتلأ بالغضب:

- مازلت صغيرًا.. لا تفهم شيئًا من حولك، هل تشعر بالخطر على الجبهة؟ هل تشعر بالخطر وأنت تجلس هنا في بيتك تأكل السمك وسط عائلتك؟ هل تشعرون بشيء من الخوف كلكم؟ تنادون بشعارات.. مجرد شعارات، تقرأون الكثير من الكتب دون تطبيقها على أرض الواقع.. إن هذا الرجل.. زعيم الأمة العربية يواجه الواقع لا الشعارات.. وسوف يدوِّن التاريخ إخلاصه.

لم يهتم مراد بحديثهم وكان يلتفت حوله من حين لآخر، بينما ابتلع مرتضى ما يأكله ونظر إليهم في سخرية:

- أنا لا أبالي بالثورة ولا بالحرية.. أعطني خبزًا اليوم واضمنه لي غدًا، هذا كل ما يهمني وأعتقد أنه ما يجب أن يهم الجميع.

كان جمال ابن صابر ذو الثلاثة أعوام يلعب عند نجمة داوود، وفجأة صرخ وهرع لحضن أمه، أخذ يشير إلى الحائط ويتعلثم بكلمات غير مفهومة، لكنها طبطبت عليه ولم توله اهتمامًا، فهي تصب تركيزها على دعم صابر والثورة حتى ولو في مناقشة عابرة.

بينما غضب صابر غضبًا شديدًا من كلام مرتضى وصاح:

- كنا محتلين بلا كرامة وأنت تحدثني عن الخبز!

سريعًا أردف مرتضى:

- والآن.. هل أصبحنا أحرارًا؟

- نتائج الثورات لا تأتي على طبق من ذهب، الثورة نجحت في أغلب أهدافها.. لا تنسَ أن الدول العظمى لا تريد لمصر أن تقف على قدميها أبدًا لأنها تخاف على إسرائيل من قوتنا.

- الدول العظمى ستبقى عظمى والدول المُحتلة عليها أن تستفيد من الجميع، طالما أن المحتل سيظل محتلًّا.

- سننتصر ولو كان الثمن أرواحنا.

قال أبي في حزن:

- لو كان أخوكم يسري هنا ما انتصر للثورة ولا للخبز، وإنما سينتصر لحرية الأرض.. كان سينتصر لمصر.. انظروا للصورة الكبيرة.. للبرواز الأكبر.. إذا ملكنا الأرض سوف تنتصر الثورة وسيتحسن الاقتصاد تدريجيًّا.

استوقف حديث أبي مراد وجلب اهتمامه فقال:

- هذا ما يختلج به صدري منذ أن بدأ هذا الحديث يا عمي، الأرض.. الوحدة العربية هي الحل، لا بُدَّ أن نسترجع الأرض.

غلبت دموع جدي عليه فقال:

- رحم الله الشهيد يسري.. لم نكن ندري أن الثورة سوف تفرِّق بين أبناء الأسرة الواحدة! أتساءل كيف للشعب أن يتحد؟

توقف الجميع عن الطعام وقال صابر:

- رحم الله يسري ورزقنا الشهادة.

على إثر كلماته خرجت أمي عن صمتها المعتاد صائحة:

- كفوا جميعكم عن هذا الحديث.. لن يذهب أحد للحرب، كفاهم يسري.. أنا أحترق كل يوم وأبدو قوية من أجلكم وأنتم لا تشعرون.

ثم بكت وهمَّ صابر أن يقول شيئًا فنظر له أبي ليلتزم الصمت وعزف الجميع عن الطعام، لكني انتابني الذعر لما رأيت جمال يتمتم بكلمات غير مفهومة من جديد والحاخام الأكبر يقف بجانب جدي ينظر إليَّ ويبتسم!

***

يونيو ١٩٧٠

نحن لا نعلم ما تخبئه لنا الأقدار لذلك نرسم خطوات وخطوطًا تمحوها الحياة وترسم غيرها بسهولة، وما علينا بعدها إلا تقبُّل الأمر والتعامل معه أو تخطيه، لكني لا أستطيع أن أتخطى غيابه أو أتجاهله.

هذا الألم الكبير الذي اختبرتني به الحياة لم يذهب عني كما ظننت، إنه عالق بداخلي في انتظار الوقت المناسب للظهور من جديد، لم أكن أعلم أن بداخلي كل هذا الحب تجاهه، لم أكن أعلم أنه يحتلني احتلالًا كاملًا.

وتعلمت في غيابه كيف أحزن وحيدة، وكيف أفرح وحيدة رغم وجود الكثيرين حولي، وتعلمت أن هذا العالم لا يعبأ كثيرًا بما أشعر به، إني أفتقده، أفتقد كل شيء في صحبته، هذا الأمان الذي يعم حياتي في وجوده، عقدت العزم أن أتجاوز كل اختلاف من أجله، ألوم نفسي كل يوم من أجله، سوف أصالحه عندما أراه، أعلم أنه يأتي في زيارات خاطفة مُتباعدة كي لا أراه، والآن أُصبح وأُمسي على أمل لقائه، لم يكن يفيقني من غفوتي إلا وجود الحاخام اللعين!

في الظهيرة كنت أعد الطعام مع أمي في المطبخ، وكان أبي وجدي وعصام ومرتضى ومراد يستمعون إلى الأخبار، قدَّمت لهم

القهوة وسمعت أبي يقول:

- هل تعتقد يا أبي أن عبد الناصر سيوافق على وقف إطلاق النار؟

- تقصد «مبادرة روجرز» المقدمة من أمريكا؟ لو كنت مكانه لفعلت، فرصة ليستعد الجيش من جديد.

- الأمريكان لا يقترحون شيئًا ليس في مصلحة الصهاينة.. جميعهم واحد.

بعد استشهاد يسري أصبحت تهمني الأخبار التي كنت أتجاهلها، كان مراد يُحملق في الحائط ويندهش ثم يتلفت حوله ويعتدل في جلسته وكأنه يرى شيئًا، وما إن أغرق في خوفي أنظر إليه تستغيث نظراتي به فيلمحني مرتضى غاضبًا، وينظر إلى جدي في ضيق وهو يراني أنظر لمراد، لا أحد يعلم ما أواجهه وحدي، تجاهلني مراد في دهاء وأخذ رشفة من قهوته وقال:

- أنا مع جدي.. الجيش يحتاج إلى الاستعداد، سنرى ماذا سيحدث..

وعبر شباك المطبخ الذي يقابل مثيله في شقة جلال، سمعت صوت جلال الذي لا أخطئه وأمه تصرخ باسمه في فرحة، لا بُدَّ أنه في زيارة، لم أتردد في إتخاذ القرار فالأمر يتطلب بعضًا من الجرأة أحيانًا، أمسكت بالملح وأفرغته في صندوق القمامة، وقلت لأمي:

- أين الملح؟

- عندك في البرطمان.

لوحت به في وجهها فارغًا فقالت وعيناها تدوران في المطبخ كله:

- هذا عجيب! لقد ملأته البارحة فقط!

- سوف أحضر بعض الملح من أبلة أنيسة.

- أسرعي.

ذهبت إليه وأنا أمسك بقلبي في يدي، أنا أعلم أن والده لا يأتي إلا نادرًا في هذه الفترة، طرقت الباب وأغمضت عيني وتمنيت أن أراه، تمنيت لو أقول له كل شيء مرة واحدة، لو أقول له كيف أوجعني فراقه وغضبه، حتى لو تطلب الأمر أن أقنع نفسي بأن الخاتم من صنع عقلي.. مرَّ وقتٌ قصيرٌ وطويل على قلبي... فتح جلال الباب ووقف ينظر إليَّ في بدلته العسكرية وكأنه لا يعرفني، نظرت له واختفت ابتسامتي وأملي وكأنني أراه لأول مرة، كدت أبكي من فرط سعادتي أو حزني وقد مرت أشهر لم أرَه فيها، لكنه قابلني بوجه غريب، وجه يملؤه البرود! مرت لحظات صامتة صادمة بيننا تقول كل شيء بأعيننا..

- لقد أوحشتني كثيرًا.. إنني أحبك ولا أريد سواك، أنت مخطئ لو ظننت أنني قد أملك أن يميل قلبي لشخص آخر.. معك حق في كل ما تقول، فقط ارجع لي.. جلال الذي أحبه.

- لم أعد أحبك ولا أهتم إذا ما أحببتِ مراد.. لم يعد يهمني الأمر منذ لقائنا الأخير.

أفاقتني كلمات والدته:

- مَن يا جلال؟

نظر إليَّ واجمًا وترك الباب ودخل! كدت أبكي غير مصدقة

لولا أن رأتني أمه فانتبهت للأمر..

- حياة.. ادخلي يا حبيبتي.

تلجم لساني وفطنت أنني لست على ما يرام فأمسكت بيدي وأدخلتني وأغلقت الباب، نظرت إليها وبكيت.. احتضنتني وربتت على ظهري في حنان وقالت:

- ماذا حدث؟

دخلنا المطبخ وفقدت السيطرة على شعوري وبكيت كل ما رأيته في وجه جلال من برود، قالت السيدة أنيسة:

- اسمعي يا حياة، لنتحدث بصراحة وأعدك أن يظل هذا الحديث بيننا سرًا لا يعلمه إلا الله، لا تظنيني ساذجة، أنا أعلم حقيقة مشاعركما.. قولي لي ماذا حدث؟

جففت دموعي وقد اطمأننت كثيرًا لكلماتها:

- لم يتحدث جلال بكلمة واحدة معي، لكنه قال كل شيء في لحظات الآن.. لم يعد يحبني..

- هذا كلام فارغ، جلال ابني وأنا أعلم بما يشعر دون أن يبوح به، جلال يحبك يا حياة، ويغار عليك ويخاف عليك من أقل الأشياء التي قد تحدث.

- إذًا لماذا لا يريد أن يراني، كم زيارة منذ يوم شم النسيم إلى الآن وهو يبتعد عني! أراه صدفة مع أحد إخوتي فيسلم باقتضاب ويعتذر ليختفي، أنا أحبه لذلك صبرت كثيرًا.. مرت سنة.. إلى متى أتحمل؟

- صارحيني.. هل تربطكِ أي علاقة بمراد؟
- حتي أنتِ يا أبلة!
- أنا فقط أتأكد.. اتركي لي الأمر ولا تبكي.. اصبري.
سمعت صوت أمي غاضبًا عبر شباك المنور المقابل:
- يا حيااااة..
أغلقت السيدة أنيسة الشباك وقالت:
- وداد لن تهدأ حتى تراكِ أمامها.. أراكِ جئت بحُجة الملح.
أومأت لها موافقة، فأخذت مني البرطمان لتملأه وقالت وهي تصحبني إلى الباب:
- لا تقلقي سوف أتحدث معكِ.. لو أنني أنجبت بنتًا لن أرضى لها هذه الحيرة، جلال على خلق ولا يلعب ببنات الناس.. أنا أعلم أنه ولا بُدَّ غاضب فقط.. اتفقنا.. جففي دموعك جيدًا كي لا تراها أمك.
ذهبت إلى باب الشقة الموارب ودخلت فأغلقته، وما إن دخلت المطبخ حتى وجدت أمي تمسك بصندوق القمامة وتُريني الملح فيه، تفاجأت وخجلت منها ولم أعقب فقالت:
- هذه الأفعال لم تصدر من قبل في بيت الدنون، وإني أحذرك يا حياة لو أنك فكرت في شيء كهذا مرة ثانية، سوف أطلع أبوكِ وإخوتك على سرك الذي خيب أملي فيكِ وجعلك كالبيت الوقف.. هل فهمتِ؟
تركت أمي المطبخ غاضبة والطعام يغلي على النار وقلبي يغلي معه.

* * *

في نفس اليوم

أُعدت مائدة الطعام في ميعادها وأقسمت أمي على مراد أن يتناول غداءه معنا، لم تتوقف الحاخامات عن التجول في البيت أمام عيني، و بِتُّ على يقين أن مراد يراهم مثلي، أراهم على تعبيرات وجهه التي يراقبها جدي في شك، نظر جدي إليَّ نظرة لم تُرِحني وقال:

- لماذا لا أرى جلال يا ولاد منذ فترة كبيرة؟

قال عصام في غير اكتراث:

- نقابله صدفة في زيارات مُتباعدة والله يا جدي، لقد وهبَ نفسه للجيش حتى النصر.

قال مرتضى:

- ولحق به صابر.

عقبت أمي سريعًا بعنف واضح.

- لا أريد حديث في السياسة أثناء الطعام.

قال أبي في حدة:

- اهدئي يا وداد.. ماذا بكِ؟

قال مراد:

- عندك حق يا جدي، كلنا نفتقد وجود جلال.

ثم نظر إليَّ نظرة خاطفة وهو يقول:
- ربما يكون اليوم في زيارة.. سوف أمرُّ عليه.
لا أعلم لماذا أشعر أن جدي مثل جلال يغار عليَّ من مراد، يخاف أن يأخذ مراد مكان جلال في قلبي وهو الأمر المستحيل، بعد أن انتهى الجميع من الغداء جاء وقت القيلولة المقدس، وعندها هم مراد للمغادرة فاصطنعت أنني أتحدث معه وكان ذلك يعجب أمي وعند الباب همست:
- جلال بالفعل هنا.. هلا تصله برسالة؟
نظر إليَّ مراد ولأول مرة لم أفهم تعبيرات وجهه المُبهمة وقال:
- بالطبع.. لكني حسبت أنكِ قد حسمت أمر جلال يوم شم النسيم.
- هل شعرت يومًا أنك على استعداد للمخاطرة بترك كل ما تألفه لأجل مجهول تتمناه؟
- لم أفكر يومًا بهذه الطريقة.
- هذا لأنك لم تحب بعد.
علمَ مراد كل ما أريد أن أقوله، فأومأ موافقًا بعد أن أفصحت ملامحه عن خيبة أمل لا يواريها، فقلت:
- أبلغه أنني سأنتظره عند مكاننا في الكورنيش قبيل المغرب.
أردت أن يكون مراد وسيطًا بيني وبينه لكي يتأكد أننا لا تربطنا علاقة عاطفية، لكن هل يا ترى سيأتي جلال؟ أصبحت لا أعرف كيف يفكر.. ربما رأى في رسالة مراد نوعًا من التحدي له

فأنا ما زلت أتخذه صديقًا، وربما أشياء أخرى كثيرة فعقول الرجال تحتوي على طلاسم من الصعب معرفتها.

أردت أن أبتهج قليلًا فارتديت فستانًا أصفر فاقع اللون، هذا اللون يذكِّرني بالشمس وفرصتنا الجديدة كل صباح، لا بُدَّ أن أقاوم كل الحزن والكآبة وخيبات الأمل، على أمل أن يأتي جلال ويكون يومًا هانئًا، اختلقت قصة لأمي فاستأذنت في الذهاب إلى تهاني صديقتي ووافقت ببساطة، كان الأمر غريبًا بعد ما حدث بيننا.

في مكاننا المعتاد وقفت أنظر إلى قرص الشمس الأبدي وهو يغوص في البحر ببطء، وخيوطه الذهبية تلقي بنفسها متلألئة على صفحة المياه العريضة، لطالما أحببت وقت الغروب لكني أراه كئيبًا اليوم رغم كل محاولاتي في البعد عن الكآبة، رأيت البحر وكأنه يعلن عن غضب مُختبئ فيطرد كل العاشقين من الشاطئ، وكأنه يفيقهم من وهمهم الكبير إلى الحقيقة الصادمة.

نظرت في الساعة، كما ظننت لن يأتي جلال، التفتُّ كي أعود للبيت فاصطدمت به، نظرت إليه وابتسمت ابتسامة واسعة رغم كل شيء، كانت فرحتي عارمة.. لاحظت أنه هدأ قليلًا.. ربما تأكد أن مراد مجرد أخ لي ولن يكون أكثر من ذلك، وإلا فلن أبعث برسالتي هذه معه.. قلت:

- أنا سعيدة لمجيئك.

نظر إليَّ عيني نظرة طويلة مليئة بالعتاب ولم يعلق ففعلت أنا:

- ألن تتكلم بعد كل هذا الغياب؟ لقد أوحشتني يا جلال..

تقريبًا مرت سنة.

- لم أستطِع أن أزيف مشاعري يا حياة.

- تزيف مشاعرك؟ ألم تعد تحبني؟

أشار إليَّ أن نجلس على المقعد الخشبي القريب وقال في طريقنا:

- لم أقل ذلك.. كنت غاضبًا واختلطت كثير من المشاعر. عند الوصول لهذه المرحلة يكون الصمت خيرًا من كل الكلام.

- والآن؟ هل تعلم مشاعرك؟

- نعم.. وإلا ما جئت من الأساس.

- لقد أوحشتني كثيرًا.

التفت إليَّ ونظر لي في ثبات وتغيرت نبرة صوته إلى جلال الذي أعرفه:

- ماذا فعلتِ في هذه السنة؟

- لعبت الأفكار برأسي وذهبت بعقلي في ذوبعة من الندم والألم والضياع، ثم بكت روحي واشتكيتك إليك، ماذا تظن؟ ألا ترى أنك مخبئي وملجئي وملاذي، وأعلم أنك تعلم ما في قلبي دون حديث.

- أنا أحبك يا حياة.. ولا أريد سواكِ.

انهمرت دموعي وكدت أطير من الفرح، أخرج منديله القماش يجفف دموعي.. وقال:

- جدك دائمًا كان يقول لي «ستعرف ما تحبه وأنت مشغول بأمورٍ أخرى»..

- وهل عرفت؟

- بعد أن تشاجرنا قررت أن أنسى الأمر برمته، انهمكت في خدمتي بالجيش وفي العمليات التي كُلفت بها، فالأخبار لا تنقطع على الجبهة.. والشهداء والجرحى كذلك لا تتوقف أعدادهم، الشك يملأ البعض.. هل سنحارب؟ وإذا حاربنا هل سننتصر؟ كثير من الأسئلة والآمال.. لكنني لم أنقطع مع هذا عن التفكير فيكِ وفي مستقبلنا.. أنا حقًا أريدكِ ولا أريد سواكِ.

- لا أستطيع أن أصف مدى سعادتي.

اختفى القرص الذهبي نهائيًا واختفت خيوطه معه، وبات البحر المظلم الكئيب المخيف في عيني واسع ورحب ومليء بغموض مثير! كأنني أنظر إلى مستقبلي مع جلال، كان جلال ينظر إليَّ في هدوء ثم قال:

- حكت لي أمي عمّا دار بينكما اليوم، وأعجبتني جرأتكِ في الدفاع عن حبنا والصبر من أجله، أمي تحبك كثيرًا.

- إنها كأمي تمامًا.. وهل أعجبك أنني بعثت مراد مرسال؟

- ليس كثيرًا.. لكن قبلتها على سبيل الاستثناء.

- هل تأكدت أن مراد بمثابة أخ لي وصديق للعائلة فقط.

نظر إليَّ في ضيق وزفر ثم أشاح بوجهه بعيدًا للحظات ثم التفت إليَّ قائلًا:

- أنتِ تتذكريه في أسعد لحظاتنا! ماذا أسمي هذا؟ اسمعي يا حياة.. أنا رجل شرقي لا أقبل أن تتخذي صديقًا، لا أقبل أن تكون

زوجتي على علاقة بطرف ثالث تسميه صديقًا.

- إنه يساعدني على تخطي أزمة السحر الملعون بالبيت، لقد أصبحت الحاخامات تتجول في البيت ليل ونهار، أراهم مثلما أراك صدقني.. إن الحاخام الأكبر يقف دومًا بجانب جدي وأنا أخاف عليه كثيرًا..

- ما زلتِ تعيشين في الخرافات يا حياة؟ ألم تكفِك السنة حتى تشفي منها؟

- صدقني.. اسأل مراد.. إنه يراهم مثلي..

- مراد ثانية؟

- يا جلال.. أريدك أن تصدقني وتساعدني.. و...

- حياة.. كنا أفضل صديقين وهذا ما جعلني أحبك.. ماذا حدث؟

- إنني أتعرض لضغط كبير، أمي تضغط عليَّ من أجل الزواج وأنا أنتظرك، السحر الأسود يخيفني ويأكل من عقلي ما أراه كل يوم في الشقة ولا أستطيع أن أخبر أحدًا، وأنت.. أقرب إنسان لي.. لا تصدقني.. جلال.. هل حقًّا تحبني؟

- أحبك لكني لا أحب الخزعبلات.

- إذًا لا بُدَّ أن تصدقني.. جرِّب.

نظر جلال إلى ساعته، ووقف سريعًا وهو يغلق أزرار بدلته ويقول:

- لقد تأخرتِ ولا أظن أن والديك سيعجبهما تأخيرك.

- أنت تهرب ثانيةً.

- خيرًا من أن أتكلم الآن.

- وهل أنتظرك سنة أخرى؟

- لا أعلم.

- أنا لا أصدق أننا نتشاجر مرة أخرى بسبب مراد! أنت تدمر سنوات عمرنا باستمرارك بتصديق ظنونك الكاذبة.

- إنها شهود وليست ظنون، ربها أنني لا أستطيع أن أثق فيك بعد الآن.

- افعل كما تشاء، ولكن لا تلمني..

- وماذا ستفعلين؟

- سوف ترى..!

التفت إليَّ ورمقني بنظرة غضب لم أرَها من قبل، ومشينا سويًّا صامتين ثم افترقنا في منتصف الطريق دون وداع.

غمر الصمت المكان وشعرت بأبدية الطريق، وكأن مَن حدد للطريق بداية ونهاية كان متوهمًا، الطريق هو أنا.. بداية ومنتصف ولا نهائية، أنا وحدي، أنا فقط، الطريق كالبحر ظلام لا ينقطع وسراب كبير.

* * *

أغسطس ١٩٧٠

أنظر كل يوم في المرآة وأردِّد: «أنا بخير.. الله يعلم كل شيء وسوف يُصلح كل شيء»، أصبحت أختبئ دومًا داخل نفسي حين يخذلني الآخرون أو الظروف، وداخل نفسي تتساوى الأحلام والظنون، تتشابه الأيام لكنها لا تعود لنصحح ما أخطأنا فيه يومًا ما، داخل نفسي أجد الأمان الزائف الذي لم أحلم به قط، لكن الحياة تجبرني على الاستمرار يومًا تلو الآخر ولا أدري إلى أين المصير.

عندما أويت إلى الفراش في تلك الليلة الغريبة سمعت أصوات الضحكات تقترب من أذني، وحين خرجت أتبين الأمر كان الطريق من الغرفة إلى صالة الاستقبال ليس بالأمر الهين، لكنني أصررت على رؤية ما يحدث في بيتنا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل!

عندما وصلت إلى الخارج وجدت جدي يجلس مترئسًا مائدة الطعام، كنت أرى ظهره وأرى وجوه جميع الحاخامات على ضوء خافت لشموع تناثرت حول المائدة، تتمايل أنوارها فيصدر من كل منها شعاع يتلوى كأفعى صغيرة تنظر إليَّ، لكنني تبينت أنه يجلس أمام وليمة كبيرة وُضعت وسط الشموع، يتحدث بلغتهم التي لا أعرفها ثم يضحك بصوت فج، فيضحكون بعده في تتابع، لكن أين كبيرهم؟

أنا لا أحلم.. ما أراه حقيقي بلا شك، ماذا حدث لجدي؟ هل يعرف هؤلاء الحاخامات من الأساس؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا يستعين بي الحاخام الأكبر فيما يخفيه جدي عنه؟ هل هؤلاء الحاخامات أناس حقيقيون مثلنا لكن في عالم آخر؟ أم هُم من الجن؟ هل حقًا لا أبالي إذا كانوا من الجن؟

اندفع بخور من جهة مدخل الشقة، وتدفقت الرائحة وفاحت حولي مرة واحدة، اقتربت أكثر في خطوات بطيئة لأرى ماذا يفعل جدي معهم وماذا سيحدث معي، أجواء الظلام والبخور كانت غير مشجعة، لكن حبي لجدي وخوفي عليه كانت لهما الغلبة على ردة فعلي.

اقتربت منهم أكثر ورآني أحدهم فأشار إليَّ من بجانبه، وأخذ كلٌّ منهم يشير إلى من بجانبه حتى رآوني جميعًا عدا جدي، اقتربت أكثر وكانت ضحكات جدي تجلجل في الشقة دون أن ينزعج أحد من النائمين على غير عادتهم، وقال أحدهم:

- لا أرتاح لحكاية وقف إطلاق النار هذه أبدًا.

كانت الوليمة المعدة أمام جدي كبيرة جدًّا، لأنها ملأت المائدة، لكنها تبدو غريبة من بعيد، اقتربت أكثر فرأيت شيئًا لم أستبين ماهيته، اقتربت أكثر فوجدت أقدام إنسان على المائدة في مقابل جدي، يا لهول ما أرى!!

اقتربت أكثر فأكثر في جرأة وذهول وغضب، فلما وقفت عند جدي رأيت جسدًا في وسط الشموع ودماء في كل مكان، ولما

مرَّ بصري لنهاية الجسد وجدت رأس الشهيد يسري! ظلَّ جدي يضحك والحاخامات يباركون الوليمة ويتعازمون على بعضهم البعض.. كل منهم يمسك بسكين حاد في استعداد تام!.. الأمر الذي جعلني أصرخ بلا توقف وأنا أنظر إلى جدي في هلع ودموعي تنساب في غزارة.

- ما الذي تفعله معهم هنا؟ أستأكل من لحم أخي الشهيد؟

نظر جدي إليَّ وضحك فوجدت عينيه قد اكتستا بالسواد كعين الحاخام الأكبر، عندها قاموا جميعًا من أماكنهم باتجاهي يتقدمهم جدي.. تراجعت إلى الوراء لكني اصطدمت بشخص ورائي، التفتُّ فوجدته الحاخام الأكبر يمسك بسكين وقد تمكَّن من رقبتي، حاولت الإفلات من قبضته لكن جدي أمسك بيدي وأشار للحاخام بقطع رقبتي!!

بقيت أصرخ وأبكي وأمُسك بيد جدي أرجوه ألا يفعل، كانت الصدمة أشد على عقلي من الذبح نفسه، حينها التفت إليَّ الحاخام مرة أخرى فوجدته تحول كأبي ويقول:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. الله أكبر.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

نظرت إلى جدي فوجدته أمامي يبكي ويردد ما يقوله أبي في أسى، وأمي تقف مذعورة تبسمل وتكبر بلا توقف، في حين غلبت أشعة الشمس الخافتة على المكان! أين ضوء الشموع الخافت؟ على المائدة يجلس مراد وعصام ومرتضى حول الطعام في ذهول، نظرت

إلى صورة يسري التي علقها أبي جنبًا إلى جنب مع صورة عبد الناصر وهرعت إليها أبكي في حرقة.

اقترب مني جدي في وهن يحتضنني وأنا أحاول أن أبتعد عنه في خوف وقد خارت قواي، لا أعلم هل اختلطت عليَّ الأمور أم أن هنالك سرًّا في الأمر برمته، لأول مرة أشعر فيها أن ما رأيته مستحيل أن يكون حلمًا، أعرف أنني كدت ألمس جدي كما كان سيفعل الآن ولكن كيف؟.. انهالت التساؤلات على عقلي وأنا أنظر إليه في ريبة حتى سمعته يصرخ غاضبًا:

- والله لا أسكت على ما يحدث في هذا البيت مرة أخرى.. مرتضى وعصام.. عاوناني بسرعة على حملها إلى غرفتها.. إنها تتهاوى من بين يدي.

***

٢٨ سبتمبر ١٩٧٠

كانت الساعة الثامنة والربع مساءً والسيدة أنيسة تبكي مع أمي وآمال زوجة صابر وهما تواسينها، لا أستطيع أن أكسر تعليمات نظرات أمي بألا أقترب منهما إلا عندما تطلبني هي، بدت والدة جلال في حالة من القلق والحزن، لكني جلست على مقربة منهن فسمعت أمي تقول:

- الله ينتقم من الصهاينة القتلة، لا تخافي.. سيرجع جلال ووالده بالمشيئة يا ست أنيسة.. أبشري بالخير.

حاولت السيدة أنيسة أن تتماسك وهي تقول:

- لقد مرت أكثر من ثلاثة أشهر ولم يتصل مرة واحدة يا ست وداد، حتى شاذلي يتهرب من الإجابة كلما سألته عن جلال ويغلق الهاتف، لم أرَهُما منذ ثلاثة أشهر.

- بشروا ولا تنفروا.. ولماذا سيتهرب، هو ابنه أيضًا يا أنيسة.

- وهذا من حقي أن أعرف مكانه وكيف حاله..

- معكِ حق.. لا تقلقي سيأتي الله بهم جميعًا.. حفظهم الله وصابر ابني وجيش مصر بأكمله.

سمعنا طَرقًا قويًّا ومتلاحقًا على الباب فجاء جدي يستند على عكازه، أسرعت أفتحه فوجدت مراد يدخل ويصيح فينا:

- أنتم لا تستعملون التليفزيون أبدًا؟

قلت:

- وهل حدث شيء؟

دخل مراد وفتح التليفزيون وسمعنا صوت تلاوة للقرآن الكريم فقال:

- إنهم لا يذيعون أية برامج منذ ساعات.. فقط القرآن الكريم في الراديو والتليفزيون.. الناس على المقاهي تتساءل ما الأمر الجلل الذي حدث في البلاد!؟

قالت السيدة أنيسة باكية:

- لا بُدَّ أنها الحرب.

قال مراد وقد أحاط خصره بيديه في حيرة:

- لا أحد يعلم.. لكنه أمر هام بلا شك.

وفجأة توقف القرآن وظهر «محمد أنور السادات» يبدو حزينا ليلقي بيانًا.. انتبهنا جيدًا وخفقت القلوب:

«فقدت الجمهورية العربية المتحدة.. وفقدت الأمة العربية.. وفقدت الإنسانية كلها.. رجلًا من أغنى الرجال.. رجلًا من أغلى الرجال.. وأشجع الرجال.. وأخلص الرجال.. هو الرئيس جمال عبد الناصر.. الذي جاد بأنفاسه الأخيرة في الساعة السادسة والربع اليوم.. ٢٧ رجب سنة ١٣٩٠ الموافق ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ بينما هو واقفٌ في ساحة النضال.. يكافح من أجل وحدة الأمة العربية ومن أجل يوم انتصارها..»

صرخ جدي بقوة..

- لا إله إلا الله.. كيف ومتى ولماذا؟؟؟

تسمرنا في أماكننا.. يملأ الذهول والصدمة المكان من حولنا لنغرق فيهم.. نظرنا إلى بعضنا البعض وكأن الحياة تقول لنا كل يوم «اليوم سوف أعطيكم درسًا جديدًا.. فهل أنتم مستعدون؟»

تعالت أصوات بكاء أمي والسيدة أنيسة. غطى مراد وجهه بكفيه ونزلت دموع حارة بينما اختفى جدي بالداخل ووجدته خارجًا يتوكأ على عكازه بعد أن ارتدى عباءته فخلع صورة الرئيس من الحائط، وتوجه إلى الباب وفتحه فلحقت به..

- أين تذهب يا جدي؟

- إلى منشية البكري.

- لن أتركك.

لحق بنا الجميع وقال مراد:

- اهدأ يا جدي أرجوك.. سيكون زحامًا شديدًا بلا شك.. ربما توقفت القطارات.

- سأستقل سيارة.

قالت السيدة أنيسة:

- امنحني خمس دقائق وسآتي معك.

عندها رأيت أبي ومرتضى يصعدان السلم باكين فقال أبي:

- سنذهب جميعًا إلى بيت الريس.

تركت السيارة أهالي بورسعيد مُحتشدين في جميع شوارعها وأزقتها يرفعون صور عبد الناصر ويبكون، لا أحد يصدق أنه مات

وكأنه مُخلد، لسنا وحدنا على الطريق، السيارات ملأت الطرق إلى القاهرة، حتى عربات النقل نقلت الأفراد إلى منشية البكري حيث منزل الرئيس.

تركنا بورسعيد الصغيرة لنجد مصرنا الكبيرة كلها عند أول شارع منشية البكري بالقاهرة، الشارع امتلأ عن آخره بكل حشود المصريين من إسكندرية إلى أسوان في مشهد جلل لن يُمحى من الذاكرة أبدًا.

قضينا الليلة نبكي في السيارة مع الآلاف عند بيته حتى الصباح. الذي جاء مُحملًا بالملايين من كل محافظات مصر حتى لم يعد شبر واحد خاليًا من حولنا!

***

يوليو ١٩٧١

أنا أفقد مساري في الحياة ولا أستطيع القدرة على التمييز بين الحلم والحقيقة، بين الخيال والواقع، أشعر أحيانًا بالنفور من الجميع حتى جدي الذي كان الاستثناء الوحيد من بينهم، ولا أعلم كيف ومتى حدث ذلك.. أنظر إليه على فراش المرض كامنًا في غيبوبته الكبدية المتقطعة التي أصابته منذ وفاة عبد الناصر، وأتمنى بيني وبين نفسي يا ليته يعود لوعيه، ليتنا نجد الشفاء، لكني أعود لأتذكر ما حدث فأتراجع خشية أن يستفيق ويخبرني بما لا أرغب في سماعه.

وكأن اللحظة التي رأيته فيها أمام الوليمة قد غيرت شيئًا كبيرًا في نفسي، فلا أصدق أنها مجرد طيف خادع من الخيال، ولا أستطيع التغلب على شعور الخوف الذي أصابني بسبب جدي! خاصة وأن روحي صارت راغبة في معرفة ما يخفيه جدي بحق! فهل يدور يدور الأمر حول هذا الشيء وحتى إن كان فكيف لا يتطوع ليخلصني من معاناتي.

ولكن هل يكون اعتقاد جلال بأن كل ما أراه هلاوس صحيحًا؟ يا ليته صدقني، أصبحت روح البيت كئيبة كروح البلد، لا أرى النور والأمل من حولي، فقط مراد يبثهما فيَّ مِن آنٍ لآخر، مراد أصبح أمل أمي لزواج يعيد للعائلة بعض البهجة، بعد أن

اختفى جلال بشكل دائم من حياتنا أثناء تطوعه بالجيش، تمامًا كاختفاء صابر الذي نتلقى مكالماته كل حين.

بعد الغداء جلس أبي مع مراد، بينما تعد أمي مستلزمات جدي لأوصلها للمشفى، طرق الباب وسمعت أبي يقول:

- سيد شاذلي.. أوحشتنا يا رجل.. القهوة يا حياة.

- أوحشتني كذلك يا سيد أحمد.

رأيته يدخل ببدلته العسكرية مع زوجته ويبدو عليها آثار بكاء، أخذتها أمي وجلستا في طرف غرفة الاستقبال تتهامسان، وجلس أبي ومراد معه في صالة الاستقبال وبدأ والد جلال حديثه:

- جئت أسلم عليك.. الله وحده يعلم ما تُخفيه الأيام.. أرى مراد الحبيب هنا.

- قل لي إننا سنحارب.

لاحت علامات حزن على وجهه وقال:

- كان بودّي أن أقولها.. لكن حالة الجيش يُرثى لها.. والعدو في أحسن حالاته.

دمعت عين مراد وهو يقف غاضبًا:

- إلى متى ستعيش العروبة في هذا الذل المهين؟

- إلى أن يشاء الله يا بني.

خرج مراد غاضبًا دامعًا تتبعه نظرات السيد شاذلي فقال أبي:

- مسكين مراد.. يحلم بالقومية العربية بعد أن مات زعيمها.

- الرئيس محمد أنور السادات يبذل الكثير من الجهد من

أجل السلام.. ستظل الشعوب تحلم وهي جالسة تحتسي الشاي في العصاري، ثم تصب غضبها على من يضحون بأرواحهم على الجبهة.

- لم أقصد هذا يا شاذلي لكني أتمنى ألا أموت قبل أن أرى البلد حرة.

- كلنا أنت يا سيد أحمد.. سوف أغيب هذه المرة كثيرًا وأوصيك على...

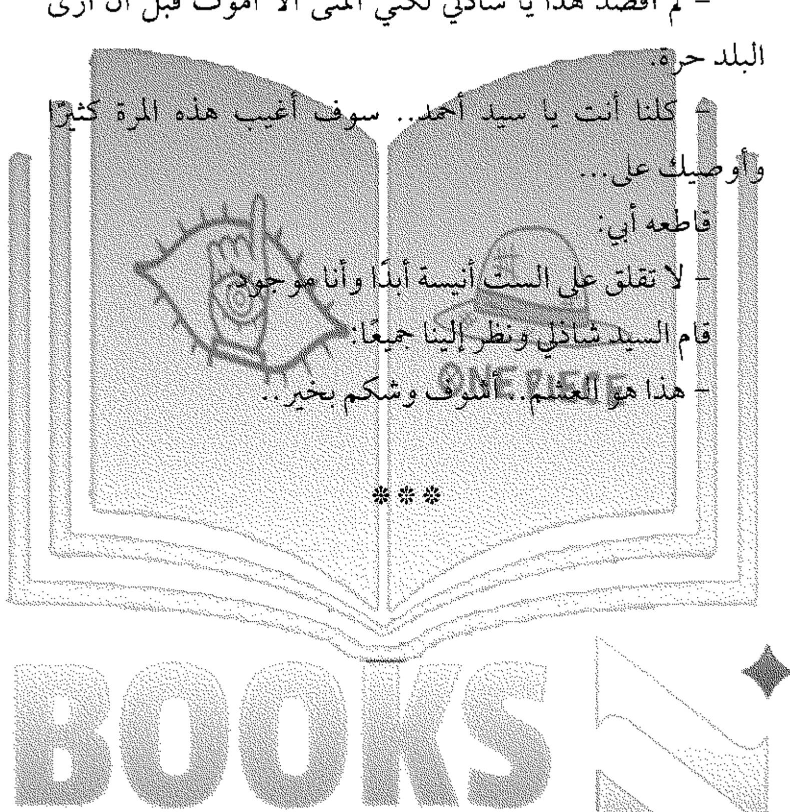
قاطعه أبي:

- لا تقلق على الست أنيسة أبدًا وأنا موجود.

قام السيد شاذلي ونظر إلينا جميعًا:

- هذا هو العشم.. أشوف وشكم بخير..

***



١٩٧١

يريد الناس أن يرجعوا بالزمن إلى الوراء، لكنني لا أريد أن أمر بكل ما شهدته في طفولة لم أعِشها، ومراهقة لم تولد وشباب يعافر فقط من أجل البقاء على قيد الحياة.

أحمل عامود الطعام الألومنيوم، الملاءات والمناشف التي تعدها أمي إلى جدي يومًا بعد يوم، يصحبني أحيانًا مرتضى إلى المشفى وكثيرًا مراد، ولا أجد مَن أسأله فأناجي جدي لعله يجيبني فلتخبرني يا جدي هل يساندني مراد لأنه يحبني كما تخبرني عيناه كل يوم؟ هل يحبني جلال حقًا كما قال؟ وهل يقدر أن يختفي المُحب عن حبيبه؟ وهل الحب وحده لا يكفي كما تقول أمي؟ بِتُّ حائرة من أمري.

لا يكف مراد أبدًا عن المُساندة، لا يكف عن طلب رؤيتي لأتفه الأسباب، ولا يكف عن الحديث، أنظر إليه بعقلي وقلبي ينظر إلى جلال، أقاوم رغبة عارمة في مخاطبته، أوحشني النظر إلى وجهه الذي يطمئنني دون حديث، أصارع تودُّد مراد ومساندته بلا توقف، لماذا لم يكن جلال مثله؟ لماذا لا يملك سوى لسان مثل رصاصة حرة تنطلق فور أن يضغط على زناد غضبه كالعادة؟ ما يفعله مراد يجعل أي قلب مهما بلغت قسوته يميل إليه، كما أن

جلال لم يترك لي ما يشفع أفعاله، تركني مع اتهام صريح منه بأنه لن يثق بي مجددًا، أو ربما قالها تحت تأثير الغضب فحسب! إنني أشعر بصدق جلال رغمًا عني، ولا أريد سواه في الحياة، فقلبي يطمئن إليه وروحي تسكن إليه، ولكن كرامتي تشترط أن يُشعرني أنني مُبتغاه الأول لكنه لا يفعل، وعلمت حينها أنني لن أحب أحدًا غيره مهما حدث منه، وبقيت في تردُّد أمام نفسي لا أستسيغه والقرار صعب والندم أصعب، لو أنك تسمع صوتي الآن دون أن نتحدث.

- حياة.. أنتِ شاردة..

- لا أبدًا..

- كُنت أتحدث عن الحاخام.. لا بُدَّ أن من ألقى السحر في البيت جعله في مكانٍ من الصعب الوصول إليه.. لا بُدَّ أن نصل إليه حتى نمنع الأذى عن البيت.

- نعم.. لكن مَن هو؟

- لا تنشغلي بمن.. علينا أن نعرف أين هو وحينها سنصل إلى الفاعل.

- وماذا أفعل أنا؟

- أنا سأفعل يا عزيزتي.. ها قد وصلنا للمشفى.

دخلت غرفة جدي فوجدتها خاوية، نظرت إلى مراد في هلع وكدت أفقد توازني، فهرع إليَّ طاقم التمريض فقالت إحداهن:

- إنه في غرفة العمليات.

- ماذا.. متى وكيف؟ ولماذا لم يخبرنا أحد؟

- لا أعلم.. المعلومات في الاستقبال.. أنا لست مسؤولة عن حالته.

رأيت الطبيب المُعالج فهرعت إليه أسأله عن لجدي فقال:

- اهدئي.. لا بُدَّ أنها تقصد المريض الجديد.. لقد نقلنا جدك إلى غرفة أخرى البارحة ليلًا.

عندما رأيت جدي كان واعيًا مُبتسمًا تطعمه واحدة بشوشة من طاقم التمريض، هرعت إليه واحتضنته دون كلمة.. أحاطني بذراعه وقال:

- ظننتني مِت؟

- بعد الشر يا جدي.

- لقد أوحشتني جدتك كثيرًا.. أصدقائي وإخوتي وأقاربي، لم يتبقَّ أحدٌ منهم إلا أنا يا حياة، إنهم ينعمون سويًّا بالونس.

نظرت إلى الممرضة أتساءل ماذا حل به فقالت هامسة:

- آثار الغيبوبة.. سوف يتناول دواءه ويتحسن تدريجيًّا.

أخذت أقبِّل يديه ورأسه في لهفة جعلتني أنسى كل ما شعرت به من ربكة في الفترة الأخيرة لكنها سرعان ما عادت إلى حين لاحظت أنه ينظر إلى مراد في غضب، كنت أشعر دائمًا أن جدي لا يحبه وعندما كنت أسأله كان يجيبني «الأرواح جنود مجندة.. ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف».

سلم مراد ما معه إلى الممرضة لكنه التف إلى جدي حين ناداه:

- مراد..

أتى مراد مبتسمًا وجلس بالقرب منه.. فقال جدي:

- هل فكرت يومًا كيف تريد أن تنتهي حياتك؟

اختفت إابتسامة مراد ونظر إليَّ في قلق ثم نظر إليه وأجاب:

- لا يا جدي.

- أنا لست جدك وأنت تعلم هذا.

قام مراد وقد احمرت أذناه ولم يعقب وقد بات جدي في حالة ذهنية سيئة فقلت:

- حسنًا.. لترتاح يا جدي الآن وسوف أمرُّ عليك غدًا.

نظر إليَّ وابتسم جدي وكأنه لم يكن غاضبًا منذ لحظات:

- أريد أن آكل «شبار».

- حاضر يا جدي.. تصبح على خير.

قبَّلته وأشرت لمراد بالخروج ففعل قبلي، وأثناء خروجه قال جدي مُستاءً:

- حياة.. لا تصطحبيه معك مرة ثانية.. اكتبي إلى جلال، وحده مَن يحارب في الجبهة يستحق.

- حاضر يا جدي.. أرجوك لتسترح أنت كي تخرج قريبًا من المشفى.

في أثناء عودتنا سيرًا على الأقدام إلى البيت قلت في حرج:

- مراد.. لا عليك من جدي.. أنت تعلم تأثير الأدوية عليه.

- أعلم جيدًا وأعذره، لكني كنت أستشعر كرهه لي قبل أن يمرض.

- هذا غير صحيح.

- أبدًا.. جدك يحب جلال ويريد زواجكما وأنا أحببتك يا حياة وأريد الزواج بك.

تسمرت قدماي دون أن أشعر من هول الصدمة ولم أستطع أن أجيبه، فوقف أمامي ينظر في عيني ويقول في ثبات:

- أنا أعلم ما يربطك بجلال، لكنني كرجل أؤكد لكِ أنه لا يرغب بوجودك في حياته، على الأقل ليس مثلي أنا، وإلا فماذا فعل؟ ألم يكن عنده القدرة على خطبتك قبل أن يختفي في الجيش؟ ويقطع على أمثالي من العرسان الطريق؟ أعلم أن قلبك يراه ملاكًا. لكنه إنسان لا يختلف عن الآخرين، لقد رأيته في سفريتي الماضية للقاهرة يا حياة ولم أرغب في إخبارك أو في إخبار أيٍّ منكم كي لا تظنوا بي الظنون، ربما أنه غير مستعدٍ للقائك من جديد لكنني لا أجد مبررًا لهذا.. إن ما يحب حقًا يبقى بالقرب من حبيبه ولو بكلمة واحدة تحمل طمأنينة العالم.

عبست غير مصدقة ما يقول:

- جلال لا يأخذ إجازاته.

- بل يفعل.. لكنه لا يأتي إلى بورسعيد، يظل في القاهرة ليعيش كما يريد، فلتسأليه لتتأكدي من صدق قولي.

- هل رأيته مع إحداهن أم كان وحيدًا؟

زاغ بصره وعقلي معه فغضب قلبي أشد الغضب لعلمي بالإجابة الحقيقية.. فيما استرسل مراد:

- صدقيني أنا لا أذمه يا حياة.. جلال شاب طبيعي، أنا أُبصِرك بما لا يريد عقلك أن يصدقه، أنا أقترف الكثير من الأخطاء لكنني لا أدعي المثالية، جلال إنسان على خُلق لكنه متناقض وأناني يحب نفسه أكثر من أي شخص آخر.

- يقول إنه يحب وطنه أكثر من أي شيء..

- ربما.. لكني أراكِ وطني يا حياة، رغم غربتي وتمسكي بالحلم إلا أنني لا أراني أدخل القدس إلا معكِ.. لن أقبل برد في عجالة.. خذي كفايتك في التفكير.. سأنتظرك!

***

ديسمبر ١٩٧١

كان عليَّ أن أقتفي أثر نفسي مرارًا لأجدها تائهة تقاوم ضعفًا لم تختَره منذ البداية، وبقيت أتذكر جلال كلما أرى مراد، معادلة صعبة أن يقف ما أحبه حاجزًا في وجه من يحبني، وشيئًا فشيئًا أصبح ما أحبه كالسراب، أعاني كي أصل إليه ثم أجده فراغًا كلما وصلت، في حين كانت الحقيقة تتمثل في مَن يحبني حبًّا حيًّا ينبض كلما رآني، كطفل لا يريد مفارقتي، أتركه كثيرًا وأعود فأجده، أصطحبه فيستمتع بكل شيء مهما كان بسيطًا، طفل يتغذى ويكبر معي، كانت مشاعري حزينة ومتضاربة، هل أتمسك بالسراب؟ أم أحكم قبضة يدي على تملُّكه قبل أن يتسرب منها؟

أرغمت نفسي على تدريب قاسٍ، لن أعيش معه في أحلامي مرة ثانية، فكل ذلك لا يسبب لي إلا الألم، وكان لا بُدَّ أن أداوي قلبي الذي لم ينبض لأحدٍ غيره، قلبي العنيد الذي يميل إليه رغمًا عني وعن الظروف، عليَّ أن أعلم جيدًا أن الحياة ليست مُنصفة، والاختيارات الصعبة تملأها طوال الوقت.

في ليلة الجمعة كان جدي نائمًا في غرفتنا، أمي ووالدة جلال تشاهدان التليفزيون، آمال زوجة صابر تداعب ابنهما جمال، ومرتضى مع أصدقائه وعصام في القاهرة، بينما جلس أبي مع مراد في البلكون يلعبان الكوتشينة، ويشوي مراد «أبو فروة»،

وقفت أنظر إليهما في شرود.. ما أشبه اليوم بالبارحة، أتذكر عندما جلست مع جلال وجدي يسرد لنا حكاياته عن الصهاينة ونشوي الكستن، ما أغرب الأيام وتقلُّباتها! أين جلال الآن؟ أين جدي؟ إنه لا يدري كم أعاني في غيابه بعد أن أتعبَهُ كبده وأفقده الوعي في معظم أوقاته.

استأذن أبي من مراد قليلًا فقال لي مراد ضاحكًا:

- السيدة أنيسة لم تلتفت إلى التليفزيون قَط.. كأنها تراقبك.

- لا عليك.. هل ذهبت لشيخ المنصورة؟

- نعم.. وأعطاني هذه السوائل.. يجب نثرها في كل الأركان.. بسرعة يا حياة حتى ينتهي هذا الكابوس.

- سوف أفعل.

أخرج من جيبه قارورتين زجاجيتين صغيرتين بهما سائل أحمر، أخفيتهما في جيبي كي لا تلمحني أمي، أتى أبي وعاد للعب مع مراد، وفجأة ظهر الحاخام في غرفة الاستقبال عند صورة يسري، التفت إليَّ في توعد، واقترب من الحائط، وبعد لحظات رأيته يضرب رأسه فيه، يضرب رأسه عدة مرات بانتظام، نظرت إلى أمي ووالدة جلال فرأيتهما ينظران إليَّ في دهشة، وسألت أمي:

- ماذا بكِ يا حياة؟

- لا شيء..

- كيف وأنتِ تحملقين في الحائط؟

- لا شيء يا أمي..

لم أستطع أن أزيح عيني إلى شيء آخر، نظر الصغير جمال حيث أنظر وصرخ باكيًا! ظلت ضربات رأس الحاخام في الحائط تنتظم وتتسارع، وأصبح صوتها أقوى، وأنا أشهق ويبدو عليَّ الخوف.. قامت أمي والسيدة أنيسة باتجاهي ومن ورائهما أبي ومراد.. التفت إليَّ الحاخام وقد اسودت عيناه من جديد وقد سال الدم من رأسه وبدأ يتساقط على الأرض.. ضحك واقترب مني هامسًا:

– أخبريه أن يترك ما يخفيه.. سأقتله إن لم يفعل..

صرخت وحينها سمعنا صوت جدي يصرخ في استغاثة فهرعنا إلى داخل الغرفة قبل أن يسألني أحدٌ لماذا أصرخ.. دخلنا الغرفة فرأيت جدي يقف أمام الحائط، التفت إلينا والدماء تسيل من جبينه تمامًا كالحاخام!! ثم تهاوى على الأرض، أسرع إليه مراد وأبي يحملانه إلى فراشه.. تمتمت أمي:

– لا إله إلا الله.. الله أكبر.. الله أكبر.

وقالت السيدة أنيسة وهي تشير إلى حائط الغرفة:

– انظرو إلى آثار الدماء على الحائط!! لقد كان يضرب رأسه فيه!!

***

يوليو ١٩٧٢

من الأفضل أن أقتل حبي الذي لم يُقدر له الاستمرار، من الأفضل أن أستمع لعقلي الآن، لم أجنِ من وراء قلبي إلا العناء والشقاء، لأن قلبي البائس لا يتعلم ولا يعتبر ولا يمتلئ من الحزن أبدًا.

هذا ما كُنت أردِّده داخل نفسي وقد ارتديت فستانًا زهريًا أنيقًا صنعته واللة تهاني صديقتي، تأملت المشهد جيدًا. فوجدتني أجلس بجانب مراد وقد وضع دبلة من الذهب في إصبعي اليمين، وملأت الزغاريد غرفة الاستقبال، بينما أرسل والد جلال الكثير من الورود التي رُصت حولي، وكأنها أشواك تحاوطني وتُذكِّرني بجلال، ملأ صوت المطربة «شادية» المكان «يا دبلة الخطوبة عقبالنا كلنا»،

مبروكة تساهم في توزيع أطباق العشاء وهي تردِّد كعادتها:

- سعيد يا نبي.. اللهم صلِّ على حضرة النبي.

رغم مظاهر البهجة كنت أرى الحضور كأنهم بؤساء في مأتم، جدي يبكي جالسًا على كرسيه المُتحرك بلا حول ولا قوة، تذكرته في صحته وقوته وذكريات طفولتي في غرفتنا، كانت الغرفة تموج بأسرارنا، وتتمايل أنوارها مع ضحكاتنا التي لا تمل، هكذا كان حالنا في جميع فصول السنة فلا يضجرنا حَر الصيف ولا نشكو

برد الشتاء، الآن وقد وهن العظم منه لم يعد يبالي به أحد، اعتقادًا أنه وصل لخرف الشيخوخة، لكنني في أعماقي أدرك أن وراءه سرًا يخفيه كما يقول الحاخام، يا لها من حياة قاسية.

استطاع صابر الحضور، كان يعلم في قرارة نفسه علاقتي بجلال، لكنه جلس بجانب زوجته يحاول أن يصطنع ابتسامات للأقارب، مرتضى يضحك مع زوجته وقد بدت عليه الفرحة فمراد عريس يملك من المال ما يكفي لأعيش حياة هنيئة، وعصام لا يبالي كثيرًا بما أشعر، لأن البنت لا بُدَّ أن تستتر كما تقول الأعراف والتقاليد والمجتمع، أخواتي البنات في مُلهاة كبيرة مع أزواجهن وأبنائهن ولم تعد أي منهن تهتم بالمشاعر.

جلست السيدة أنيسة بعيدًا تنظر إليَّ في لوم واضح، حتى جاء زوجها فاستقبله أبي مهللًا:

– كنت سأغضب لعدم حضورك.. أين ابننا البطل جلال؟

خفق قلبي وارتجف لما سمعت اسمه.. قال والده بصوت غلب الموسيقى.

– صدر قرار بتسريح الكثير من المجندين.. ربما يأتي جلال..

ثم جلسا سويًا يتهامسان، أردت أن أحكي لهما عن جلال الملاك الذي يرافق الكثيرات في القاهرة لكنني تراجعت، فلم يعد أمره يهمني.. تُرى هل يأتي جلال؟ وهل سأشعر بالندم حينها؟ يا إلهي ماذا حل بي؟ إن مراد هو العريس الأمثل والإنسان الذي أحبني بصدق، وبرهن على حبه وتحمل الكثير من أجل إرضائي،

أيكون هذا جزاءه؟

الكثير من المشاعر المتناقضة مع أجواء الفرحة التي بذل أبي وأمي مجهودًا كبيرًا لإحيائها داخل البيت، جلس أبي ووالد جلال في مكانهما المفضل وكان حديثهما طويلًا كعادتهما.

أردت أن أصرخ حينها، ربما أتركهم جميعًا لأذهب لجلال أينما يكون، ثم ألقي نظرة على الجميع قبل أن أفعل.. لا مفر مما سأعانيه ربما طيلة حياتي.

مرت سهرة خطبتي سريعًا ولم أشعر بانقضاء الوقت، كان عقلي قد طُمس وقلبي قد أصابه العجز، أما روحي تسبح هناك حول جلال على الجبهة، ابتسامة عريضة لم تفارق وجه مراد، ولم أرَ لعينيه بريقًا مثل اليوم.. وبدأت أندم.. لماذا أطعت أمي؟ ما الذي فعلته بنفسي؟ وما ذنب مراد؟

بقي أخواتي ومبروكة يرتبن البيت وينظفنه قدر الإمكان، تشدد أمي على مبروكة ضرورة زيارتها باكرًا لإعادة البيت إلى حالته الأولى، يسهر عصام مع أصدقائه في الحارة، صابر يعود للجبهة، ويجلس أبي مع والد جلال في البلكون وحدهما بعد أن وضع جدي الحزين بفراشه، يدخن أبي سيجارته بشراهة لم أعتدها أثناء حديثهما، تتحدث أمي إلى مراد سعيدة كما لم أرَها منذ أن استشهد يسري! وتقترب مني والدة جلال لتسألني:

- لماذا يا حياة؟ أنا أعلم حبك لجلال!

كادت دموعي تفر مني قبل أن أقرر نفي التهمة عني:

- لتسألي جلال عن مقهى «ريش» في القاهرة.

- أنا لا أفهم؟

- جلال سيفهم.. لكن مَن لا تفهم «لماذا؟» هي أنا.

جاءت أمي تنظر إلينا في توجس وتقول:

- آخر العنقود.. الحمد لله يا حبيبتي.. عقبال الليلة الكبيرة.

نظرت إليَّ السيدة أنيسة بعينين تملؤهما الحيرة وتمتمت ردًا على أمي:

- مُبارك يا ست وداد.

وغادرت إلى منزلها تتبعها نظرات أمي الواجمة، لمحها زوجها فاستأذن أبي ليلحق بها، جاء مراد ينظر لي سعيدًا ويقول:

- اليوم بدأ حلمي يتحقق على يدك يا حياة.

نظرت له أمي وقال:

- لن تجد حياة شخصًا مثلك أبدًا يا مراد.. الله يسعدكما يا بني..

ابتسمت صامتة فاستأذن مراد أبي في المغادرة وقد انتهى الحفل وانتهت روحي معه.



ديسمبر ١٩٧٢

الشمس ترسل أشعة طيبة عبر نافذة الغرفة بعد أن أمطرت السماء مخزونها البارحة، أشعة كأنها سلام إلى جدي الحبيب الذي يستلقي على فراشه في وداعة، واعيًا هادئًا لا يبكي كعادته، كنت بجانبه أساعده على تناول إفطاره وأتأكد أنه لم يُلقِ بالدواء في سلة المُهملات، لاحظ الجميع أن حالته الصحية ازدادت سوءًا بعد خطبتي، كما يعلم الجميع أيضًا أنه لا يباركها، وينتظر جلال مع النصر والفرحة بزواجي منه.

لا أحد يشعر بجدي لكنني أفعل، جمعت أعيننا نظرة طويلة، ملأني بالطيبة والجمال عبرها، سألته:

- هل تشعر بتحسن اليوم يا جدي؟

- نعم... كثيرًا.

نظراته لم تخفِ لومًا واضحًا فتهربت منه لكنه باغتني بسؤاله:

- قولي أنتِ، هل تشعرين بتحسن في الحياة يا حياة؟

- أفهم مقصدك يا جدي جيدًا وأشعر بك، لكني في أحسن حالٍ، ولن أترك مَن يحبني لأجل من تركني وحيدة دون اهتمام.

- هناك خطوة واحدة في الحب إذا قمت بها لا طريق لرجعوك عنها، ومراد لا يستحقها، جلال يحبك وأنا أعلم ذلك.وأنتِ في قرارة نفسك تعلمين، لكنه نبيل لا يريد لهذا الحب أن ينبت في ذُل،

بل في نصر وعزة وحرية.

- أنت تتحدث مثله تمامًا.. ولماذا يتزوج الناس كل يوم إذًا؟

- لأنهم يتزوجون بأناسٍ عاديين، جلال يحمل هَمَّ الوطن على كتفيه في شجاعة، أتمنى ألا يفوت الأوان قبل أن تفيقي من سيطرة هذا الثعبان.

- ولماذا يواعد الأخريات في القاهرة؟

- لا بُدَّ أن تتحققي من التي كانت بصحبته أولًا ثم تصدرين حكمك.. لا بُدَّ أنه الثعبان أوقع بينكما..

- مراد ليس بثعبان يا جدي.. يكفي أنه يحبني..

- لله الأمر من قبل ومن بعد، أبتهل إلى الله من أجل نجاتك، أعلم أن وداد من زرعت كل هذا داخل رأسك لكني لن أيأس ما دمتُ حيًا لأحميك منه.

- تحميني من خطيبي يا جدي؟!

- دعينا من هذا الأمر المحزن الآن.. أين أبوكِ؟

- لا يوجد بالبيت سوانا.

أخرج من تحت وسادته ظرفًا أبيض وقال:

- إذن.. فلتعطيه هذا المظروف نيابة عني.. لا أريد أن يراه أحد إلا ابني.. فهمتِ؟ هذه أمانة.

- ولماذا لا تعطيه أنت المظروف؟ لقد اقترب ميعاد رجوع أبي.

- ربما أنام وأنسى، ليكن معكِ أنتِ، للمرة الثانية لا أريد لأحدٍ أن يراه.. لا أمك ولا أحد من إخوتك ولا الثعبان.

كان جدي لا يذكر مراد إلا كثعبان، وكنت أتضايق من هذا لكني لا أستطيع أن أضايقه أبدًا، وافقته في استسلام فقال:

- اقتربي مني..

اقتربت فنظر إلى وأمسك يدي وقال:

- أتمنى أن أكون قد علمتك في سنوات عمري الكثيرة ما يعينك على الحياة، وإني أدعو الله أن يُنير بصيرتك يا حبيبتي.. سوف أرتاح الآن.

قَبَّلت رأسه ويده ودثرته، ثم دسست الظروف في دولابي وشرعت أن أغلق النافذة لكنه أراد أن يرى الضوء إلى أن ينام.

خرجت من الغرفة محُملة بمشاعر متناقضة وغريبة، كيف أجعل جدي يحب مراد؟ ليس بوسعنا أن نفرض الحب.. الحب يأتي بغتة أو لا يأتي مُطلقًا.

أغلقت الباب وفي طريقي إلى غرفة الاستقبال ساد الظلام وخيم على البيت، لكني أطمئن لضوء النهار المُنبعث من الخارج، بعد الطرقة ظهرت هالة بيضاء غريبة على أحد الكراسي، اقتربت أكثر لأرى فهالني ما رأيت.. صرخت.. جدي يجلس بجلبابه الأبيض ومن حوله الهالة البيضاء.. لكن الحاخام يُمسك بشعره، نظرت خلفي مرة ثانية، كلما حدث شيء هنا نال جدي منه أذى وهو على فراشه، شرعت أن أعود لجدي لكن الحاخام قال في صوت عالٍ:

- لقد وصلنا لمرحلة لم أشأ أن نصل لها من البداية.. أخبريه الآن أن يدلني على ما يخفيه.

كُنت على دراية أنني أتكلم مع وهم.. أشباح.. لكن خوفي على جدي جعلني أفعل:

- أرجوك يا جدي أعطِه ما يريده.. سوف يقتلك.

قال الحاخام وقد أطبق السكين على رقبة جدي وجحظت عيناه واحمر وجهه:

- أسمعت؟ أين ما تخفيه؟

- أستحلفك بالله يا جدي.. أعطه ما يريد لقد حوَّل حياتنا لجحيم.. أين هذه الأشياء؟

أشار جدي إلى المطبخ ثم إلى البلكون ثم إلى الطرقة ثم أشار بإصبعه في دائرة ونظر إلى الحاخام في تحدٍّ.. جُنَّ جنون الحاخام ومرة واحدة غرس السكين في رقبته فصرخت وجحظت عيناه، هرعت إليه فاختفى واختفى الحاخام فهرعت إلى غرفة جدي، وحينها انهارت قواي فقد كان جاحظ العينين وعلى رقبته علامة زرقاء في مكان سكين الحاخام اللعين تمامًا لأول مرة، يُمسك برقبته وينظر إليَّ كأنه يستغيث، لم أدري ماذا أفعل.. لكنني تركته وذهبت إلى أبي أستغيث به، لكنني ظننت أنه لن يصدقني كما يفعل دائمًا ولهذا قررت أن أذهب لأحضر مراد فهو الوحيد العالم بما يدور حولي، ولما جاء معي ودخلنا الغرفة.. نظر له جدي مصعوقًا وبصق عليه، ثم أمسك بيدي بقوة هائلة حتى شعرت أن عظامي ستتكسر.. ثم بدأ يهدأ رويدًا رويدًا وينظر إلى أشعة الشمس في رضا واستسلام للحظات.. وسمعته يتمتم بالشهادة وأسلم روحه لله.

* * *

يناير ١٩٧٣

لم يتبقَّ لي من مباهج الدنيا شيئًا برحيل جدي وصديقي الوحيد، ولم أعد أهتم بشيء على الإطلاق، تساوى الجميع، وغمر الحزن البيت حتى أصبحت أراه أضيق بكثير مما هو عليه، كل يوم يزداد براحه ضيقًا، وأنتظر أن يطبق الضيق على روحي لأقابل جدي الحبيب في يوم من الأيام، هكذا كنت أفكر.

رأيت جلال في بدلته العسكرية في عزاء جدي يبكي بشدة، يبكي أكثر من إخوتي فقد كان بمثابة جده الحقيقي، تلاقت نظراتنا للحظاتٍ وهمَّ أن يواسيني، خفق قلبي لكنني تذكرت كل شيء فمشيت بعيدًا عنه، كان أبي قد اتفق مع مراد ليكون ميعاد زفافنا في مارس المقبل، أصبح الأمر مُستحيلًا بالنسبة لي فطلبت من أبي تأجيله فوافق.

جلست وحيدة على فراش جدي الذي لم أفارقه منذ وفاته، أتحسس مكانه وأبكي وأسترجع آخر مرة رأيته، لم يتخلَّ جدي عن جلال أبدًا، ولم يحب مراد أبدًا، جلال أيضًا لم يحبه بدافع الغيرة منذ اللحظة الأولى، ترعبني احتمالية أن يكون للحاخام دخل في موت جدي، أقسم إنني لو رأيته مرة ثانية سأمزق أحشائه!، ولو رأيت جدي مرة ثانية لسألته وفهمت منه وتوسلت إليه كي يخبرني

الحقيقة! تذكرت فجأة الظرف الأبيض الذي خص به أبي، وهرعت إلى دولابي كأنني سأرى جدي أمامي، أمسكت الظرف وبكيت من جديد بحرقة، هل أقرأه أم أحترم الأمانة؟ ظللت في تلك الحيرة حتى قررت في النهاية أن أحترم رغبة جدي رغم فضولي، فذهبت إلى أبي في المقهى، إضطرب أبي لما رآني عنده، لأن تعليماته للبنات ألا يذهبن له في المقهى إلا عند الطوارئ فقط، فسألني مضطربًا:

- هل أمك بخير؟

- نعم يا أبي لا تقلق.. لكنها لا تعلم بوجودي معك الآن.. لقد طلب جدي ألا يطلع على الأمر غيرك.

- جدك!

أخبرته بأمر الظرف في عجالة، فأخذه في لهفة وجلس.

- لماذا لم تقولي من قبل؟

- صدقني يا أبي.. نسيت من فرط حزني وصدمتي.

فتح أبي الظرف وقرأ:

«بينما كنت أتفحص البيت قبل أن يصل أولادك في أواخر ١٩٥٧، فإذا بي أجد أغلى ما نملك في أغلى ما نملك.. تحرى الدقة يا بني، لا أستطيع أن أوضح الحقائق.. أخاف أن تقع كلماتي في يد العدو»

- ماذا تريد أن تقول يا أبي؟ أنا لا أفهم شيئًا.. هل كان هذا الخطاب أثرًا من آثار الغيبوبة؟

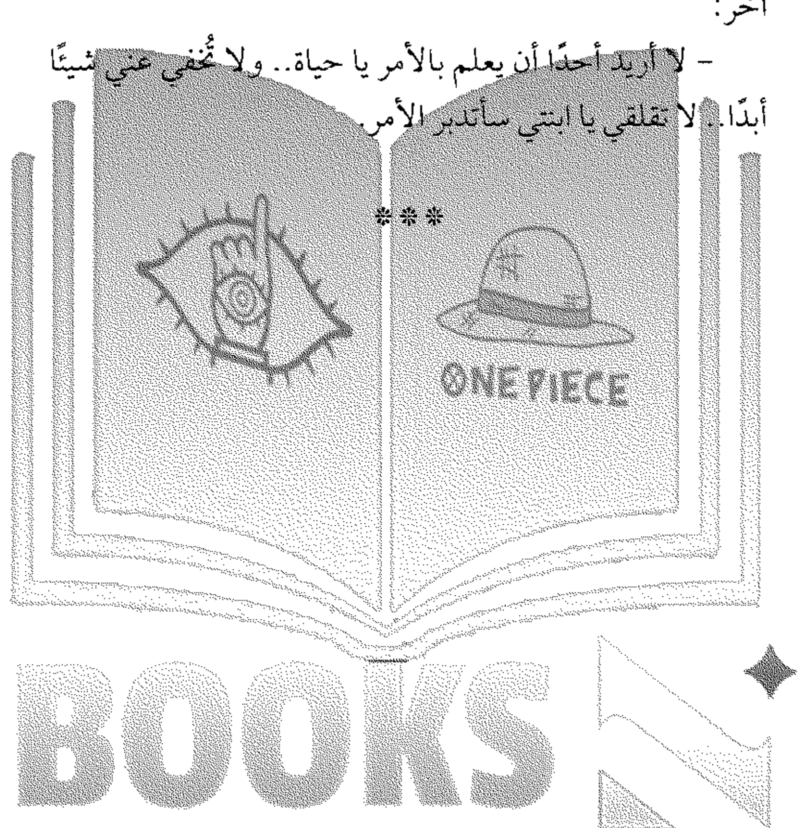
- حسنًا.. بعد أن رحل الذي كُنت أخاف عليه.. سأقص

عليك يا أبي أشياء لن تصدقها.

وبدأت في سرد قصتي المُريبة مع الحاخامات فجحظت عين أبي ولاحت عليه الدهشة والخوف، وقال وكأنه يتحدث من عالم آخر:

- لا أريد أحدًا أن يعلم بالأمر يا حياة.. ولا تُخفي عني شيئًا أبدًا.. لا تقلقي يا ابنتي سأتدبر الأمر.

***



يوليو ١٩٧٣

جلس السيد شاذلي وزوجته مع أبي وأمي ومراد، السيدة أنيسة لا تفوت لفتة إلا تنظر لمراد في ازدراء شديد، ثم ترمقني في لوم وعتاب، رحمك الله يا جدي.. إنها تُذَكِّرني به، لا أعلم لماذا لا يلومون جلال أبدًا! أليس هو المسؤول عن كل ما حدث؟

قال والد جلال لمراد:

- أنت تزعم أننا سنحارب يا مراد؟

- لا أزعم إنما أتمنى.. بدأت أشك في ضياع الحلم الذي وعدنا به ناصر.

- لقد تسلم الرئيس محمد أنور السادات البلد في وقت صعب وظروف أصعب، لا بُدَّ أن يأخذ فرصته، لم يمضِ على فترة حكمه ثلاث سنوات كاملة.. ليكن نفسك طويل لسنواتٍ قادمة.

- سنوات!

- للأسف.. أحاول أن أبقى متفائلًا رغم تردد الإدارة في اتخاذ قرار الحرب.

- ولماذا التردد في مُحاربة الصهاينة؟

- لا تنسَ أنهم يفوقوننا في تكنولوجيا المعلومات ونوعية الأسلحة والإمكانيات، كما أنهم أكثر تنظيمًا.. الجيش أعلن حالة

التأهب في المطارات والقواعد الجوية أكثر من مرة، ثم أعلنوا أنها مجرد تدريب روتيني، الكثير من التدريبات والمناورات دون فائدة، لم يستطع أن يكمل ما بدأه للأسف.. كانت الخطة أن نحارب في مايو، وانقضى مايو وانقضى يونيو، والآن يوليو ولا تقدُّم يُذكر.

- تقول إنهم يفوقوننا لكننا نفوقهم في حماسنا.

ضحك السيد شاذلي وقال:

- الحماس وحده لا يكفي للحرب يا بني، هناك عناصر أخرى، للأسف فكرة الحرب بعيدة الآن والشواهد كلها تدل على ذلك.

- كيف؟

- ألا تعلم يا مراد أنه تم تسجيل أسماء الضباط الراغبين في تأدية مناسك الحج، وتنظيم دورات رياضية عسكرية، وغيرها من الشواهد الغريبة! قل لي بالله عليك.. هل هذا جيش ينتوي الحرب؟

- وإلى متى هذه الفوضى يا عمي؟

تملكت الكآبة من أبي وقال للسيد شاذلي:

- حديثك يتخلى عن دم الشهداء.. وأنا ككل المصريين لن أتخلى عن دم ابني الشهيد يا سيد شاذلي.. لو أنهم يقبلونني مُجندًا لذهبت وحاربت وانتصرت.

اعتدل السيد شاذلي في جلسته، وتغيرت ملامحه ونبرة صوته قائلًا..

- رحم الله الشهيد يسري وكل شهدائنا.. كنت فقط أسترسل في قول ما أراه، لم أقصد جرح مشاعرك يا سيد أحمد.. لتكن مشيئة الله.

* * *

فجر ١ أكتوبر ١٩٧٣

منذ أن هلَّ رمضان انقطع دابر الحاخامات جميعًا وكبيرهم الملعون، وواظبت أنا على قيام الليل عندما تيقنت من إمكانية انتصاري عليهم، أصبح البيت شبه خالٍ وقد صار عصام في السنة الأخيرة بكلية الطب.

جلست في انتظار الفجر أسبح وأفكر.. هل يكون كل ما أراه وهمًا صنعه عقلي؟ لكنني في كل الأحوال لم أعد أخاف منهم، فمن كنت أخاف عليه قد رحل وارتاح من عناء رحلته، لم أعد أبالي بشيء أو بأحد، حتى جلال لا أذكره كثيرًا إلا عندما أتذكر كلمات جدي الأخيرة قبل أن يعذبه الحاخام ويلقي حتفه، هل حقًا عذبه؟ عقلي يفكر كل يوم فيما كتبه جدي لأبي في خطاب لم يحتوِ إلا بضع كلمات، أنا على يقين أنها رسالة هامة، وليست هذيانَ غيبوبة كما تقول أمي.

«أغلى ما نملك في أغلى ما نملك»، ماذا تقصد يا جدي؟

استيقظ والداي لتناول السحور، وبعد أن أذن الفجر صلينا وبقيت أنا جالسة أفكر في البلكون بعد أن خلدا للنوم، وفجأة تذكرت كلمات جدي وهو يقولها أثناء حكاياته لي أنا وجلال.. «الوقت هو أغلى ما نملك».. كان يؤكد على هذا، وكأنه يحاول أن يمنعنا من النسيان أو احتمالية وجوده، كان تلك الجملة هي

مفتاحه في الحديث وكثيرًا ما رددناها وراءه أنا وجلال كنوع من أنواع المزاح، ولكنّ ما هو أغلى ما نملك؟ وكيف نضعه في الوقت إذا صح ظني؟

بقيت أفكر ولا شيء يخطر ببالي حتى بدأت أتثاءب في إرهاق، وبدا لي أن أذهب للفراش بعد أن لفحتني نسمات برد قوية، وأثناء ذهابي لغرفتي دقت الساعة العتيقة.. وقفت مُنتبهة.. الوقت.. الساعة.. قد تكون الساعة.. لطالما رأيته عندها لكنني لم أعِر الأمر أهمية قَطّ، هرعت إلى الساعة ووقفت أمامها أنظر إليها في دهشة إلى أن توقفت دقاتها الست، ففتحت بابها الزجاجي الكبير وبدأت أستكشف لأول مرة ما بداخلها، تبدو فارغة لكني أدخل يدي فلا أجد شيئًا، بدأت أشك في خطأ اعتقادي، أغلقت بابها فتحرك شيئًا بداخلها، بسرعة أعدت محاولتي وإذا بي أمسك بشيء خشبي وقع طرفه! بدأت أحركه يمينًا ويسارًا حتى أخرجته من الساعة.. إنه صندوق خشبي!

جلست وفتحته في لهفة فوجدت الكثير من الخطابات القديمة.. الخرائط.. خريطة تقسيم فلسطين! ما كل هذا؟ الوثائق باللغة العبرية والإنجليزية.. مذكرات يومية.. صور قديمة لشابين كُتب عليها «بداخل مستعمراتنا اليهودية في فلسطين»! صور أخرى في عرسهما.. صور أطفال وشباب.. أقلب أكثر فأجد كلمات بخط جدي مُلصقة بخطاب بينهم يقول:

«في ١٩٥٧ جلست على الكرسي البامبو في البلكون قبيل

الفجر أترقب حركة المارة القلائل، وأترقب الزمن يزحف في سرعة وثبات لأُتم عامي السبعين، لا أستطيع أن أرجوه ليتمهل قليلًا أو أسرعه فينقضي زماني في هدوء، كل ما أمتلكه الآن هو الترقب والانتظار، استغرقت عمرًا كاملًا لأستوعب ألاعيب الحياة.. ومع ذلك لا زالت تخدعني! سمعت صوت الفرج في الفجر، فلبيت النداء، ثم قرأت ما تيسر لي من القرآن فسمعت الساعة العتيقة الخربة تدق دقتين فقط، وقد أصبحنا في الرابعة فجرًا، ولم تكن أول مرة فعزمت على إصلاحها، وعندما فككت البندول رأيت وراءه طرفًا خشبيًّا مثلثًا حسبته جزءًا من الساعة في البداية وكدت أغلقها، لكنه تحرك إلى الأسفل عند تركيب البندول مرة ثانية، أردت أن أقيمه مكانه فوجدته متحركًا غير ثابت، تحسسته فعلمت أنه ربما صندوق فأخرجته بحذرٍ، أغلقت باب الساعة الزجاجي، وجلست وحدي في البلكون أتفحص الصندوق الذي احتوى على رسائل لم تكن لتخطر ببال أحد..»

◆ عزيزي حاييم

كلما تذكرت أفكاري حينما كنا سويًّا في المخيمات الاستعمارية في فلسطين، أدركت حجم سذاجتي، لقد أمضيت في مصر ما يقرب من الخمس عشرة سنة.. ومع ذلك لم أستطع تحقيق حلمي إلا بالحيلة.. والسحر، لقد نفذت نصيحتك وذهبت إلى الحاخام في القاهرة، وألقيت ما أعطاه لي في سطح عمارة، ذلك الصائغ الذي

يدعى عزيز المصري، لكني ما زلت أشفق على هذا المسكين صاحب العمارة بالأساس وأولاده الصغار، كانت امرأته تملك حدسًا سيئًا قويًّا تجاهي لكنه لم يصدقها، لقد أغرقتُه بالحيلة والخبث في الديون حتى اقترض الكثير بضمان العمارة ومحل الذهب وأصبح لا حيلة له الآن إلا تركهما لي، لقد استوليت على العمارة كما خططت.. لقد بلغ هارون الرابعة عشرة من عمره، ماذا كان عساي أن أفعل حيال مستقبله؟ فقط أردت حمايته فلا أحد يعلم ما تخبئه الأيام»

أخوك المخلص

داوود عزرا - الأول من مايو ١٩٣٣

عزيزي داوود..

«أكتب إليك وأنا في حيرة كبيرة، لم نكن أبدًا على وفاق فيما يخص أحلامنا في الحياة، لكن دعني أولًا أبارك لك امتلاكك «عمارة آل داوود» السنة الماضية.. امتلكتها بالحيلة التي انتقدتها أنت في يوم من الأيام! لا تشعر بالحرج، لقد حققت حلمك بالاستقرار كما أرى وأنا سعيد من أجلك، أما أنا فلا زلت على أول طريق الحلم، لقد مات «إدموند روتشيلد» بعد أن عملت معه أربعة عشر عامًا وتعلمت الكثير. أصبحت لا أملك إلا أن أكمل طريق الحلم الطويل مع عائلته، وأتمنى أن ألقاك في الدولة اليهودية مقيمًا لا زائرًا، أو آتي أنا إلى أرض الميعاد يومًا ما مُقيمًا لا زائرًا، أحلام سوف تتحقق بالمثابرة صدقني.

سوف أطلعك على أحد خيوط الحُلم يا داوود، الأمر هام وخطير وأنا لا آتمن غيرك في الحياة، ولا حتى ليفي، تعلم أنه في السابعة عشرة الآن وأنه طائش، لذلك أرفقت إليك كل الوثائق والخرائط الخاصة بخطط الصهيونية العظيمة، حافظ عليها كما تحافظ على حياتك، لأن بقاءها معي أصبح خطرًا على حياتي، نحن نعد لتقسيم فلسطين لعدم إمكانية الاستحواذ عليها مرة واحدة، لكننا حتمًا سنفعل، تقسيم فلسطين وإضعاف شوكة العرب عن طريق مصر أمرٌ ضروري لإقامة الدولة اليهودية.. «دولة بني إسرائيل».. تذكَّر دائمًا يا أخي الحبيب أننا من سلالة عزرا المؤمنة النقية الذي خرج من مصر مع موسى النبي.

سوف أوافيك بمزيد من الأخبار والوثائق.

أخوك المحب،

حاييم عزرا - الثاني من نوفمبر ١٩٣٤

العم حاييم العزيز

«لم أشعر بمرارة أبدًا مثلما شعرت حينما دُفن أبي الحبيب داوود في مصر، عزائي أنها أرضنا المقدسة، «عمارة آل داوود» أصبحت مصدرًا للكآبة، إنني أراه في كل شبر منها، لكنني لا أملك إلا أن أحفظ إرث أبي كما تعلم، أكتب إليك وقد مسحت الفرحة على

قلبي من جديد بولادة «إسرائيل» اليوم، كانت الولادة عسيرة كحلم اليهود لكنها حدثت، أردتك أن تشاركنا الفرحة أنا وجابي».

ابن أخيك المحب

هارون داوود عزرا - السادس من يونيو ١٩٤٩

إحدى الوثائق القديمة كُتب عليها «سري للغاية»..

«البروتوكول الأول:

سنكون صرحاء، ونناقش دلالة على كل تأمُّل، ونصل لشروح وافية بالمقارنة والاستنباط، وعلى هذا المنهج سنعرض فكر سياستنا وسياسة الجوييم.

يجب أن يلاحظ أن ذوي الطبائع الفاسدة من الناس أكثر عددًا من ذوي الطبائع النبيلة، وإذًا فخير النتائج في العالم ما يُنتزع بالعنف والإرهاب، لا بالمناقشات الأكاديمية...»

«البروتوكول الثاني:

.... إن الصحافة التي في أيدي الحكومة القائمة هي القوة العظيمة التي بها سنحصل على توجيه الناس، فالصحافة تبين المطالب الحيوية للجمهور، وتعلن شكاوى الشاكين، وتولد الضجر أحيانًا بين الغوغاء، وإن تحقيق حرية الكلام قد ولد في الصحافة، غير أن الحكومات لم تعرف كيف تستعمل هذه القوة بالطريقة الصحيحة، فسقطت في أيدينا، ومن خلال الصحافة أحرزنا نفوذًا، وبقينا نحن وراء الستار، وبفضل الصحافة كدَّسنا

الذهب، ولو أن ذلك كلفنا أنهارًا من الدم، فقد كلفنا التضحية بكثير من جنسنا، ولكن كل تضحية من جانبنا تعادل آلافًا من الأمميين أمام الله.

............لم يعد الأمميين قادرين على التفكير في مسائل العلم دون مساعدتنا...

.... لقد أقنعنا الأمميين بأن مذهب التحررية سيؤدي بهم إلى مملكة العقل...

استكشف ما بالصندوق.. ما زال الكثير من الوثائق..

«البروتوكول الرابع عشر..

حينما نمكن لأنفسنا فسنكون سادة الأرض، لن نبيح قيام أي دين إلا ديننا، أي الدين المعترف بوحدانية الله الذي ارتبط حظنا باختياره إيانا كما ارتبط به مصير العالم.

ولهذا السبب يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان، وإذ تكون النتيجة المؤقتة لهذا هي إثمار ملحدين فلن يدخل هذا في موضوعنا، ولكنه سيضرب مثلًا للأجيال القادمة التي ستصغي إلى تعاليمنا على دين موسى الذي وُكِّل إلينا - بعقيدته الصارمة - واجب إخضاع كل الأمم تحت أقدامنا».

صور قديمة أيضًا.. ما هذا يا إلهي! إنه الطفل الذي ظهر لي من قبل! وهذه العائلة التي رأيتها في صور الطفل! إنها والدة مراد مع هذا الطفل! لقد أراني صورة لأمه بعد خطبتنا لكنني لم أنتبه بالطبع! إذًا لا بُدَّ أنها صور لمراد في طفولته مع عائلته! كان ظهرها

مكتوب عليه «إسرائيل هارون داوود عزرا ووالدته جابي»!!
انهمرت دموعي من هول الصدمة! ثم وجدت أجندة صغيرة دون فيها جدي مذكراته بعنوان «الحقيقة لا يمكن إخفاؤها»، جاء في إحدى صفحاتها..

«اليوم يزورني مراد أو إسرائيل، في الاسبتارية، يضع شيئًا كريه الرائحة في طعامي ويجبرني على تناوله فأرفض فيبعث الله الممرضة فجأة لتنهي ميعاد الزيارة، لكنه هدَّدني بقتل حياة إذا أفشيت سرَّ حقيقته، وأن أعطيه وثائق حاييم وخطاباته لجده داوود، ورغم أنه يضع السحر الأسود في البيت لنتركه لكنني لن أتركه إلا جثة هامدة.. هذه أرضنا وأملاكنا».

***

عصر ١ أكتوبر ١٩٧٣

بعد أن علم أبي بما اكتشفته، أمسك بالصندوق وبكل ما يحتويه وجلس وكأنه تلقى ضربة قوية على رأسه، وقال:

– هل أخبرتِ أحدًا غيري؟

– لا..

– لا تفعلي.. لا بُدَّ أن أخبر شاذلي.

– هل أذهب لأسأل عنه؟

– لا.. لا أريد مراد أن يشك.. فمنذ أن تمت خطبتكما قلت تعاملاتك مع عائلة جلال، لا بُدَّ أنه يراقبنا، سأصل لشاذلي بطريقتي، يجب أن أتصرف بسرعة فسوف يأتي للإفطار كما دعوناه، اذهبي أنتِ الآن ولا تخبري أمك بشيء.. سوف أتصرف.

ذهب أبي وعاد بعد ساعتين واجمًا، وقد شعرت أمي أننا على غير عادتنا، فألحت في السؤال دون فائدة، وقُبيل المغرب أتى مراد أو إسرائيل، محمَّلًا بالفاكهة والحلوى.. يصطنع الجوع والعطش، أقاوم رغبة في قتله لكني أبتسم وأتصنع كما أوصاني أبي.

على مائدة الطعام جلست أمي بجانب أبي وجلست بجانب مراد رغمًا عني في انتظار أذان المغرب، كان هناك شيء مُريبٌ بلا شك شعر به، إذ نظر لنا وابتسم في خبث قائلًا:

– حياة وعمي.. هل أنتما بخير؟

قالت أمي بتلقائية عجيبة:

– لا أظنهما يا بني.. يبدوان عجيبين هذا النهار!

– لعلَّه خير يا عمي؟

– لا عليك يا مراد.. وداد بارعة في تضخيم الأمور.

أذن المغرب وبدأت أمي توزع الطعام علينا، كنت وأبي بارعين في اصطناع الجوع فأكلنا بنهم، خاصة بعد كلمات أمي التي أثارت فضول إسرائيل، طرق الباب طرقًا عنيفًا.. نظر لي أبي نظرة فهمها إسرائيل فنظر لي وترك ما بيده مُترقبًا.. شرعت أن أفتح الباب لكنه قال:

– أكملي إفطارك يا حياة.. سأفتح الباب.

تبادلت مع أبي نظرات أثارت دهشة أمي، فتح إسرائيل الباب فوجد السيد شاذلي في مواجهته يبتسم وسمعنا:

– السلام عليكم.

– أهلًا يا عمي.

– أهلًا بدون استضافة؟

– لم أتوقع قدومك الآن.. تفضل.

– دعني أتأكد أنها شقة السيد أحمد الدنون.. إنها بالفعل هي.. كما أنها عمارته أيضًا.

دخل إسرائيل بعينين زائغتين وأذن حمراء، دخل وراءه السيد شاذلي يمشي بتفاخر في بدلته العسكرية لكنه ترك الباب مُواربًا

وغمز لأبي بعينه، فتملك الفضول من أمي وقالت:
- أهلا وسهلًا يا سيد شاذلي.. سأحضر لك طبقًا..
- لا داعي يا أم يسري..
نظرت أمي وإسرائيل له في تعجُّب وفضول، إذ أنها المرة الأولى التي يناديها فيها بأم الشهيد.. دمعت عين أمي وتركت الطعام، وفجأة سمعنا جلبة بالخارج ورأيت من وراء الشراعة الزجاجية أناسًا كثيرة، جلس السيد شاذلي وقال لأبي في هدوء:
- أتذكر يا سيد أحمد ذلك اليوم الذي اجتمعنا فيه هنا في يوليو الماضي وتناقشنا في أمور الحرب؟
- نعم..
- لم أقل الحقيقة.. جيشنا المصري في أحسن حالٍ، وأعلم أننا سنحارب..
نظر له إسرائيل في ريب وقال:
- ولماذا أخفيت الحقيقة؟
ضحك الرجل وقال:
- وهل تعلم أن رجال المخابرات المصرية بهذه السذاجة يا إسرائيل؟
تسمر إسرائيل مكانه وتسمرت كل حركاته وعيناه على السيد شاذلي، وشعرت وكأن الشلل قد أصابه، لكنه تدارك أمره وتصنع اندهاشه:
- هل تحدثني أنا؟

أكمل السيد شاذلي وهو يضحك:

- بعد أن تولى الفريق سعد الدين الشاذلي منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة في مايو ١٩٧١، بدأ مهام عمله بدراسة الإمكانيات الفعلية للقوات المسلحة المصرية ومقارنتها بالمعلومات المتاحة عن قدرات الجيش الإسرائيلي، لكن هناك تكملة للقصة، أقولها بحق.. إن بقية القصة مُشوقة جدًّا لكنني لا أحكيها للجواسيس الصهاينة، سأتركك تعيشها بنفسك الفترة القادمة وتذهب نفسك حسرات، وبعد الحسرة تُزهق روحك إن شاء الله..

كادت أمي أن تذهب في إغماءة لكنني أمسكت بها كي ترى حقيقة من تحبه، وتحولت نظرات الدهشة في عين إسرائيل إلى حنق وغضب، وتحولت ملامحه لشخص لم أعرفه من قبل، أكمل السيد شاذلي وهو ينظر إلى أبي في احترام:

- المخابرات المصرية تراقبه منذ أن اشترى المقهى من جاك وميتشو، الذي أجبره ليفي عم إسرائيل على بيع المقهى وكل أملاكه وترك مصر، من أجل إفساح الطريق لإسرائيل هارون داوود عزرا، الذي عاش بمصر حتى عامه الثامن، هاجر مع والدته جابي إلى فرنسا عام ١٩٥٧، وبعد أن ماتت في ١٩٥٩ تولاه عمه ليفي، ليتربى مع ابن عمه إسحق في فلسطين المحتلة، ويلتحق بتدريب الموساد في سن مبكرة، ليدخل مصر تحت اسم «مراد نظمي» الفلسطيني في أواخر العام ١٩٦٦، المُناضل الذي يريد جمع المال لنصرة المقاومة الفلسطينية، لذلك كنت آتي إلى بيتك أغلب

الأوقات في وجوده.. لأقابله وأعطيه معلومات مُضللة، سامحني يا سيد أحمد لأنني شككت بك في يومٍ من الأيام، إلى أن أثبتَّ أنت ولاءك بتسليمك الوثائق السرية كلها.

عندها صرخ إسرائيل ناظرًا لأبي:

– ماذا؟! هل سلمته الوثائق السرية!! لقد أنفقت من عمري الكثير لأستردهم مع ابنتك البلهاء.

مرت حينها مواقفه معي وكأنها شريط سينمائي وصرخت في وجهه:

– بلهاء لأنني صدقتك وأنت تنثر سائل السحر في أرجاء الشقة وكنت أحسبه الشفاء.. رحمك الله يا جدي الحبيب، لم يخطئ حين لقبك بالثعبان.

لم يبالِ بي وصاح:

– أنا أحذركم.. هذا إرثي وإرث كل يهودي.. ثم إن هذه العمارة ليست ملكًا لكم.. لقد وُلدت هنا.. إنها «عمارة آل داوود».. ستندمون جميعًا عندما نتمكن من الأرض، سيكون النصر حليفًا لإسرائيل.

قاطعه السيد شاذلي في حزمٍ:

– لن يحدث يا إسرائيل.

– أنتم واهمون.. إنها أرض الميعاد، نحن بني إسرائيل.. العِرق اليهودي لا يعلوه الدنس أمثالكم، نحن شعب الله المُختار، ولن نتنازل عن أرضنا.

حينها دخل جنود كثيرة بسرعة بملابس مختلفة يحملون أسلحتهم، وفي ثوانٍ معدودة كانوا حول إسرائيل يمسكون به في مشهد جعلنا نشعر ببعض الراحة، بعد أن خرج الجنود بالجاسوس. أدى السيد شاذلي

التحية العسكرية أمام أبي وانصرف.. نظر أبي لصورة يسري وقال:

- لقد بدأ الانتقام يا شهيد.

وقبل أن يُكمل تفاجأنا بأخي نصر وزوجته وابنته وداد يدخلون البيت مذعورين بعد أن رأوا كل هذا الكم من العساكر والضباط، ممسكين بإسرائيل، صرخت أمي:

- نصر! لا أصدق.. ظننت أنني سأموت قبل أن أراك.

- بعد الشر يا ست الكل، الحمد لله الذي يسَّر لي هذه الزيارة، أردت أن أراكم جميعًا، لقد هاتفني صابر منذ أيام لكنني لم أفصح عن مجيئي لأجعلها مُفاجأة، وتحدثت مع عصام وسيأتي غدًا من القاهرة، سيصبح طبيبًا كبيرًا بعد شهور قليلة، افتقدتكم جميعًا.. وأفتقد توأمي صابر يا أمي.. أريد أن أراه.

- صابر على الجبهة.. لكنه يتحدث إلينا بين الحين والآخر.

أصبحت الأحضان والدموع المنهمرة هي اللغة الوحيدة حين عجزت الكلمات، جفف نصر دموعه لكنه ما زال مُتأثرًا بما رآه عند دخوله البيت فقال مُشيرًا نحو الباب:

- أليس هذا مراد خطيب حياة؟ أنا أتذكره جيدًا من الصور التي أرسلها مرتضى.. ماذا يحدث يا أبي؟

لم يعلق أحد وبكيت في أحضان أمي وأبي وهما يبكيان عند صورة الشهيد يسري وسط ذهول نصر وأسرته.

* * *

الاثنين ٦ أكتوبر ١٩٧٣
- العاشر من رمضان - الثانية ظهرًا

انطلق صوت أحد الرجال من الحارة يجلجل في الصمت:

- الحرب قامت.. مصر وسوريا يحاربان الصهاينة.. يا ناس.. الحرب قامت.

حينها رن جرس الشقة في تتابع، خرجت أمي من المطبخ تهرول حتى فتحته فسمعت أبي يقول:

- افتحوا الراديو.. افتحوا التليفزيون.. افتحوا أي شيء الآن..

وفي تتابع خرج عصام من غرفته وبعده نصر وزوجته وابنته، فتحنا الراديو:

«هنا القاهرة.. جاءنا الآن البيان التالي من القيادة العامة للقوات المسلحة.. قام العدو في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر اليوم بمهاجمة قواتنا بمنطقتي الزعفرانة والسخنة في خليج السويس بواسطة عدة تشكيلات من قواته الجوية عندما كانت بعض من زوارقه البحرية تقترب من الساحل الغربي من الخليج، وتقوم قواتنا حاليًا بالتصدي للقوات المُغيرة.. هنا القاهرة».

جلست أمي وظلت تضرب رأسها وتبكي وتقول:

- أريد ابني يا سيد أحمد.. أريد صابر.

- اهدئي يا وداد.. صابر مثل كل جنود مصر ينتظر الحرب.. سيرجع سالمًا إن شاء الله.

دخلت السيدة أنيسة مُتوترة وأغلقت باب الشقة قائلة:

- سعيدة.. الباب كان مواربًا.. يقولون الحرب قامت.

قال أبي:

- الحمد لله على مجيئك يا ست أنيسة.. وداد تبكي من الآن.

جلست بجانب أمي تهدئها وانتبهنا من جديد لصوت الراديو:

«هنا القاهرة.. جاءنا الآن من القيادة العامة للقوات المسلحة البيان التالي.. بيان رقم ٢.. ردًا على العدوان الغادر الذي قام به العدو ضد قواتنا.. تقوم حاليًا بعض من تشكيلاتنا الجوية بقصف قواعد العدو وأهدافه العسكرية في الأراضي المحتلة.. هنا القاهرة».

قال نصر وهو يبكي:

- لقد ذقت مرارة الغربة بعيدًا عن أهلي ليأسي من رجوع البلد لأصحابها.. ليأسي من النصر.. أتراهم يزيفون الحقائق كما فعلوا في ١٩٦٧؟

«هنا القاهرة.. جاءنا الآن من القيادة العامة للقوات المسلحة البيان التالي.. إلحاقًا للبيان رقم ٢ نفذت قواتنا الجوية مهامها بنجاح وأصابت مواقع العدو بإصابات مباشرة وعادت جميع طائراتنا إلى مواقعها سالمة عدا طائرة واحدة.. هنا القاهرة».

صرخت أمي:

- صابر.. ابني..

قال أبي في ضيق:

- يقول طائرة وليس دبابة.. لا بُدَّ أن تهدئي.. لا تقدِّري البلاء قبل وقوعه.

«هنا القاهرة.. جاءنا الآن من القيادة العامة للقوات المسلحة البيان التالي. البيان رقم ٤.. حاولت قوات معادية الاستيلاء على جزءٍ من أراضينا غرب القناة وقد تصدت لها قواتنا البرية وقامت بهجوم مضاد ناجح ضدها بعد قصفات مركزة من مدفعياتنا على النقط القوية المعادية، ثم قامت بعض من قواتنا باقتحام قناة السويس مطاردة العدو إلى الضفة الشرقية في بعض مناطقها ولا زال الاشتباك مستمرًا على الضفة الشرقية لقناة السويس.. هنا القاهرة»

تمتم نصر:

- يا رب نصرك..

«بسم الله.. الله أكبر بسم الله بسم الله.. بسم الله.. أذن وكبر.. بسم الله بسم الله»

«هنا القاهرة.. جاءنا الآن البيان التالي من القيادة العامة للقوات المسلحة.. نجحت قواتنا في اقتحام قناة السويس في قطاعات عديدة، واستولت على نقط العدو القوية بها.. ورُفعَ علم مصر على الضفة الشرقية للقناة.. هنا القاهرة».

قالت السيدة أنيسة:

- الله معكم يا ولادي.. الله ينتقم من الصهاينة.

«هنا القاهرة.. جاءنا الآن من القيادة العامة للقوات المسلحة البيان التالي.. البيان رقم ٦.. نتيجة لنجاح قواتنا في عبور قناة السويس.. قام العدو بدفع قواته الجوية بأعداد كبيرة فتصدت له مقاتلاتنا واشتبكت معه في معارك عنيفة وقد أسفرت المعارك عن تدمير إحدى عشرة طائرة للعدو وقد فقدت قواتنا عشر طائرات في هذه المعارك.. هنا القاهرة».

قال عصام:

- فارق طائرة واحدة!

صاح أبي:

- سينصرنا الله نصرًا عزيزًا.

«بسم الله.. الله أكبر بسم الله بسم الله.. بسم الله.. أذن وكبر.. بسم الله بسم الله»

«هنا القاهرة.. إليكم أيها المواطنون البيان رقم ٧ الذي صدرَ عن القيادة العامة للقوات المسلحة بتاريخ السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

نجحت قواتنا المسلحة في عبور قناة السويس على طول المواجهة وتم الاستيلاء على منطقة الشاطئ الشرقي للقناة.. وتواصل قواتنا حاليًا قتالها مع العدو بنجاح.. كما قامت قواتنا البحرية بحماية الجانب الأيسر لقواتنا على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وقد قامت بضرب الأهداف الهامة للعدو على الساحل الشمالي لسيناء وأصابتها إصابات مباشرة... هنا القاهرة».

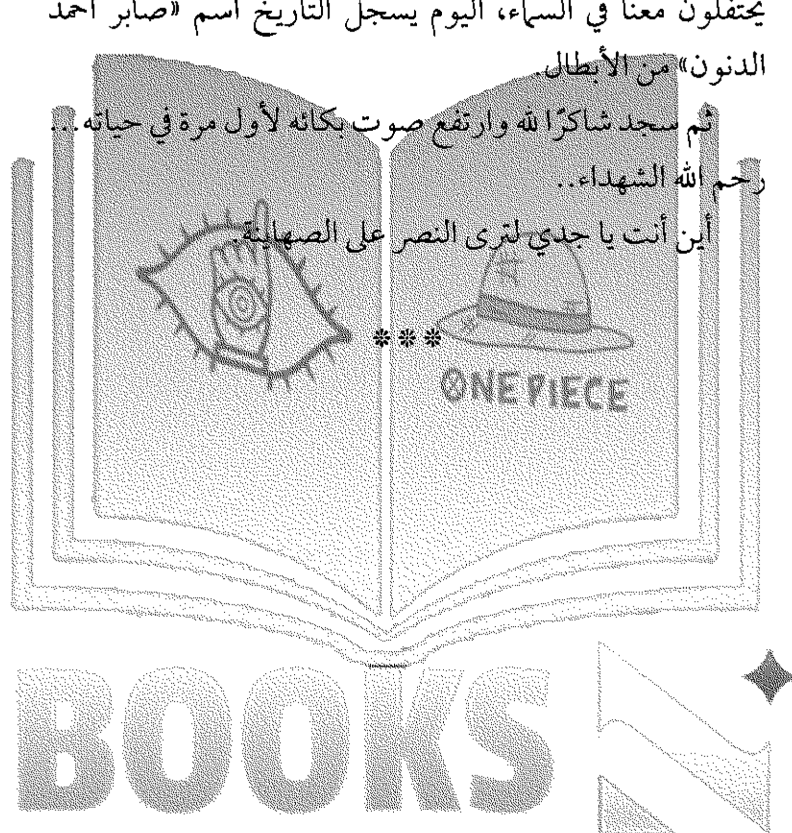
صاح الجميع «الله أكبر.. الله أكبر» ورجت الأصوات البلد كلها.. صاح أبي وقد غرق في دموعه:

- لا تبكي يا وداد.. لقد ثأر الأبطال ليسري وأخي.. اليوم يحتفلون معنا في السماء، اليوم يسجل التاريخ اسم «صابر أحمد الدنون» من الأبطال.

ثم سجد شاكرًا الله وارتفع صوت بكائه لأول مرة في حياته..

رحم الله الشهداء..

أين أنت يا جدي لترى النصر على الصهاينة.



***

٢٥ أكتوبر ١٩٧٣

في اصطفاف مهيب ترأسه أبي ومرتضى وعصام ونصر، السيد شاذلي وجلال وأزواج أخواتي، كنت ورائهم مع أمي وبدر وعايدة ومحاسن وهناء وزوجات إخواني، وبيننا آمال زوجة صابر وإبنه جمال ذو الستة أعوام، الأقارب والأصحاب والمعارف وأهالي بورسعيد كلها وراء جثمان الشهيد «صابر أحمد الدنون» تودعه إلى مثواه الأخير، لم يتوقف حديث نصر إلى النعش أمامه..

- جئت لأراك بعد أن وعدتك.. لماذا لم تصبر يا صابر.. يا توأمي وصديقي.

حاول زملاء صابر تهدئة نصر بلا فائدة، قال الجنود المحاربين أنه كان ممن عبروا قناة السويس في السادس من أكتوبر، والبعض رآه في العمليات الحربية في صباح الثامن من أكتوبر في القنطرة عندما شنت إسرائيل هجوماً مضاداً، فتصدت القوات المصرية للهجمات بنجاح، يقولون أنه قاتل بعزيمة وحماس وإصرار وحب لم يروه من قبل، وفي ٢٤ أكتوبر افتدى زميله في أحد الهجمات

الحربية، قاتل حتى نهايته ونهاية الحرب فى ذلك اليوم، حارب صابر بشجاعة حتى انتصر.

انفلق قلب أمى أمام الحزن بفقد صابر وانكسر ظهر أبى، وأصبحنا بين جنة ونار، هل نفرح للنصر وإسترجاع الأرض؟ أم نحزن لفقد أبنائنا؟ الأبطال الذين ضحوا بأرواحهم من أجلنا، يقول أبى أن الشهداء لو عاد بهم الزمن إلى الوراء لاستشهدوا ألف مرة، لينعموا برفقة الأنبياء وأولياء الله الصالحين.

ردد صابر فى آخر أيامه على الأرض «الحرية لا تُعطى على جرعات.. إما أن تكون حراً أو لا تكون».. وقد أصبح حراً الآن بعد أن جعلنا أحراراً، بل أعاد لمصر حريتها.

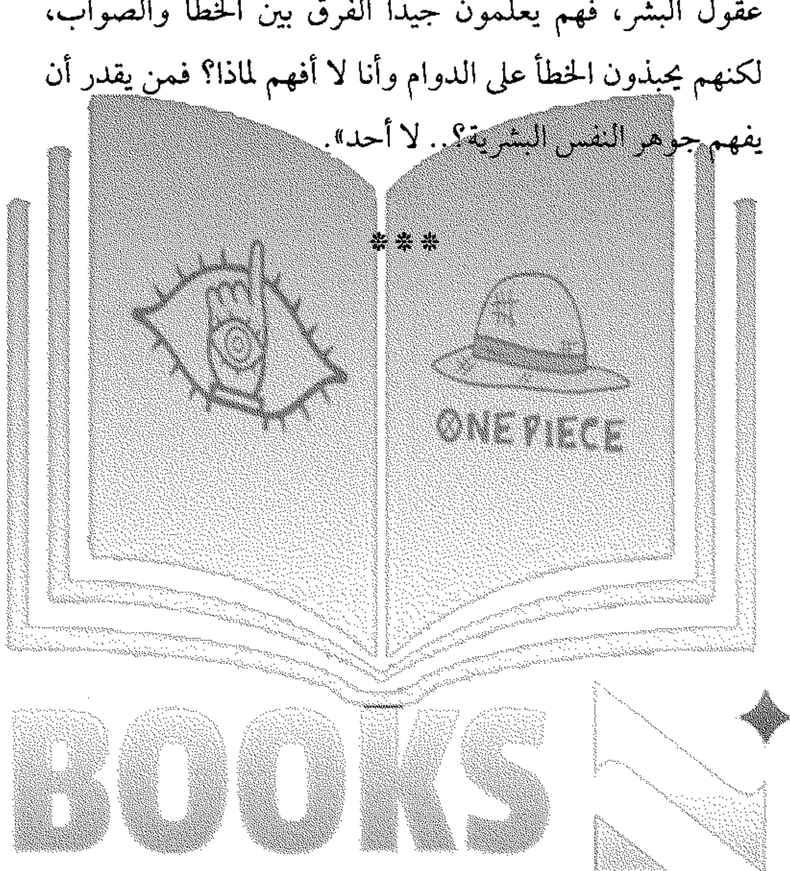
الآن أجلس فى حنق وغضب ودموع لا تجف، هل لابد لهذا العالم أن ينتهي على يد الإنسان؟ هل تفيد إراقة الدماء بكل حال من الأحوال أى من الشعوب؟ أفكر فى جلال.. هل يُحدث الحب فرقاً فى هذه الحياة؟ هل تجتمع أرواحنا من جديد بعد كل هذا العذاب لنُصلح ما خربته الحرب؟ أم أن حبنا قد ضل طريقه إلى الأبد وسط الدماء؟

هل كان لابد أن تُراق كل هذه الدماء؟ أن يستشهد عمي فى حرب ١٩٤٨؟ ويستشهد أخي يسري فى ١٩٦٧؟ ويستشهد أخي صابر فى ١٩٧٣ لنعيش نحن فى أمان؟ أنا أتسائل كيف لشعب عُذب كثيرا أن يعذب شعوباً أخرى؟! لماذا لا يستمتع الإنسان

بكل يوم وكأنه آخر يوم له؟ لماذا لا يقدس هبة الحياة على الأرض!

كان جدى دائماً يردد «المشكلة الأساسية فى هذا العالم هى عقول البشر، فهم يعلمون جيداً الفرق بين الخطأ والصواب، لكنهم يحبذون الخطأ على الدوام وأنا لا أفهم لماذا؟ فمن يقدر أن يفهم جوهر النفس البشرية؟.. لا أحد».

***



الأول من يناير ١٩٧٤ م

جلست أنظر إلى صورة الشهيد صابر وقد انضمت بجانب صورة الشهيد يسري وصورة جدي الحبيب، إبتساماتهم تُحيينى كل يوم، وكأن أعينهم تخاطبني في كل الأوقات، لا تغادر أمى مكانها في مقابلة الصور إلا للنوم.

لازال التليفزيون يعيد خطاب الرئيس «محمد أنور السادات» الذي ألقاه في مجلس الشعب في أكتوبر ١٩٧٣، ولازالت نبرة صوته المميزة تأخذني رغماً عنى بعيداً عن واقعي..

- «وسوف أركز على نقطتين.. الحرب والسلام..

أولاً: الحرب

لست أظنكم تتوقعون منى أن أقف أمامكم لكى نتفاخر معاً ونتباهى بما حققناه في أحد عشر يوماً، من أهم وأخطر.. بل أعظم وأمجد أيام التاريخ»

صفق الجميع في حرارة وجاء أبى مهتماً وكأنه يستمع إلى الخطاب للمرة الأولى..

- «وربما جاء يوم نجلس فيه معاً، لا لكي نتفاخر ونتباهى، لكن لكي نتذكر وندرس ونعلم أولادنا وأحفادنا جيل بعد جيل،

قصة الكفاح ومشاقه، مرارة الهزيمة وآلامها، وحلاوة النصر وآماله»

دمعت عين أبي وهو ينظر إلى صور أبنائه، أما أمى فقد انهمرت دموعها كالسيول، وأنا أشعر بالعجز أمامهما ولا أستطيع أن أمحو أي من الأحزان، وتعلقت عيناي من جديد بجدي والشهيدين.

لكنى انتبهت إلى صوت أبى بعد برهة وقد بدا أنه يكرر حديثه..

- يا بنتى أريحيني، فقد أوشك جلال على القدوم، صارحينى بما يدور بداخلك.. لن أغضبك على شيء.. كان يود لو نقرأ فاتحتكم اليوم لكننى فضلت أن يزورنا بمفرده ثم نحدد ميعاداً لتكون قراء فاتحة وخطبة تقتصر على العائلتين فقط..

- خيراً فعلت يا أبي..

نظرت إليه فوجدت الأمل يملأ عينيه، أما أمى فكانت تنظر إلي بعينان فارغتان، نظرت إليها وسألتها..

- هل ترين في جلال العريس الذى حلمت به لى يا أمى؟

تنهدت وقالت بصوت هادئ..

- لا أملك إلا أن أطلب من الله الخير، لطالما أحبه يسري وتمناه لكِ زوجاً، تماماً مثل جدك، أنت لا تعلمين أن صابر شاركه في أمنيته، لكنك غير مطالبة بتحقيق أمنيتهم الآن، أنتِ صاحبة القرار..

- لكننى أطلب مشورتك..

- بعد كل ما حدث يا حياة.. لا تخدعى نفسك، أنتِ تحبين جلال.. لو تغيرتِ بداخلك لاعترضتِ من البداية على مجيئه..

نظرت في توتر إلى أبى وقد نظر بدوره إلى أمى مُتعجباً، فأكملت حديثها..

- هذا أبيكِ يحبك ويحب أن يراكِ بخير.. توكلى على الله..

ساد الصمت لبرهة صغيرة قطعتها وأنا أنظر إلى أبى في رجاء..

- أعلم تقاليد العائلة جيداً يا أبي، لكننى أطلب منك أن أنفرد بجلال قبل أن أعطيك رأيي..

نظر إلى أمي في ذهول فأومأت برأسها تحثه على الموافقة، نظر إلى مُتحيراً بعد أن فهم ما كُنت أخفيه لسنوات، لكنه كان مُدرك أن حالتى النفسية لا تسمح بكثير من المناوشات، نظر إلى في صرامة..

- حسناً يا حياة.. لأجل جدك ويسرى وصابر أعطيك عشر دقائق على الأكثر..

دق جرس الباب فهرعت مبروكة لتفتحه، كان جلال وبيده كثير من الورود الحمراء، علا صوتها كعادتها..

- يا أهلاً وسهلاً.. ده احنا زارنا النبى..

دخل جلال في حالة من التوتر لم أره عليها من قبل، في حين ملأنى الثبات خاصة لما بدر من ردة فعل أبي غير المتوقعة وتفهمه، تبادلنا التحية وجلس جلال صامتاً وكأنه تلميذ في إمتحان آخر السنة، أتت مبروكة بالشربات وتود لو تبتسم وتزغرد لولا خوفها من أمى، لطالما تمنت هذه السيدة أن تحضر فرحى وترانى سعيدة..

قالها أبي على استحياء ولم ينظر إلى جلال..

- حياة تود أن تنفرد بك قليلاً لأمر هام.. سنترككما، لكن مبروكة ستبقى بالجوار في حال احتجتما أي شيء..

قاما إلى الداخل وإبتسمت لأبي مُمتنة لأنه لم يفعلها من قبل أبداً، ولأني أعلم مبادئه وتقاليده جيداً.

بتنا وحدنا ونظر إلى جلال نظرة لم أقرأها وقال..

- حاولت كثيراً أن أنتظر أكثر من شهرين لكنني لم أستطع الانتظار و..

قاطعته بشيء من الحدة..

- لن تستطيع، لأنك لم تختبر ألم الانتظار من قبل، أنا أعلم الكثير عنه، فقد عانيت منه لأكثر من سبع سنوات..

قاطعني بلطف..

- حياة.. أعلم جيداً كل ما يدور برأسك، وعلمت من أمك كل شيء..

- أمي!

- نعم.. أخبرتني أنها أرغمتك على خطبة هذا المدعو مراد الجاسوس، وأنها أرادت الإطمئنان على مستقبلك خاصة مع غيابي وعدم طلب خطبتك، أعلم كل الظروف المحيطة والموروث الذي نعيش فيه، وكم الضغوط عليك، أعترف أنني لم أقدر هذا الأمر.. لكنني وفيت بوعدي..

نظرت إلى عينيه فلم أجد إلا صدق كلماته، أكمل هو..

- وقلبي يخبرني أنني لازلت الحبيب الأوحد، صدقيني لم أكن أستطيع تكوين أسرة قبل أن ننتصر، أريد أن نتنفس الحرية ونعيشها، كُنت على يقين من النصر رغم إنتظاره لسنوات، أنا أيضاً انتظرت يا حياة، أخبرتك أننى أريد لأولادنا أن يخططوا لمستقبلهم بعزة وكرامة، الكرامة التي دفعا ثمنها يسري وصابر، جدك أيضاً..

- ودفعتها أنا أيضاً من عمري..

- دوماً تستحق الحرية ثمنها الغالي وإن كان من أعمارنا، لنبدأ من جديد.. لازالت أمامنا الفرصة لنعوض كل ما فاتنا.. أعدك.

ابتسمت لأول مرة منذ استشهاد صابر، ونظرت مرة أخرى إلى صورهم المُعلقة أمامى، ثلاثتهم ينظرون إلي وكأنهم ينتظرون موافقتى على طلب جلال، إبتسمت لهم ملء فمي وانسابت دموعى رغماً عني وأنا أجيبه..

- لنعوض ما فاتنا يا جلال..

على الفور علا صوت مبروكة فرحة وكأنها كانت تجلس بيننا..

- سعيد يا نبى.. مُبارك يا حياة يا بنتى.. مبروك يا أستاذ جلال..

عندها دخلا أبي وأمي مهنئين، وشعرت بالفرحة تنساب إلى نفوسنا جميعا من جديد، فقال أبي..

- لا داعى للتأجيل إذن، لتكن الخطبة اليوم، أحضر السيد شاذلى ووالدتك يا جلال..

نظرت أمي إلى صور أبنائها ودموعها تسيل قائلة..

- سيفرحون جميعاً من أجلك يا حياة.. لطالما انتظروا هذا اليوم.. مبروك يا يسري.. مبروك يا صابر.

بعد برهة صغيرة كانتا العائلتين تقرءان الفاتحة على روح جدي وشهدائنا، ثم قرأنا الفاتحة وألبسني جلال أخيرا دبلته التي لن تفارقني مدى حياتي.

تمت